

عبد الكريم الخطيب

التعريف بالاسلام

في مواجهة العصر الحديث وتحدياته

دار المعرفة للطباعة والنشر
ببغداد - لبنان

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٩٧٥ م ١٣٩٥ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد ، خاتم
النبيين ، الرحمة المهداة ، والحجة البالغة ، والنور
اللمبين ، وعلى آله وصحابه ، ومن تبعهم بإحسان ..

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا .. مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » . [الشورى آيتا ٥٢ ، ٥٣]

(قرآن کریم)

« مَثَلٌ مَا بَعَثَنِي بِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَ الْكَلَاءُ وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ .. وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا .. وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا » .

« فَذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ قَوْلِهِ فِي دِينِ اللَّهِ وَفَعَلَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » .

(حديث شريف)

الأهـدأ

إلى السيد الجليل .. الأستاذ الممفدس .. أحمدر فبره الشرباصى :

إن أرضى شىء لقلبى ، وأهناه إلى نفسى لقاء هذا الجهد الذى بذلت فى هذا الكتاب هو أن تقبله ، هدية متواضعة ، أراها دون بعض علمك ، وفضلك ، ومروءتك !

وشفيعى لهذا هو أن الهدية على قدر مهيدها ، فليس يصيرك أن تحمل إليك علما هو دون ما تعلم ! فما زال البحر المحيط يتقبل قطرات المطر ، ويوسع لها بين عبابه مكانا ، ويمزج ماءها بمائه .. فضلا وكرما !

والحق أنك أولى للناس عندى بأن يهذى إليه هذا العمل ، الذى هو دعوة إلى الله ، وشرح لرسالة الإسلام ، على ما وسع الجهد ، وأسعفت الحال !

ذلك أننى كنت أروء هذا البحث فى خاطرى منذ سنين ، وكنت فى كل مرة أستجمع المزم فيها لتصويره فى كتاب — بصرفنى عنه ما أرى من حال المسلمين ، وجفائهم على الإسلام ، بما شوها من حقائقه ، وبما أفسدوا من معاله ، حق لقد كان الذى يريد أن يتعرف إلى الإسلام من النظر إلى أهله ، وما نضح عليهم منه — وهو لا بد ناظر إلى أهله هذه النظرة قبل كل شىء — لا يرى إلا ما يسوء النفس ، ويهذى العين ، فيقتل ذلك فى نفسى نوازع الرغبة فى الحديث من الإسلام .. إذ ماذا ينفى الحديث عنه ، ولسان الحال أبلغ من كل ما يقال ! ؟

ولكن سرعان ما أعود إلى نفسى فأجدها تحفظ فى أطوائها بكثير من الوجوه المشرقة الكريمة لأبناء الإسلام ، الذين يسفر بهم وجه هذا الدين ، وتتجلى

فيهم آياته ومعجزاته ، فأقول : إن الإسلام بخير في أهله ، وإن دعوته ستظل قائمة عاملة ، تُتَوَّى أكلها كل حين بإذن ربها .

وصدقني — أيها المسلم البار — أنك كنت أول من ألقى من تلك الوجوه المتخيرة من وجوه المسلمين التي أرى فيها ما أودع الإسلام في المصطفين من أهله ، من قوة إيمان ، وعظمة خلق ، واستقامة سلوك ، وشجاعة قلب ، وحصافة عقل .. وأن كثيراً من هذه الوجوه كانت تظهر ثم تختفي ، على حين يظل وجهك بمكانه المكين من نفسي ، لا يتحول ولا يغير ، بل كان كلما طالت العجبة معه ازداد إشراقاً ، ووضاءة ، وألقاً !

وصدقني أيضاً — أيها السيد النبيل — أن هذا الوجه الكريم من وجوه الإسلام الذي طالعه فيك ، قد كان الزاد الطيب الذي تزودت به خلال الرحلة الطويلة مع هذا الكتاب ، وكان الهاتف الصادق الذي يهتف بي إلى السير قدماً ؛ كلما وهن العزم ، وفترت النية .

فإذا أنا قدمت إليك هذا الكتاب ، فلائك شاركت فيه بظهور الغيب ، فكنت المرجع الذي أطلع في شخصه ما أودعت في هذا البحث من حقائق الإسلام . فتقبل هذا الكتاب في كلمات — إن تكن قد أصابت مواقع الفصل من حقائق هذا الدين القويم — وهيات — فإنك أنت قد بلغت هذه الحقائق بأفعالك وجلوتها بسلوكك ، وطلعت بها على الناس رسالة كريمة ، تحمل الخير ، وتهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم .. فكنت على جلال صمتك كتباً بليغة شارحة لقضايا الإسلام ، معلنة عن حقائقه ، داعية إليه بأفصح لسان ، وأبلغ بيان !

ثبت الله أقدامك على الحق ، وجعلك لأهله مثابة وأمناً ، وبارك عليك في دينك ومروءتك . وأسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة .. إنه صميع مجيب .

عبد الكريم الخطيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

التعريف بالإسلام ، والدعوة إليه ، والتبشير بشريعته وتعاليمه في غير المجمعات الإسلامية - أسره من أمر هذا الدين ، ودعوة من دعواته لأتباعه ، حيث يقول سبحانه وتعالى ، مخاطباً الأمة الإسلامية في أفرادها وجماعاتها : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ »^(١) ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، لا يتحقق أى منها على الوجه الذى تدعو إليه الآية الكريمة ؛ إلا إذا تجاوز الإنسان فى خاصة نفسه ، إلى من حوله من أهل وعشير .. ثم اتسع شيئاً فشيئاً ، حتى وسع الإنسانية كلها ، فى أزميتها وأمكفتها !

فالمسلم مطالب حيث كان - بحكم شريعته - أن يحمل إلى الناس هذا الخير الذى وجدته فى دينه ، واختبره منه ، وألا يستأثر به ، ويحتجزه فى نفسه ، وبين قومه .. فلهذا جاءت دعوة الإسلام ، ولا بهذا كانت دعوة الرسول إلى هذا الدين .. ففى اليوم الأول للإسلام ، وآيات القرآن الكريم تنزل على النبى ليحملها إلى الناس جميعاً ، وليؤذن بها فى كل مجتمع بشرى .. « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً »^(٢) .. « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ »^(٣) .

(٢) سورة الأعراف ١٥٨ .

(١) سورة آل عمران : ١١٠

(٣) سورة النحل : ٤٤ .

ومهد اليوم الأول للإسلام وأبوابه مفتحة للناس جميعاً ، يأتون إليه من كل فجٍّ ، ويدخلون فيه من كل جنس وقبيل... حتى لقد كان من حكمة الحكيم العليم أن يكون أول الداخلين في الإسلام رجلاً : حرّاً ، وعبد ، هما : أبو بكر وبلال... وحتى لكان الإسلام إنما يريد بهذا التدبير الخفي أن يهدم أول وأقوى حاجزين الناس والناس... بين العبيد والأحرار !

ولا أدعك تجاوز هذا الموقف دون أن تستصحب معك منه شاهداً على سماحة الإسلام ، وعلى شمول الخير الذي يبطوئ عليه ! فمكذبا يكون الخير المرسل من السماء ، وعلى هذا اليسر والشمول تجيء رحمة ربك التي وسعت كل شيء !

ولا أدعك أيضاً ترايل هذا الموقف دون أن تذكر ما فعل أهل الكتاب بكتبهم التي حملها إليهم رسل الله... !

فاليهود قد جعلوا شريعة موسى فيهم وحدهم ، خالصة لهم من دون الناس... ضناً بهذا الخير الذي جاء به موسى من عند الله أن ينال منه أحد سواهم شيئاً ينتفع به ، مع أن هذا الخير إنما يزيد على الإنفاق منه ، ويزداد وضاءة وألقاً كلما انداحت الدائرة التي يشرق عليها ، وينفذ بشماعة فيها... ولكنّها كزّازة النفس ، وكنفود الطبع ، وما غلب على هذه الجماعة من أثره قاتلة ، وشحّ لثيم... هي التي جعلتهم يذهبون بشريعة موسى هذا المذهب ، فيميزونها تلك العزلة المطبقة... حتى كادت تختفي وتذهب بدداً... وحاشا لله أن تجيء شرائع السماء آخذة هذا الاتجاه المعكوس ، فتدير للناس ظهرها ، وتصلك في وجوههم وجهاً... والله سبحانه وتعالى يقول : « وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » .

أما أتباع المسيح فقد أسلموا كتبهم إلى من يقول عنهم النظر فيه ، والكشف عن أسرارهم... ومهد صار أمره إلى جماعة من الناس دخل في مجال الأهواء ، ووقع

تحت مؤثرات الحياة ، فوقع فيه الكثير من التبديل والتجريف ، الأمر الذى جعل أتباعه اليوم يُنكرون وجهه ، وينكرون للأديان كلها . وكأنهم إنما يفتقمون لأنفسهم ، وللأجيال السابقة لهم ، من انخداعهم هذا الانخداع الطويل ، بما زيفَ عليهم المزيفون ، فى أمرٍ هو ملك الحياة الإنسانية ، وبمسك وجودها .

وإذا كان التعريف بالإسلام فى غير مواطن الإسلام ، هو فى كل زمان ومكان أمر من أمر الإسلام — كما قلنا — ثم هو عمل إنسانى من أعمال الإسلام ، التى لا تنشد إلا خير الإنسان — كل إنسان — ولا تتوخى غير نفع الناس — كل الناس — بلا حدود ولا قيود !

نقول : إذ كان التعريف بالإسلام هو على تلك الصفة ، وعلى هذا الإلزام الذى لا ينفك أبداً . . فى أى زمان وأى مكان — فإن هذا التعريف هو اليوم أشد لزوماً ، وأكثراً داعيةً ، لما أصاب كثيراً من الناس فى هذا العصر من خيبة أمل فى معتقداتهم ، حين تسكشفت لهم حقائقها فى ضوء العلم الحديث ، وعلى محك النظر العقلى ، الذى يحمل الشكَّ طريقةً إلى اليقين . . ! وحيث ظهر لهم من هذا ما دخل على تلك المعتقدات من زيف ، وما حسبَ عليها من مقولات الزور والبهتان .

والإسلام هو الدين الذى لم يمتحن هذا الامتحان ، ولم يمرَّ تلك التجربة عند كثير من تلك الأمم والشعوب ، التى آمنت بالعلم وكفرت بالدين . . ذلك أن الإسلام لم يعرف فى هذه المواطن ، ولم يُطلَّ على الناس هناك بوجهه ، ولم يطالهم بحقائقه ، وإنما الذى عُرِف من أمر الإسلام هناك هو شائعات وظنون ، أو ما يشبه الشائعات والظنون . . تفاقموا الرواة والإخباريون ، فى غير تمحيص ، وبلا مبالاة . . وهل يبالى الناس بما يتناقلون من الشائعات والحكايات فيما لا يضرهم ، ولا يتصل بحياتهم ؟ . . بل ربما كان ما يُروى عن الإسلام فى غير مواطنه إنما كان على سبيل السخرية والاستهزاء ، حيث تقلَّب وجوه الحقائق ، وتشوَّ معالمها .

أما ما كان ينقله العلماء والدراسون عن الإسلام من المستشرقين فقد وقع فيه خلط كثير ، عن قصد حيناً ، وعن غير قصد حيناً آخر . . فإن هؤلاء المستشرقين جميعاً — مَنْ كان منهم سيئ النية أو حسنها — ليس عندهم المِلَّة التي يقدرُون بها على تذوق اللغة العربية ، وإدراك الأسرار الدقيقة التي أودعتها الشريعة الإسلامية في هذه اللغة التي جاءت بها . . ومن هنا كان فهمهم لأحكام الشريعة فهمًا لأرواح فيه ، بل هو صور وأشكال ، وأرقام حسابية ، ومعادلات رياضية ، لا ينفذ إلى الضمائر والمشاعر شيء منها !

* * *

وفي مواطن الإسلام ؟

أليس الإسلام في حاجة إلى التعريف به ، والتبشير بحقائقه وتعاليمه بين أهله ، بل وبين خاصة للتخصصين من أهله ؟

فهل فيما ينظر الناس في المسلمين اليوم شيء من أمارات الإسلام ، وما تحمل شريعته من حقائق ، ومبادئ ، وتعاليم ؟

نعم . . في المسلمين أمارات كثيرة ، وملامح دالة واضحة . . ولكنها شيء وحقائق الإسلام ومبادئه وتعاليمه شيء آخر . . وإن هذه الملامح وتلك الأمارات ، هي في الواقع تُهم ظالمة ، يرمى بها المسلمون في وجه الإسلام ، وطعنات نافذة ، تصيب من مقاتله ، ما لم يصبه به أعداؤه ، الذين يعرفهم ، ويحذركيهم !

ذلك أن المسلمين اليوم في عزلة عن دينهم ، حيث استغفلت مفاهيمهم عليهم ، وتقطعت الأسباب بينهم وبينه ، وعميت عليهم السبل إلى كل ما فيه من حق وخير ! بل وأكثر من هذا ؛ فإن كثيراً مذهباً — نحن المسلمين — لا يقفون عند هذا الموقف السلبي من الإسلام ، وإنما هم حرب عليه ، يُحسَبون في المسلمين ، ويتسمون بأسماء المسلمين ، وليس للإسلام في عقولهم ولا في قلوبهم مكان ، فإن يكن فهو

مكان الاستخفاف والاستهزاء، بل وما هو أنكى من الاستخفاف والاستهزاء، من التدمير والهدم لمبادئه، والعبث والإفساد بمقدساته .. وما هذه الألسنة التي تتراطن بالأدب الحديث، وتستحدث لغة مفاهيم جديدة باسم التجديد، وما هذه الأفلام التي نقول بالتشويه وجه اللغة — إلا كيد جديد يكاد به للإسلام، في أوطان الإسلام، وذلك بإخراص اللسان الذي ينطق بهذا الدين، وبمحو اللغة التي تحمل شريعة الإسلام، وتكشف حقائقه ! فهذا باب من أبواب الكيد الخفية الكثيرة المتربصة بالإسلام.

إن الإسلام يلقى اليوم داخل أوطانه، وعلى أيدي من ينسبون إليه، من كيد له، ومكر به، مالا يلقاه في الأوطان التي تدين بالإسلام، ومالا يصيبه من أيدي أعدائه الذين يتربصون به .. ! !

فكيف يستقيم هذا مع ما يطالب به المسلمون من الدعوة لدينهم، والتعريف به، في أوطان غير أوطانه ؟ وفي أهل غير أهله ؟ وهم — أعني المسلمين — لا يعرفون حقائق هذا الدين حق معرفتها، وإن هم عرفوها فإنهم لا يستقيمون عليها، ولا ينتفعون بها، ولا يظهر لها أثر طيب في أفرادهم وجماعاتهم على السواء .. فكيف يساغ مع هذا أن يكونوا دعاة للإسلام، ومبشرين بتماليه .. ؟ ! وماذا يأخذ الناس من هذا الدين إذا هم تنفروا إليه من خلال المسلمين المتدينين به ؟ وهم لا بد ناظرون هذه النظرة إلى المتدينين بالدين، قبل أن ينظروا إلى الدين نفسه !

أنراهم يعطون هذا الدين شيئاً من اهتمامهم، وينفقون فيه بعضاً من وقتهم، إذا هم نظروا في وجوه المسلمين .. فرداً فرداً، أو جماعة جماعة ؟

ورحم الله البوصيري إذ يقول :

أمرتُك الخيرَ لكن ما اثمرتُ^٢ به ولا استقمتُ^٣، فما قولى لك استقم ؟
ولقد نعى الله على أولئك الذين يأمرُونَ بالبرِّ، وهم على طريق غير طريق الأبرار.
فقال سبحانه : « أَنَا مَرُّونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ، وَأَنتُمْ ثَمَلُونَ الْكِتَابَ.

أفلا تفعلون ؟ »^(١) ، كما أنكروا سبحانه على أهل الإيمان أن يجرى فعلهم على خلاف قولهم ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لِمَ تقولون مالا تفعلون ؟ كبيرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »^(٢) !

والمعجب الذى يملأ النفس حسرة وكدا ، هو أن نزهد فيما فى ديننا من تعاليم رفيعة ، ومثل عالية ، تتضائل أمامها أرفع ما وصلت إليه المدنية الحديثة من تصور وفهم ، لمثل الحق والجمال ، فى أرق الأيم وأسبقها يداً ، وأرسخها قدماً فى الحضارة والرقى !!

المعجب أن نزهد فى هذا الخير الكثير الذى بين أيدينا من أدب الإسلام وتعاليمه ، ثم نمدّ أبصارنا ، ونفتح قلوبنا وعقولنا إلى ما عند أمم الغرب من فنون الحياة ، وأدب السلوك ؟ ونسأل : ما سبب هذا الاستخفاف بمعطيات الإسلام ، وهذا الفتور فى الإقبال عليه ، وهذا الاستحياء من التمسك بآدابه ، وهذا الخجل من التمسح به ، والأخذ بهديه ؟

فلا نجد لهذا جواباً شافياً ، ولا حجة قائمة !

والحق أن كثيراً من المسلمين يَطوون قلوبهم على احترام الدين والتمسك به ، ولكنهم حين يضمهم مجتمع من تلك المجتمعات التى بنشأها عليّة القوم ، وكبار الناس — يتصاغروا فى أنفسهم هذا الشعور ، ويضمروا فى كياناتهم هذا الإحساس ، ويبدو لهم أن من الكياسة ، والفضيلة ؛ أن يداروا ما بأنفسهم من مشاعر طيبة لدينهم ، حتى لا يقال عنهم إنهم متدينون ، وحتى لكان الدين عار يزرى بأهله ، وحطة تنزل بقدر من يضبط مقلباً بها !!

هذا أمر واضح لا يفتغ فيه الإنكار . . فحيث تكون الحياة ، وحيث تكون النعمة والوجاهة ينكش الدين ، ويتعزى منه أهله ، خوفاً من أن يقال

إنهم أهل دين ! ثم يمتد هذا إلى القول بأنهم متأخرون ، جامدون . . أموات
في أجساد أحياء !

فالفرار من الدين - في هذا التقدير - هو الذى يحمى الإنسان من هذا
الوضع المشين بين الناس !

فامرؤ هذا وما تأويله ؟

أفى الإسلام ما يعوق سير الحياة ، ويسد الطريق على الآخذين بأسباب
الوجاهة والجاه ؟

أفى الإسلام دعوة إلى مفكر ؟ أو أمر بما يجرح المروءة ويخدش الحياء ؟

أفى الإسلام ما يحمل المتدينين به على أن يكونوا أمساخاً فى الحياة ، ودمى
متحركة . . يستهزأ بها ويسخر منها ؟

إنه لظلم عظيم أن يفهم الإسلام هذا الفهم ، وإنه لخيانة مهلكة لأنفسنا أن
ننزل الإسلام فى حياتنا هذه المنزلة الدون ، والانتوج به رؤوسنا ، وألا نتخذ
أوسمة نحلى بها صدورنا . . فى كل مجتمع عظيم ، وفى كل موقف كريم من
مواقف الحياة !

إن الدين بأهله . !

ولقد صغرت نفوسنا ، وضمرت ذاتيتنا ، فصغر فيها كل معنى كريم ، وضمّر
فيها كل مثل قاضل !

إن النفوس المريضة تنقلب فيها حقائق الأشياء كما تنقلب صور المرثيات فى
العين للمريضة ، وكما تحرف مذاقات الطعوم فى الفم السقيم .

ومن يك ذا فمٍ مريض يحذُّ مرأً به الماء الزلّالا

والواقع أننا قد أصبنا فى القرون الأخيرة بعلى وأوجاع ، أفسدت حياتنا ،

وأنزلتنا منازل المون في دنيا الناس . . فاستعمرت أوطاننا بالذخلاء ، وصار إلى غيرنا تدبير شئوننا ، وتوجيه حياتنا . . وكان من خداع المستعمر ومكره بالإسلام وكيدته له ، أن صور لنا ديننا في صورة العدو الذي دخل علينا بهذا الضعف والهوان ، وكأنه هو السبب في هذا التخلف الذي مررنا إليه ! وأتينا لو لم نكن ندين بهذا الدين لما وجد الضعف وللتخلف سبيلا إلينا ، ولا كان للاستعمار أن يحمل بأوطاننا . . هكذا ألقى إلينا الاستعمار بهذا الضلال المسموم ، فتلقاه كثير منا بالقبول والتسليم !

ولقد حمل الاستعمار جاهداً على أن يمكّن لهذا الضلال من نفوسنا . . بما أذاع بأساليبه وصنائمه من مفتريات على الإسلام ، وتهجم عليه ، وازدراء لأهله ، واستخفاف بمكائدهم في الحياة ، وحرمانهم من كل مكان كريم فيها . . بل وأكثر من هذا . فقد أرانا صورة عملية تعيش بيننا . . فهو إذ وضع يده على أوطان الإسلام كلها ترك بلاداً غير مسلمة - كالحبشة مثلاً - دون أن يمد إليها يداً ، ليرى المسلمين من ذلك أن دينهم هو الذي جعل أوطانهم - دون أوطان سائر الأديان - على هذه الحالة من الضعف : وأن هذا الدين هو الذي أمسك بهم عن السير في ركب الحياة ، وأن الاستعمار قد جاء ليأخذ بيد هذه الجماعات المتخلفة عن الركب ! !

ذلك أن المستعمر كان يعلم من أمر ديننا أكثر مما نعلم ، ويدرك من القوى الكامنة فيه ما لم نكن ندرك ، وأنه لكي يتمكن لنفسه في أوطاننا كان عليه أن يقضى أولاً على أقوى قوة يمكن أن تصعو فينا يوماً - وهو الإسلام . . ويومها ؛ لا يمد له مكاناً بيننا ، ولا مدخلا إلى أوطاننا !



ومن اليوم في مطلع مهلاد جديد . .

فأوطان الإسلام ثقلت من يد المستعمر . . وطلبا . . وطلبا . .

لقد حططنا قيود الاستمرار !

وأزحنا الضعف عن كثير من مرافقنا المادية .. وكدنا نلحق بالغرب
في كثير منها .

ولكن .. لازال موقفنا من الدين كما كان من قبل .. نهرب منه . ونعزل
أنفسنا عن الاختلاط به ، خوفاً من أن يعوق خطونا ، أو يوقف انطلاقنا .

فلَمْ نحاول أن نجد في ديننا قوة دافعة نستفيد إليها ، ومجداً عظيماً نحرص عليه !
ولازالت نظرتنا إلى الدين وإلى المتدينين نظرة باردة فاترة ، لاتعنى شيئاً ،
ولا توحى بشيء ! .. إننا مازلنا من أمر ديننا تحت سلطان هذه المشاعر المريضة
الخفيفة ، التي أدخلها الاستمرار في كيانتنا ، ودسّتها في ضمائرنا ، بما كاد الإسلام
والمسلمين .. بالقول والعمل .. جميعاً .

وماذا في الدين ؟ ولم نخاف صحبته في انطلاقنا مع الحياة ؟ وهل الدين شيء
والحياة الكريمة الرقيقة شيء آخر ؟

وإذا كانت بعض الأديان — بما دخل عليها من تبديل وتحريف — قد فضحها
العلم الحديث ، وانكشف لأصحابها ماتلبس بها من مفتريات وأباطيل — فهل
وقع الإسلام تحت هذا الحكم الذي أصدره العلم الحديث على هذه الأديان ؟ وهل
امتنحن الإسلام ومُحَصَّنت حقائقه على ضوء العلم ، وفي مخايلير الحياة ، ثم ظهر فيه
مالا يرضاه العلم ، ومالاتقبله الحياة ؟

إن الإسلام — وثوقاً منه بما ضُمَّ عليه من حق وخير — يرحب كل
الترحيب بالعلم الحديث ، ويسعد السعادة كلّها بقاء العقول الناضجة المستنيرة له ،
بكل ماتملك من قوى التمييز والفحص ، وبكل ماوضع العلم بين يديها من وسائل
التمييز بين الحق والباطل ، والنافع والضار ، والسلام والسقيم .. فلك هي فرصة
الإسلام التي يظهر فيها معدنه ، وتكجلي فيها حقائقه ، وتشرق شموسه !

إن هذا العصر — عصر العلم ، والشك .. عصر الامتحان لكل شيء .. عصر

الإلحاد وغربة الأديان — هو عصر الإسلام ، وهو اللسان المجدد لدعوته ، حيث
يجلّي حقائق الإسلام ، ويكشف الخير الخبوء للناس فيه !

ولا يريد الإسلام ، ولا نريد له أن يتلقى الناس دعوته قضية مسلّمة ، بل إن
الذي يريده ونريده له ، هو أن يضع العلماء والمفكرون هذه الدعوة موضوع الشك ،
أو الإنسكار — إن شاءوا — ثم يعاملوها معاملة القضايا التي ينكرونها
أو يتشككون فيها ، فيسلطوا عليها نظراتهم ، فاحصةً باحثة ، ثم ليقابلوها في أيديهم
ظهِراً لبطن ، وبطناً لظهِر ، ولتجتنبوها بكل مافتح به عليهم العلم ، من أساليب
الامتحان .. ثم ليحكموا عليها بعد هذا ، بما يظهر لهم على محك الفحص والاختبار ..
وإن الإسلام ليتقبل هذا الحكم في غبطة ورضى ؛ لأنه لن يكون إلا شهادة يدينه
الحجة ، ساطعة للبرهان على أنه الدين الحق ، الذي فيه خير الإنسانية وأمنها
وإسعادها .

* * *

وليس البعث في حقائق الإسلام ، والكشف عن معدنه بالأمر الذي يحتاج
إلى مجامع علمية ، أو دراسات أكاديمية ، فذلك إن يكن مما يُسعد الإسلام أن
يقع له ، فإنه ممكن أن يتحقق في محيط الفرد كما يتحقق في محيط الجماعة ، وأن
يتاح لأوساط الناس كما يتاح للعلماء والحكماء والفلاسفة .. فكل إنسان يستطيع
أن يتعرف إلى الإسلام ، وأن يكشف عن وجه الحق والخير فيه ؛ بلهسة خفيفة ،
أو نظرة خاطفة !!

وكيف يكون الطريق إلى الحق والخير ملتويًا مظلمًا ؟ ! إنه ليس بخير أبداً ،
ولا يحق مطلقاً ما كانت السبل إليه معمّاة ، والمنافذ مغلقة ، أو كانت مسالكه
وعرة موحشة ، لايتهدى السالكون فيها إلا بدليل ، ولا يقطعونها إلا بمن يحمل
ويعين !

أتريد أن ترى لمسة خفيفة من تلك اللغات التي تنفجر بها عيون عذبة صافية
من ينابيع الإسلام الثرة ، التي تتلج الصدور ، وتحيي القلوب ؟

إذن فهناك نفحة من نفحات الإسلام ؛ تملأ أجواء الدنيا كلها أريجاً وطيباً !
لقدع الأصول العامة للإسلام ، ولنترك ماقرر من مبادئ المساواة المطلقة بين
الناس ، وما شرع من صيانة الدماء والأموال والأعراض !

فالمبادئ العامة في الأخلاقيات والمعاملات قلما تخلو منها ديانة من الديانات ،
أودعوة من دعوات المصلحين والراشدين . . ولكن الخطوط الرفيعة والفوارق
الدقيقة فيما بين أمر وأمر ، وعمل وعمل ، لا يلتفت إليها إلا أصحاب البصائر ،
النافذة ، وقلما يمسك بها إلا ذوو المهارة والحدق !

ثم انظر . . . !

إن القياس الصحيح في هذا العصر للرقى الإنساني ، هو فيما يبلغه الإنسان من
دقة الحس ، ورفاهة الوجدان ، وذكاء العقل . . وقد ارتفع قدر الأمم الغربية
في نظرنا لما بلغته مجتمعاتها من منزلة عالية في هذه الصفات ، وكان غاية طلاب
السكال عندنا أن يقالوا حظاً من هذه الصفات ، ليجدوا في أنفسهم طمأنينة الرضا ،
وليشعروا أنهم شيء ، أو على شيء . . في عالم التمدن والرقى !

وفي أدب الإسلام مناهج دقيقة محكمة لمراسم الذوق السليم ، والحس المرهف ،
والوجدان اليقظ .

فلقد تحول الإسلام بالعرب من جاهلية غليظة جافة ، وبدعوة صلدة جافية إلى
حياة مخصبة بأرق العواطف ، وأنبل الأحاسيس . . حتى لكان رجل الجاهلية
الذي عاش فيها عمراً طويلاً ؛ قد أعاد الإسلام ببناءه ، وخلقه خلقاً جديداً . . في شهور
أو سنوات شasha في الإسلام . !

ما ترك الإسلام شيئاً يتجمل به الإنسان ، ويبلغ به مراتب الكمال في عقله
وخلقه — إلا كان ذلك من صميم دعوته ، ونهج تعاليمه :

« المؤمن كيسٌ فطن » ١ ضعف الجوارح لناسك كسف الحياء

هذه صفة المؤمن في قول الرسول الكريم ، وتلك أدل وجوه التعرف إليه .
فمن فارقته الكياسة ، أو تخلت عنه الفطنة فقد خفت موازينه في الإسلام ، وفقد
الخصائص الإنسانية الرفيعة ، التي ينشئها الإيمان في قلوب المؤمنين .. فليس يفتى عن
للمسلم أنه مسلم إلا إذا ارتفع به إسلامه إلى أن يكون كيساً فطناً .

والكياسة التي يعنيها الإسلام ليست شيئاً من هذه « الدبلوماسية » التي
يتلقاها محترفو السياسة ، وبلقنونها تلقيناً ، ليمثلوا بها دورهم الذي أعدوا له ، كما يمثل
الحيوان بعض الحركات التي يتعلمها في « سيرك » .. دون أن ترتبط بوعى ، أو تصدر
عن شعور !

لا ، ليست هذه الكياسة مما عناه الإسلام ، ووصف المؤمنين به ، ولكنها
كياسة نفس متحررة ، وحس مهف ، ووجدان سليم ، وضمير يقظ ، تخرج حيائه
الكلمة النابية ، وتَصُكُّ سمعه اللفظة الخشنة الجافية .

ومن هنا كان : « الحياء شعبة الإيمان » . كما ينطق بذلك نبي الإسلام ، وكما
يقول : « الحياء خير كله » و « الحياء لا يأتي إلا بخير » و « الحياء نظام الإيمان » .

والحياء الذي عناه الرسول الكريم هنا ، هو حياء النفوس العزيزة الكريمة ،
حياء الأدب الرفيع ، والإدراك السليم للفروق الدقيقة بين الخير والشر ، والحسن
والقبيح . وليس هذا الحياء الذي يجيء عن استخزاء وضعف ، أو يتولد من تصنع
الأئوثة والتخلف . فما لمثل هذا الحياء نصيب من خير ، ولا حساب في مجال
الفضيلة والإحسان !

ومن هنا أيضاً كان هذا التحول الكبير في نفوس المسلمين بمد أن انتقلوا

من الجاهلية إلى الإسلام . . ويبدو هذا واضحاً في هَجْرَم الألفاظ الغليظة ، لجرد خشونتها وغلظها ، أو لسوء دلالتها ، فاستبدلوا بها أسماء أرقّ لفظاً ، وأكرم معنى ! كان من الأسماء التي يتسمون بها في الجاهلية : ظالم ، ومُسهر ، ومقاتل ، وفرّاس ، وشَدَّاد ، ونحوها . . فتركوها إلى الحسن ، والحسين ، وسعد ، وسعيد ، وجميل ، وأشباهها . وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه هو المعلم الأول لهم ، والأسوة الحسنة في كل ما هو حق ، وحسن ، وخير .

يقول ابن قيم الجوزية : « وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن . . وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعاني من أسمائها في اليقظة والمنام .
« فقد رأى مرة في منامه أنه في « دار عقبة بن رافع » فَأَتَوْا بِرُطْبٍ مِنْ رُطْبِ « طاب » . ، فَأَوَّلَهُ — صلى الله عليه وسلم — بَأَن لَهُمُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّفْعَةُ فِي الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ الدِّينَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهُمْ قَدْ أَرُطِبَ وَطَاب » .
ثم يقول :

« وتَأَوَّلَ — صلى الله عليه وسلم — سهولة أمرهم يوم الحديبية ؛ من مجيء « سهل » ابن عمرو ^(١) » إليه ، فقال — أى الرسول لصحابته — : « سهل الله أمركم !
« وكان صلى الله عليه وسلم يكره الأمكنة المفكرة الأسماء ، ويكره العبور فيها . . كما مر في بعض غزواته بين جبليين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومُخْزٍ ! فعدل عنهما ولم يَحْزُرْ بينهما ^(٢) »

وفي صحيح البخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم غيّر اسم « حَزَن » — جد سعيد بن المسيّب — وجعله « سهلاً » . . فأبى صاحب الاسم ، وقال : السَّهْلُ يُوْطَأُ

(١) سهل بن عمرو هو الذى ندبته قريش ليكون ممثلها في صلح الحديبية الذى عقده مع النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد ، لابن القيم : جزء ٢ ص ١٧ .

وَيُمْتَنَن ، ! وفي صحيح مسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم غير اسم « عاصية » ، وقال :
« أنت جميلة » .. وفي سنن أبي داود أنه صلى الله عليه وسلم : سُمي « حرباً » ، « سلماً »
وسمى « المضطجع » المنبعث .. وأرضاً « عفرة » سماها خضرة ، « وشعب الضلالة »
سماه « شعب الهدى » ...

فهل رأى الناس أو شهدت الحياة الإنسانية كلها أدباً بطاول هذا الأدب ،
وتربية تستشرف إلى هذه التربية ، التي تتخلق منها هذه المشاعر المرفهة ، وتلك
الوجدانات المصاحبة المشرقة ؟

إن رسول الإسلام يستنبت بحكمته وتأديبه ، في هذه الأرض الجديب ؛ رياضاً
مزهرة مشمرة ، ويفجّر بلفظه ورقته من هذا الصخر الصلد ينابيع الرقة واللفظ ..
حتى لقد تحوّل أعراب البادية بعد سموات من دخولهم في الإسلام ؛ إلى ساسة أمم ،
وقادة شعوب ، وأساتذة علم ، وأدب ، وخلق !

هذا ، وقد يبدو عند بعض الناس ، وذوى الغفلة فيهم أن مثل هذا التحول شيء
لا يُلبثت إليه ، في مجال الحياة ، وفي البناء الحضارى للأفراد والجماعات . ولكنه
في الواقع انتقال هائل في عالم الروح ، حيث لا تقاس الأمور هناك بما تقاس به
للاديات ، فلا تسكال كيل التراب ، ولا توزن وزن الأحجار !

فهذا الانحراف القليل في الاتجاه النفسى هو نُقْلة كبيرة في حياة الناس ، وتحوّل
من النقيض إلى النقيض .. انتقال من بداوة وغلظة وجفاء ، إلى رقة ولطف ودماثة ..
وتحوّل من طباع أقرب إلى طباع الحيوان ، إلى نماذج إنسانية كريمة عالية .. تحمير
عنها الأنظار ، وتقصّر دونها العزيمات والهمم !

ولست رقة الحس هذه أمراً تركه الإسلام لأتباعه ، يتخيدون منه ما يتخيدون ،
بل إن الرسول الكريم جملة دعوة من دعواته ، وسنة من سنته .. فيقول - صلوات

الله وسلامه عليه — : « اطلبوا الخير عند حسن الوجوه » .. ويقول : « إذا أبردتم^(١) إلى بريداً فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم » !

فأي دعوة تبلغ بعض ما تبلغ هذه الدعوة الكريمة ؛ من إيقاظ مشاعر الجمال في النفوس ، وفتح مغالق القلوب لكل حسن وجيل ؟ وهل بلغت مذاهب الفنون كلها في معارض أعمالها ، وفي دعوات المبشرين بها أن تخلق بعض هذا الإحساس بالجمال في النفوس ، الذي تخلقه هذه الدعوة اللينة الكريمة ، التي تدخل على الناس من مداخل الإيمان والاعتقاد ؟

وهل عرفت الحياة في أرقى الأمم وأكثرها تمرساً بالحضارة والمدنية ؛ شيئاً يقارب هذه الكياسة ، أو يدانيها ؟

فلقد نعتى مدارس « الدبلوماسية » الحديثة بمبعوثيها ، فنتخيرهم من ذوى الوجوه الحسنة ، والبزة الظاهرة ، والزى المتخير ، ولكنها هيئات أن يعينها منهم منطبق الاسم أو مفهومه !

وليس هذا عند الإسلام في مجال السياسة ، أو في مجال الحياة العامة وحسب ، بل إنه واقع في مجال الدين أيضاً ... !
واسمع واعجب ... !

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤم القوم أقروهم لكعب الله ، وأقدمهم هجرة ، فإن كانوا سواء فليؤمهم أحسنهم وجهاً » !
أرأيت ؟ إن للجمال الحسنى — فضلا عن الجمال النفسى — مكانه في الإسلام ، وله وزنه وأعباره ، في تعاليم الشريعة وأحكامها ! !

وليس هذا من الإسلام إلا لتربية مجتمع إنسانى .. يقظ ، واع ، متفتح للحياة ، مقبل على طبيعتها ، محسن لاختيار مواقع الجمال والحسن منها !

(١) أبردتم : أى أرسلتم رسولا .

هذه ضوء من أضواء الإسلام الفاهرة ، وشعاع من أشعته الفياضة المتدفقة .
يمكن أن تكون برهاناً ساطعاً ، ودليلاً أميناً هادياً بين يدي من يطلب الحق ،
ويلتمس الهدى ، ويتغنى الخير . . . حيث كان مكان الحق والهدى والخير !

وإذا كان لغير المسلم أن يُغمض عينه عن ألق هذا النور المتدفق من الإسلام؛
ضناً بمعتقد قديم ألف صحبته ، أو حسداً للإسلام أن يطالع محاسنه -- فأى عذر
للمسلم أن يقف من الإسلام هذا الموقف ، وأن ينظر إليه هذه النظرة الميتة الباردة ؟
إنه لا عذر ! ولكنه داء تدسس إلى عقول المسلمين وقلوبهم ، فأفسد ما بينهم وبين
الإسلام من روابط ، وأوهى ما بينه وبينهم من صلات . !

* * *

وهذا البحث إنما غايته — كما قلت — التعريف بالإسلام . . . والتعريف به
في المجتمع الإسلامى أولاً ، ثم التعريف به في الأوطان غير الإسلامية ثانياً .

وإذا كان المسلمون يعرفون من أمر الإسلام ، ومن أحكامه وتعاليمه ما يكفي
قليله في إقامة المسلم على طريق الإسلام ، وفي ملء حياته المادية والروحية بكل طيب ،
وبكل خير ، لو أنه استقام على ما عرف ، وعمل بما علم — إذا كان ذلك كذلك ،
فإن التعريف بالإسلام هنا ليس بالكشف عن حقائق الإسلام ، وإنما يكون بتجلية
ما لهذه الحقائق من معطيات في مجال الجسد والروح ، وفي محيط الفرد والجماعة . .
ففي هذا التعريف القائم على هذا المنهج ؛ تتاح الفرصة لكثير من الناس — أعنى
المسلمين — أن يسيّدوا النظر في موقفهم من الدين — أعنى الإسلام — وأن يراجعوا
أنفسهم فيه !

أما غير المسلمين — ممن يُقدّر لهم أن ينظروا في هذا البحث — فإنهم سيرون
كثيراً من حقائق الإسلام في صورها النظرية ، وفي معطياتها العملية . . وحقيقة واحدة
من حقائق الإسلام يمكن — كما قلت — أن تكون ، باباً إلى الإسلام ، يدخل إليه

منه مَنْ يطلب الخير ، ويؤثر الحق .. أما المكابر ، وأما اللجوج المائد ، فهيات هيات أن نلتقي معه ، أو نلوى زمامه إلى ما نريد له من هدى ورشاد !

« وما أنت بهادر العمى عن ضلاتهم .. إن تسمعُ إلا من يؤمنُ بآياتنا فهم مسلمون ^(١) » .

* * *

هذا ، والذي نعرضه من حقائق الإسلام في هذا البحث يقسم بسمتين :

أولاهما : أخذه من نصوص الكتاب الكريم ، والسنة المطهرة الصحيحة .. وهذه النصوص ليست محجوبة عن أحد ، ولا هي متأبئة على أحد ، وإنما هي في معرض النظر لكل ناظر ، ثم هي ليست خارجة — في منطوقها ومفهومها — عن منطوق اللغة العربية ومفهومها ؛ على ما ينطبق بها أهلها ، ويفهمونها عليها ، ويخرجون عليه أدبها .. شعرا ونثرا .

وثانيتهما : الوقوف بمعطيات هذه النصوص عند أدنى مراتب النظر إليها ، دون أن نلتفت كثيرا إلى ما تناله منها أنظار الحكماء ، والفلاسفة ، والفقهاء .. فهذا القدر الذي يكشف لنا من نصوص الشريعة في مجال الفطرة الفطرية ، البعيدة عن التفلسف والتفحص — هذا القدر كاف في كشف حقائق الإسلام وتجليتها على الوجه الذي يملأ العقل ثقة بها ، ويشيع في القلب إيماناً بها ، وطمأنينة إليها .

فعملنا في هذا البحث ، هو الإعلان عن قضايا الإسلام ، ثم استحضار الأسس التي قامت عليها ، ثم الاستشهاد لهذه الأسس بما نطق به الكتاب ، وجاءت به السنة .

والذي نرجوه من وراء هذا العمل ، هو أن تفتتح أبصار الناس وبصائرهم إلى

هذا الدين ، القدى نؤمن أنه الخير المدّخر لإنقاذ البشرية كلها ، من هذا الضلال الفارقة فيه ، وهو وحده سرّ كآب النجاة لهؤلاء الحيارى ، الذين يتخبطون فى دياجير الشك والإلحاد ، يبحثون عن ممتدّ صحيح بمتقدونه ، بعد أن خلت عقولهم وقلوبهم من مشاعر الدين .

وما يحملنا على هذا البحث إلا حبّ الإنسانية ، وابتغاء الخير لها ، فلقد هدانا الله إلى هذا الدين ، فعرفنا مافيه من خير ، ونرى من المعقوق للإنسانية ، والتنكر للمروءة ، والخيانة للحق ، والخير ألا ندلّ عليه من ضلّ الطريق إليه .

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ . . فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ » .

« وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » .



مِنْ مَغَارِسِ الدِّينِ

هذه قطوف من الثمر الجنى الطيب ، اقتطفناها من رياض الإسلام ، ورأينا أن نميل بالقارىء إليها ، قبل أن يلتقى بالإسلام لقاءً مواجهاً ، وقبل أن يشغل بالدراسة والنظر ، فيما نعرضه عليه من حقائق هذا الدين .

وغایتنا من هذا التدبير هو أن نوقظ مشاعر القارىء ، وأن نستثير نشاطه ، وأن نضع بين يديه ثمرات دانية القطوف ، ليطمم منها ، وليجد فيها بعض مذاقات هذا الدين الحلوة الطيبة ، قبل أن يطول به المطاف في هذا البحث ، وقبل أن يبذل له ما يبذل من معاناة النظر والتمحيص . . فإن النفس مولعةٌ بحبِّ العاجل ، راغبةٌ فيما ينال من قريب ، دون مشقة أو جهد !

إن كل « لقطة » من هذه اللقطات السريعة التي نعرضها هذا ، تضم في كيانها خيراً كثيراً ، يملأ آفاق الدنيا كلها ، وإن أياً منها زاد عتيد ، لمن أراد أن يتزود من كل خير . . لدنياه وآخرته جميعاً .

نقدم هذه القطوف ، وفي تقديرنا أن كثيراً من الذين ينظرون في هذا البحث سيقفون عند أول الطريق ؛ مع هذه الثمرات الطيبة ، ليمشوا فيها ، ومعها ، فهي حسبهم من كل ما يبتغون من خير ، إذ هي وحدها منهج متكامل في مجال التربية للمادية والروحانية ، وزاد عتيدٌ كريم ، لمن وفقه الله ، وهدهد ! ثم لا عليه بعد هذا أن يصحبنا إلى غاية هذا البحث ، فإنه — إن فعل — وجد مغارس الحق التي أخرجت هذا الخير الذي عرّف وجهه ، وسعد به ، فيزداد هدًى إلى هدًى ، وخيراً إلى خير : « والذين اهتدوا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم ^(١) » . . فإن وقف به جهده عند هذه القطوف ، وقنع بحظه مما نال منها ، فقد ملأ يديه من خير كثير ! وما لا يدرك كله لا يترك قله ! !

مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

١ - الله رب العالمين

* « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ . وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .
(آل عمران : ٦٤)

* « وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .
(العنكبوت : ٤٦)

* « قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ، وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » .
(البقرة : ١٣٩)

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . . . قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » .
(البقرة : ٢٥٦)

تلك هي دعوة الإسلام إلى الله ، وهذا هو موقف أتباعه من أهل الكتاب ، وما يدعون به ..! فأى دعوة أقوم ، وأرحب ، وأحكم ، وأحق ؟ من هذه الدعوة ، التي تُسلم الإنسانية جميعها ، والوجود كله ، إلى مصير واحد ، في يد متصرف واحد .. هو الله رب العالمين ؟ إن ذلك هو ما يقضى به منطلق كل عقل ، وما ينتهى إليه نظر كل مفكر . « أرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ^(١) ؟ » .

٢ — العفو .. مروءة ودين

* « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . » (الشورى : ٤٠)

* « وَكَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . » (البقرة : ١٩٠)

* « وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . »

(فصلت : ٣٤ — ٣٥)

* * *

في هذه الكلمات المعدودة وضع الإسلام دستور السلوك الإنساني ، الذي لا يهتز ، ولا يضطرب .. في أي مجتمع ، ومع أي نفس ، وفي أي زمان !
فجزاء العدوان بالعدوان ، ولقاء السيئة بالسيئة ؛ فطرة مرسوسة في الكائن الحي ، وقوة عاملة في كيان الإنسان ، لا يستطيع أن يتجرد منها ، وإن هو استطاع أن يتخفف من ضغطها وجوحها !

فالإسلام يقرر هذا الحق للإنسان ، ويطلق يده في أخذ هذا الحق ، وأن يجزى للسيئة بالسيئة ، والعدوان بالعدوان ، ولكن بشرط ألا يأخذ أكثر من حقه ، وإلا انقلب الوضع ، وأصبح معقديا ، بعد أن كان معتدّي عليه !

ثم بعد أن تقرّر هذا الحق للإنسان ، وأصبح ملكاً خالصاً له ، جاءه الإسلام من طريق آخر .. طريق مفاوضة المالك فيما ملك ، ومعاوضته بما يمكن أن ينزل عنه من ملكه .. فدعاه إلى العفو ، وإلى التسامح ، وإلى دفع الشر بالخير ..

..وله في مقابل هذا جزاء ان طيبان : عاجل ، وآجل .. أما العاجل فهو أنه يمتلك
— بالعفو عن المقدى ، وبالإحسان إلى المسىء — زمام الموقف ، فيصبح السوء
المحسن الكريم .. وأما الآجل ، فهو ما ادّخره الله له من جزاء حسن ، وثواب
عظيم .. « والله عهده حُسن الثواب » .

* * *

مِنْ السَّنَةِ الْمُرْتَبَةِ

١ - إنسانية ورحمة

* رَوَى البخارى فى صحيحه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان فى أصحابه فمرت جنازة فقام لها ، فقيل له : إنها جنازة يهودى .. ! فقال : أليست نفساً ؟
(البخارى جزء ٢ : ص ١٠٨)

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن أسودَ — أى عبداً — كان يقيم^(١) المسجد ، فمات ، ولم يعلم النبي صلى الله عليه وسلم بموته ، فذكره ذات يوم ، فقال : « ما فعل ذلك الإنسان ؟ » قالوا : مات يا رسول الله ! فقال : أفلا آذنتموني^(٢) ؟ فقالوا : إنه كان كذا وكذا — وذكروا قصته — فحفرُوا شأنه .. فقال : « فدلوني على قبره » ! فأتى قبره فصلى عليه !!

(البخارى جزء ٢ : ص ١١٣)

* ويروى عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أنه كان يحدث فيقول : « قمت فى جوف الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، فاقبعتها ، أنظر إليها ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين^(٣) المزنى قد مات ، فإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرة ، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه ، وهو يقول : « أدنيا إلى أخاك » .. فدلّياه إليه ، فلما هياه لشيئه قال :

(١) أى ينظفه ويجمع ما يقع فيه من مفاذر .

(٢) أى أعلمتموني .

(٣) سمي ذا البجادين لأنه لما أراد الإسلام منعه قومه ، وضيقوا عليه ، ففرج من بينهم ليس عليه إلا بجاد واحد ، فشقه فاتزر بشق ، وارتدى الآخر ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسماه ذا البجادين .

« اللهم إني قد أمسيت عنه راضياً فارضَ عنه » . . فكان عبد الله بن مسعود يقول : يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة !»
(زاد المعاد جزء ٣ ص ١١٣)

* وعن ابن عباس أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها ، وهو يُحدّ شفرتَه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أتريد أن تميّتها موتات ؟ هلا حُدّت شفرتك قبل أن تُضجّهما ؟ »

وهذه الآيات البينات من أدب النبوة أوضح من أن يدُلّ عليها بشرح أو بيان !

* * *

٢ - لطف . . وعدل

* عن أنس — خادم النبي صلى الله عليه وسلم — قال : خدمت الرسول عشر سنوات . . فما قال لشيء عملته : لم عملته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟
* وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إخوانكم خَوَلُكم^(١) .. استمعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم . »

* * *

فأى نظام من أنظمة العمل ، وأى قانون من قوانين المال في جميع الأنظمة السياسية والاجتماعية التي يعيش عليها الناس في القرن العشرين — يرتفع إلى هذا المستوى الرائع الكريم ؛ الذي رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل جميعاً ؟
أى نظام في أرق الأمم يضمن للعامل هذا الحق الأدبي عند صاحب العمل ، حتى ليؤديه إليه في صورة عبادة ، وقُرْبَى لله ! ؟

« إخوانكم خَوَلُكم . . »

الأخوة هي الأساس الذي يقوم عليه عقد العمل بين العامل وصاحب العمل .

(١) خَوَلُكم : أى ما خَوَلكم الله ، أى أعطاكم ومليككم .

الأخوة أولاً وقبل كل شيء... هي التي تجمع الإنسان إلى الإنسان ، وتصله به ،
أخوة مقررة متبادلة بين الطرفين .

أخوة مقررة قائمة .. قبل أن يكون بينهما صلة تعامل وعمل !

إخوة إنسانية .. يلتقيان أو يفترقان ، دون أن ينقطع بينهما هذا الرباط
الوثيق ، الذي جمعهما الله فيه .

وهذا هو السر القائم في تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » في
الحديث الشريف .. فلم يقل الرسول الكريم : « خولكم إخوانكم » ..
بل قال : « إخوانكم خولكم » لينبه من أول الأمر إلى هذه الأخوة القائمة بين
الإنسان والإنسان ، دون أن تقوم بينهما حواجز مصطنعة كاذبة .. من حواجز
الغنى ، والجاه ، والسلطان ، واللون ، والدم ، والجنس !!

* * *

٣ - سماحة ومروءة وفضل

* يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« مَنْ يَغْفِرْ يُغْفَرْ لَهُ ، وَمَنْ يَعْفُ يَعْفُ اللَّهُ عَنْهُ » .

(زاد المعاد : جزء ٣ ص ١٤)

* ويقول :

« مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عَذْرًا مِنْ مُتَّصِلٍ .. صَادَقًا كَانَ أَوْ كَاذِبًا ، لَمْ يَرِدْ عَلَى الْخَوْضِ »

(البيان والتبيين : جزء ٢ ص ٢١)

* ويقول :

« إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ عَسَلَهُ .. قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمَا عَسَلَهُ ؛ قَالَ : يَفْتَحُ

لَهُ بَيْنَ يَدَيِ مَوْتِهِ عَمَلًا صَالِحًا ، حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ مِنْ حَوْلِهِ ! »

(المجازات النبوية للشيخ الشريف الرضى ص ٣٨)

* ويقول :

« أَلَا أَخْبِرْكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ أَحَاسَنُكُمْ أَخْلَاقًا .
الْمُوطَّئُونَ أَكْنَافًا .. الَّذِينَ يَأْتُونَ .. وَيُؤْتُونَ »
(رواه الترمذی)

* ويقول :

« أَلَا أَخْبِرْكُمْ بِشَرَّارِكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى ؛ قَالَ : مَنْ أَكَلَ وَحْدَهُ ، وَمَنْعَ رَفْدَهُ ،
وَضْرَبَ عَبْدَهُ .. أَلَا أَخْبِرْكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَاكُمْ ؟ مَنْ لَا يُقِيلُ عَثْرَةَ ، وَلَا يَقْبَلُ مَعْذِرَةً ،
وَلَا يَغْفِرُ ذَنْبًا : أَلَا أَخْبِرْكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَاكُمْ ؟ مَنْ يَبْغِضُ النَّاسَ وَيَبْغُضُونَهُ »
(الكامل للبرد ص ٢٩)

ويقول :

« يَحْرُمُ عَلَى الْفَارِ كُلِّ هَيْنٍ لَيْنٍ ، قَرِيبٍ ، سَهْلٍ ! »

(روضة العقلاء للبستي ص ٦٣)

٤ - رفق وكياسة

* « بَالِ أَهْرَاجِي فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَامَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ إِلَيْهِ ، فَقَالَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ
عَلَيْهِ - لَا تَزِرُ رُمُوهَ ^(١) ، ثُمَّ أَمَرَ بِدَلْوِ مَاءٍ فَصُبَّ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي بَالُ فِيهِ ! »
(السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٦٥)

* « وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : الرَّجُلُ
يَكُونُ حَامِيَةً الْقَوْمِ .. سَهْمُهُ وَمَسْهُمُ غَيْرِهِ سَوَاءٌ ؟ فَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ :
« تَكَلِّمْتُكَ أُمُّكَ .. ابْنُ أُمِّ سَعْدٍ .. وَهَلْ تُرْزَقُونَ ، وَتُنْصَرُونَ إِلَّا بِضَعْفَائِكُمْ » !
(مسند أحمد)

* « قَدِمَ وَائِلُ بْنُ حَجَرٍ الْحَضْرَمِيُّ وَافِدًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَكَانَ قَبِيلًا مِنْ أَقْيَالِ الْيَمَنِ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : جِئْتُ رَاغِبًا فِي الْإِسْلَامِ وَالْمَجْرَةِ

(١) أى : لا تتعلموا عليه بوله .

فدعا له ، ومسح رأسه ، ونُودي : « الصلاةُ جامعة ! » .. سروراً بقدوم وائل
ابن حجر ! .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم معاوية بن أبي سفيان أن ينزله بالحرّة ،
فمشى معه ، ووائل راكب ، فقال له معاوية :

أتق إلى نعليك .. أتوقّي بهما الرمضاء !

فقال : لا .. إني لم أكن لأبسهما وقد لبستهما !

قال : فأردفني !

قال لست من أرداف الملوك !

قال : إن الرمضاء قد أحرقت قدّمي !

قال : امش في ظل ناقتي ؛ وكفاك به شرفاً !

ويقال إن وائل بن حجر هذا وفد على معاوية بعد ذلك في خلافته ، فأكرمه ،
وعرف له قدره ^(١)

(نهاية الأرب جزء ١٨ ص ١١٢)

٥ — تواضع ، وحلم ، وعدل

خرج أبو داود في سننه عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف
بالبيت ، ثم أتى السقاية فقال : اسقوني ! فقال له ابن عباس : ألا نحوّص لك
سويقاً ^(٢) ، فإن هذا يتناول منه الناس ! فقال — صلوات الله وسلامه عليه — :
اسقوني مما يشرب منه الناس ، !

وفي الحديث الصحيح :

(١) وانظر كيف كانت كياسة الرسول ولطفه مع هذا السيد العظيم — لقد تلقاه هذا اللقاء
الحق الكريم ، ثم جعل معاوية بن أبي سفيان زعيم قريش في خدمته !

(٢) السويق : الدقيق الناعم من الحنطة أو الشعير ، يخلط بالماء ويشرب .

« أن » بريرة لما أعتقها أهلها ، وكانت زوجا لمغيث العبد — ملكت أمر نفسها بالعتق . . فطلقت نفسها من زوجها ، وكان مغيث شديد الحب لها ، وكانت شديدة الكراهية له ! فكلم مغيث رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، فكلما رسول الله صلى الله عليه وسلم لتراجعه !

فقلت : أأمرني يا رسول الله ؟

فقال — صلوات الله وسلامه عليه — : لا ، لكنني أشفع !!

هذا ، ولم ينكر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابته هذا الموقف . ولو أمرها الرسول الكريم لامتنعت في رضى وقرّة عين !

وفي الحديث الصحيح أيضاً :

« جاءت « جميلة » امرأة قيس بن ثابت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله : لا أجد في قيس بن ثابت عيباً من خلقي أو إيمان ، ولكنني لا أجد في طوق مجاراته !

فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : هل تعيدني إليه حائطه — أى بستانه — الذى جعله صداقاً لها إذا طلقها ؟ فقلت : نعم !

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم برد الحائط إلى قيس بن ثابت ، وتطليقها ! .

* * *

٦ — الإسلام ، يسر وسماحة

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، وقد بلغه انقطاعه للعبادة : « ألم أخبر أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار ! ؟ » قال : إني أفعل ذلك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنك إن فعلت

ذلك هجمت عينك ، ونَفِهَتْ^(١) نفسك ، وإن لنفسك عليك حقاً ، ولزوجك حقاً ،
فصم وأفطر ، وقم ، ونم . .

❦ أتى حبيب بن الحارث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله :
إني مقرّافٌ للذنوب ، فقال الرسول الكريم : « كلما أذنبت فتب » قال : ثم أعود !
قال : « ثم تب » ! قال : إذن تكثر ! قال : « عفو الله أكبر من ذنوبك !! »
عن بُرَيْدة قال :

❦ « خرجت ذات يوم أمشي ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي ، فأخذ
بيدي ، فانطلقنا جميعاً ، فإذا برجل يصلي ، يكثّر من الركوع والسجود ، فقال : أترى
هذا يرأى ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ! فأرسل يده ، وطبق بين يديه ثلاث صرات ،
يرفع يديه وبصرهما ، ويقول : عليكم هَدْيًا قَاصِداً ، عليكم هدياً قاصداً ، عليكم هدياً
قاصداً ، فإنه من يُشَادَّ هذا الدين يَغْلِبْهُ ! »

* * *

٧ - عمران ومدينة

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال :

❦ « سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : بم تأمرني أن أتَجِرَ ؟ قال : عليك
جالبز^(١) ، فإن صاحب البزّ يمجبه أن يكون الناس بخير ، وفي خصب ! »

وفي الحديث الشريف خطة عملية محققة النجاح في دعوة الناس إلى التماس
معالي الأمور ، وترفعهم عن دونها وسفاسفها ، ثم إلى جانب هذا ارتباط الناس
جميعاً برابط للصاعدة المتبادلة بينهم ، وأن أي خير يصيب إنساناً من الناس هو

(١) هجمت عينه ونفّته نفسه : أي تعيب

(٢) البزّ : الثياب اللينة من الكتان أو القطن .

كسب للإنسانية كلها ، وأنه كلما كثرت هذه المكاسب كان نصيب الفرد أكثر وأوفر !

* وروى البخارى في صحيحه أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان لا يرد الطيب » .

✽ وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « من عرض عليه طيب فلا يردّه ، فإنه خفيف الحمل ، طيب الرائحة » .

* وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن لله حقاً على كل مسلم أن يغتسل كل سبعة أيام ، وإن كان له طيب أن يمسّ منه » !

فهل جاءت المدنية الحديثة في تربية الأذواق ، وتهذيب الطباع ، وفي رفعة الحياة ، وفي التمتع بطيباتها ، والاعتفاف من كريم ثمراتها — هل جاءت بما يوازي هذه الدعوة الإسلامية ويوازنها ؟ لقد جعل الإسلام دعوته تلك شميرةً من شعائر الدين ، بحيث يجب على المسلم الوفاء بها ، على المكروه والمنشط .

فإذا لم تكن عند بعض الناس مطلوبة لذات أنفسهم فهي مطلوبة لجانب الدين ، وبهذا لا يجد المسلم سبيلاً إلى الترخّص فيها ، أو التهاون بها .

٨ - من ثمراتهم تعرفونهم

وبعد ، فقد أثمرت هذه القيم الكريمة ثمرات مباركة ، وآتت أكلها أضعافاً مضاعفة ، فيما أخرجت للحياة من مثل إنسانية رفيعة ، مَصْفَاة من شوائب الضعف البشري ، وحسبك شاهداً على هذا ما سجل التاريخ للإسلام ، ولرجال الإسلام في العصر النبوى ، وعصر الراشدين من آيات بينات في إقامة المجتمع الإنسانى الذى ضمه الإسلام إليه ، على أسس وطيدة من العدل ، والمساواة ، والموادة

والوفاة .. مما لا تكاد تجده الإنسانية حتى في مجتمع الأسرة الواحدة ، وما يمسك بها من أواصر القربى والنسب !

ولقد شهد بهذا الكثير من الحكماء والفلاسفة من غير المسلمين ، إذ لم يكن في وسعهم أن يروا هذه الحقيقة للمسافة ثم يفسكروها .. فهي عندهم أشبه بالحقائق العلمية ، التي تتكشف لهم فلا يسعهم إلا إذاعتها في الناس ، وإن لم يأخذوا في حياتهم بها .

يقول جوستاف جرونبيام وفي كتابه حضارة الإسلام :

« والحق أن سنوات حكم النبي العشر في المدينة مضافاً إليها في الراجح الثلاثون سنة التي أعقبت وفاته كانت قوام العصر الذي صارت فيه الجماعة الإنسانية أقرب ما يرجى من الكمال ، ومن ثم فإن سوابق تلك الفترة في النظم والقانون والمالية ؛ فضلاً عن الدين هي التي أثمرت مصطلحات ، وأفكار وفرائض ذلك النظام الكامل .. نظام الله » (١) ١١

* * *

مدخل إلى البحث

- ١ -

من الحقائق المسلّمة ، التي تقع موقع البدّهيات في العقول أن الأديان تعانى اليوم أزمت حادة ، وأنها تقف موقفًا حرجيًا في الحياة ، بعد أن غلّبت المادة على منازع التفكير الإنسانى ، وبعد أن أصبحت المحسوسات هى أساس التعامل فى مجال الفكر ، كما هى أساس الأخذ والعطاء فى مناحى النشاط الإنسانى كله .

إن إنسان العصر الحديث لا يُدخل إلى عقله شيئًا لا تلمسه حواسه ، وتختبره ، وتطمئن إليه ، كما لا يُدخل إلى جيبه من المال إلا ما تحرّى سلامته وخلوّه من الزيف !

فلا غرابة — والأمر كذلك — أن تقف مقررات الأديان ، موقفًا قلقًا مضطربًا ، فى مجال هذا العقل المادى ، وأن تطلب كل حقيقة من الحقائق التي تمرضها الأديان شاهدًا محسوسًا ملموسًا ، يمسك بها ، ويأذن لها بالدخول إلى هذا العقل ، وإلاّ ظلت بعيدة عنه .. غريبة .. متهمّة .. إن هى طرقت بابه ، أو حامت حوله ! .

إن « جواز » المرور الذى يمكن أن تدخل به أية دعوة من الدعوات ، أو مذهب من المذاهب إلى العقل الإنسانى العصرى ينبغى أن يكون محققًا لأمرين : أولاً : خضوعه للتجربة .. بمعنى أن يكون مما يستجيب لعمل الحواس فيه ، وأن يتقبل إجراء التجارب العملية عليه .

وثانيًا : أن تُنتج هذه التجارب ثمرة مادية معجّلة ، تُوضع بين يدي من يدعى لهذا المذهب ، ويراد له أن يدين به ، ويعتقده .

فإذا لم يتحقق هذان الأمران في الرأي أو المذهب ؛ فلن تنفَقَ له سوق في الحياة المصرية ، التي لا تؤمن إلا بالمادة أولاً ، وبالثمرّة المجتلة لها ثانياً .

إن الدين الغالب اليوم هو دين المادة ، التي تفلّ ثمرأً معجلاً حاضراً . . . ومن أجل هذا فقد زهد الناس في الأديان التي لا تقيم للناس إلا عالمًا قائمًا على خوّاء . لا تستند إلى دعائم من المنظور أو الملموس ، ولا تضع في أيدي الناس إلا وعودًا يقتضون إنجازها بعد هذه الحياة . . بعد أن يموتوا . . ويُبْعَثُوا !

وشتان بين واقع محسوس ملموس . . يؤكل ، ويشرب ، ويلبس ، وبين أمانيّ ووعود ، تنتظمها سلسلة متصلة الحلقات ، ليس فيها حلقة واحدة مما يمسك به الإنسان ، ويختبر حقيقته ، ويعاين وجهه !

إنه لمضيعة للوقت — عند الماديين — أن يُنفَقَ أى شيء منه في الوقوف على هذه الأمانيّ وتلك الأحلام التي تقدمها الأديان لأتباعها . . وإنه لخير للمرء أن يغمض عينيه ليفقدو إغفاءة يستريح فيها من عناء الجهاد في الحياة ، أو ينطلق عاملاً فيما تزخر به هذه الحياة من ألوان النشاط الإنسانيّ في ميادين التجارة والصناعة والزراعة ، وغيرها — خير له أى متجه يتجه إليه ، ولولو إلى اللهو والعبث من أن يضيع لحظة من حياته مع هذا السراب الذي تُخيل به الأديان للناس ، حتى إذا جاءوه لم يجدوا شيئاً !

تنسك المادية على الديانات جميعها هذه المشاعر الإنسانية التي يعمل الدين على غرسها وتعميقها في نفوس المتدينين . . من الرحمة ، والمودة ، والإيثار ، والعطف ، والإحسان ، والتسكافل ، وكل ما يشيع في كيان الإنسان نحو أهله ، وقرابته ، ومجتمعه ، والإنسانية جميعها ، والوجود كله . . من تراحم ، وتوادٍ ، وتعاطف . .

فليس في شريعة المادية ، ولا في قاموسها اللغوي ، ولا في رصيد مشاعرها

شئ من هذا المَقْدُ الرّوحى والنفسى ، الذى لا يَنْفَقُ فى سوقها ، ولا يتعامل به أحد فى دنياها ، فكل هذا عندها نَقْدُ زائف ، وسراب خادع ، إذا افتقده المرء هند الحاجة لا يجد شئنا ، ووجد أنه إنما يحمل خيالات وأوهاما !!

إن المادية تَمُدُّ هذه العواطف وأمثالها أمراضا اجتماعية خبيثة، دخلت فى كيان الناس عن طريق الخداع والتضليل ، وعلى ألسنة الخادعين والمضللين ، الأمر الذى تحمل الديانات أكبر قدر منه، ويضم للدينون أكثر جماعة داعية إليه ، بما يُلْقَى منها إلى الناس باسم الدين من صور التفريع والتخويف بهذا اليوم الموهوم ، يوم القامة، وما يحلّ بالناس فيه من عذاب ، وما يلاقون من أهوال !!

ثم ترى المادية — من جهة أخرى — أنه لن تسلم للناس حياتهم، ولن تتحرر أفسكارهم ونوازعهم ، ولن يصبح وجودهم ويستقيم خطوهم فى الحياة إلا إذا اقتبعت من نفوسهم هذه العواطف المريضة من جذورها ، وإلا إذا قطعوا هذه الأغلال التى تقصر خطوهم ، وتشل إرادتهم ، وتمتص القوى العاملة فيهم ، كما تمتص الحشائش الغريبة المتسلقة عصارة الحياة من النبات الطيب الكريم . .

يقول الفيلسوف الألماني « نيتشه » : إن الرحمة والتعاون ، والحب ، وكافة الفضائل المسيحية هى مجموعة من الدَّجَلِ والخرافات ، تستهدف رعاية الفوضى والدماء والقطمان ، وهؤلاء جميعاً فقراء ومرضى وضعفاء... يعوقون التطور الإنسانى، فى حين أنه يجب أن نُخلص لنوعنا البشرى بأن نبقى على الأقوياء فى الذهن والجسم والروح ، ونعمل على إفناء الآخرين حتى نحصل فى النهاية على السوبرمان^(١) .

هذا، وإن تكن المادية الحديثة قد خضعت لهذه الفلسفة المريضة المظلمة،

فأجلت عن قلوب الناس هذه العواطف الإنسانية الكريمة التى تصل بين الناس والناس بِصِلاتِ التعاطف والتراحم والإحسان فإن جذوراً عميقة ، بميدة الفور

(١) الحرية فى مصر : لسلامه موسى .

من هذه العواطف لا تزال مندسة في أعماق هذا الإنسان المادى ، تتحرك بين حين وحين ، وتهب بين آن وآن .. وقد تنحبس زمناً طويلاً حيث لا تجد لها متنفساً ، تحت ضغط التيارات المادية ، التي تدفع الناس دفعاً مجبوراً إلى كل اتجاه تبرق لهم فيه بارات المصالح الذاتية ، دون التفات إلى ما يجمع عن ذلك من تقطيع أوصال القربى ، وعلائق الرحمة والمودة مع الناس جميعاً !

وهذه العواطف الحبيسة في كيان أصحابها اللاهين ، اللاهين عنها في رحمة الحياة ، وسُعار المطالب المادية — كثيراً ما تتجمع وتحول إلى إعصار عاصف ، يقتلع الإنسان من هذا المرفأ الضال الذى أرسى عليه ذاتيته ، إلى حيث يوجد الإنسان ، وحيث يحيا الناس ، فإذا هو نسمة عاطرة ندية ، تفوح بالشذى الطيب ، الذى يعطر الأجواء حولها بأريج الحب والمودة والرحمة !

هذا وجه جميل لاشك ، بطل من عالم الماديين مشرقاً ، مسعداً ، ولكن يبدو وراء هذا الوجه أشياء وأشياء !

فأولاً : أن هذه الظاهرة الطيبة التي تظهر من متفجرات العواطف المسكوبة المحتبسة لا تجيء دائماً بمثل هذه النتيجة الطيبة ، بل كثيراً ما تتحول إلى انفجار داخلي يحطم كيان الإنسان كله ، ويذهب بوجوده .. فيموت مخنقاً ، أو محترقاً !

وثانياً : هذه الظاهرة — في أكل أحوالها ، وأروع نتائجها — لا تعيش في كيان الإنسان عيشة تلازم واستقرار ، وإنما تظهر في فترات ، وتند عن أزمت حادة ، ومواقف متأزمة ، وتقع عقب صدمات قاسية ، يصحو معها الضمير الإنسانى صحو أشبه بصحوة الموت ، وكثيراً ما تكون هذه الصحوة بمدفوات الألوان ! !

من أجل هذه الفارقات البعيدة بين معطيات الدين في صورة وعود وأمانى

مؤجلة ، وبين معطيات الحياة المادية في واقع فوري محسوس . . من أجل هذه المفارقات كانت الأديان في كل زمان ومكان في معرض الشك والإعراض من الناس إلا من استعملت روحه منهم على حطام المادة ، وسمت عن مستواها ، وتفلفت من قيودها . . وهؤلاء قلة — في كل زمان ومكان — بين تلك الكثرة الكثيرة التي أخضعت وجودها للمادة ، واطمأنت إلى ظلالها وظلامها ، ووثقت بما يملأ الأيدي والبطون منها . . . وذلك مصداق لقوله تعالى : « وما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » . . وقوله سبحانه : « إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين » .

هذا ، ولقد كان للمادة في كل أمة ، وفي كل جيل من أجيال الناس ، قادة ، وزعماء ، ومتفلسفة ، يقيمون للمادة الحجة ، ويزيفون لها القول ، ويوسعون للناس الطريق الذي يتدافعون فيه إليها . . ثم هم من جهة أخرى يُلْقُونَ إلى المؤمنين بالله ، كثيراً من التلبيسات والمفتريات « لِيُرْذَوْهُمْ » ، وليلبسوا عليهم دينهم « وليمدلوا بهم إلى طريق المادة » ، وما تفيض به من حطام الدنيا وشهواتها . . وقد جاء القرآن الكريم بكثير من تلبيسات هؤلاء الماديين ، وبما يحاجون به المؤمنين ، وما يحتجون به لأنفسهم ، ويعذرون لها في التنكب عن طريق الإيمان ، وركوب الغواية والضلال . . فن ذلك قولهم الذي حكاه القرآن عنهم في تشكيك الذين يدعونهم النبي إلى الإيمان بالله : « أَيْدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ . . هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ، إن هي إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ، نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ^(١) » .

وفي الناس رغبة جامحة إلى العاجل من كل شيء ، وحرص شديد على التعامل بالنقد إذا أخذوا ، وبالنسيئة إذا أعطوا ، وليس قولهم الدارج : « عصفور في اليد ،

خير من عشرة على الشجرة ، إلا تعبيراً صادقاً عن لسان الواقع الذى يعيشون فيه !
ومن هنا كانت مقولات الماديين الذين يقفون من الأديان موقف الجحود
والإعراض — كانت مقولاتهم تدور فى الغالب حول هذا المعنى . . فتراهم يتساءلون
فى سخرية واستهزاء : ماذا يقدم الدين لأتباعه من مال ؟ وماذا يقدم به من مطالب
الحياة ؟ وماذا يتقاضى العصائم المصلى كل يوم على صلاته وصيامه ؟ . . فإذا لم يكن
لصاحب الدين شئ يعود به آخر اليوم فى جيبه فلماذا إنفاق هذا الوقت ، وبذل
هذا الجهد فى الصلوات والابتهالات ؟ ولماذا إذن هذا التعلق بالأوهام ، والتزود
بمعطيات الرؤى والأحلام ؟ . . إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التى تدور فى
دنيا الماديين .. كلما ذكر الدين ، وذكر المتدينون !

وهذا الشعور المريض ، وذلك التفكير السقيم ، ليس من شأن الملحدين وحدهم ،
بل إن هذا الشعور قد يتدسس أحياناً إلى بعض ذوى الإيمان الضعيف من المؤمنين ،
فلا يعبدون الله إلا على هذا الأسلوب ، ولا يبرمون معه عقداً ، ولا يقطعون عهداً
إلا إذا كان على تلك الصفة التى يوازن فيها بين الجهد وبين الكسب المعجل المقبوض ..
وفى مثل هؤلاء يتجلى معنى الآية الكريمة : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » .
فإن أصابته خيرٌ أطمأن به ، وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خسر الدنيا
والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » ^(١).

وبلسان هؤلاء الذين يعبدون الله على حرف نطق الشاعر العباسى : أحمد بن
محمد الإفريقى ، من شعراء القرن الرابع الهجرى .. إذ يقول :

فوالله لا صليتُ لله مخلصاً يصلى له الشيخ الجليل وفائق
لماذا أصلى ؟ أين مالى ونزلى ؟ وأين جياذى ، والقنا ، المناطق ؟
أصلى ؟ ولا فتر من الأرض تحتوى عليه يمينى ، إننى لمنافق !

فالأزمة التي تعانيها الأديان اليوم على هذه الصورة التي تشبه الرباء ، بعد أن استشرت المادية ، وغرق الناس في النفعية الوقتية إلى الأذقان — هذه الأزمة ظاهرة طبيعية ، لا تخرج على المفهوم التجريبي الذي قُبِنَ عليه النظريات العلمية ، وتقوم عليه المذاهب والآراء في مجالات الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وغيرها .
فهنالك أمران يواجهان الرجل المعصرى :

أمر يلقيه بجواسه ، ويخضعه لمنطق التجربة ، ويستولد منه مكاسب مادية يملأ بها يديه . وذلك هو ما يتقلب فيه في عالم المادة والمال !

وأمر آخر — إن لقيه — فإنما يلقيه بأوهامه ، وظنونه ، وخيالاته ، ثم لا يحصل منه إلا على وعود مضافة إلى ما بعد الحياة . . بعد أن يموت ، ويصير تراباً ، ثم يبعث من هذا التراب ! وهذا هو ما يدعوه إليه الدين ، ويأمره به .

فإلى أى الأمرين يميل هذا الإنسان ؟ وعلى أيهما يرتب حياته ، ويقيم وجوده ؟ إن الناس لم ينتظروا من يسألهم هذا السؤال ليجدوا الإجابة عليه . . بل لقد اندفعوا سراعا منذ اللحظة الأولى إلى الجانب المقابل للدين . . الجانب الذي يحقق لهم مكاسب مادية عاجلة . . وما زالت جماهيرهم الغفيرة تنزاحم ، وتتدافع في هذا الجانب ، على حين أفقر جانب الدين أو كاد !

هذه حقيقة الموقف الذي يقفه الدين والتدينون في هذا العصر . .

وهو موقف — كما ترى — ينتقص كل يوم البقية الباقية من دولة الدين في هذه الحياة ، وينتال القلة المتناثرة من التدينين ، ويخلى مكانهم في كثير من بقاع الأرض . . يوما بعد يوم ، ليجتله زحوف الماديين ، وتملاً فراغه !

وإنه لن يجدى على الدين والمتدينين البكاء ولا التباكى ، ولن ينفع الدين ولا المتدينون بالحسرات والالتمات تصاعد من هنا وهناك ، كلما خفت موازين الدين ، وكلما انكمش ظل المتدينين !

إن الأمر جدُّ ليس بالهزل . . وإن الحرب المعلنة على الدين والمتدينين حرب جادة لا هوادة فيها ، تريد أن تقتلع من هذه الدنيا كل معلّم من معالم الدين ، وتميت كل مظهر من مظاهره !

والذى نريد أن نقوله هنا هو أنه ينبغي على الذين ينتصرون للدين ، والذين لا يزالون في جماعة المتدينين أن يعرفوا هذه الحقيقة جيداً ، وأن يواجهوا هذا الواقع مواجهة صريحة ، وأن يتعرفوا إلى الأسلحة التى يحاربهم بها أعداء الدين ، وأن يوازنوا بينها وبين مافى أيديهم من أسلحة ، وليعلموا أنهم إذا لم يلقوا أعداءهم بأسلحة مثل أسلحتهم فإنهم سيخسرون المعركة لا محالة ، وأنهم إذا خسروا هذه المعركة فقد لا يرون للدين ظلاً بعدها إلى قرون وأجيال عديدة مقبلة ، حيث تبدأ الإنسانية من جديد — كما فعلت أول عهدها بالوجود — فتتحسس مشاعر الدين الكامنة فى فطرتها ، وتعمل على تصويرها وتشكيلها فى أنماط من الخرافات والعقائد والشرائع ! وإنها لدورة طويلة جداً من دورات الزمن ، تلك التى يتم فيها هذا الانقلاب إلى رحاب الدين . . ستعيش الإنسانية فيها على غير دين . أو بمعنى أصدق بلا إنسانية . . فلا عواطف ، ولا مشاعر ، ولا روح !

وإن أول ما ينبغى أن يفعله أصحاب الدين فى صراعهم مع الماديين والملحدين هو أن يضعوا فى موازين الدين ما يترجح به أو يتوازن مع دعوة الحياة المادية ، وما تقدم للناس بين يدي دعوتها من ضمانات موثقة ، وثمرات معجلة لمن تدعوهم إليها ، وبغير هذا ستظل كل دعوة دينية فى مواجهة هذا الإلحاد المادى الصارخ — كلاماً تأبى الاستماع الاستماع إليه ، وضياح أى وقت فى الوقوف معه ؛

وطبيعى أن هذا الذى ندعو إلى تقديمه من حقائق الدين فى مواجهة التحديات
المادية ينبغى ألا يكون شيئاً مستجلباً مصطنعاً ، وإلا كان حرباً أخرى على الدين ،
وتشويهها لحقائقه ، وطلاء زائفاً ، وتمويهها باطلاً ، يزيد البلاء بلاء . .

بل إن الذى يجب أن يكون فى هذا المقام هو أن تتجه أنظار أولى النظر من
أرباب الدين ، إلى صميم الحقائق الدينية ، وأن يفحصوا فى أعماقها ، وإنهم لابد
واجدون فى الدين ما يلجى مطالب الحياة ، وما يرضى مشاعر الناس — كل الناس —
فى قصد ، وحكمة ، واعتدال !

ذلك أن الدين الحق لا يمكن أن يكون معوقاً لسير الحياة ، ولا معطلاً
للفنشاط الإنسانى ، فى أى متجه يعود على الإنسان بالخير له ، ولل البشرية كلها ! وإنما
الدين فى حقيقته مدد من السماء ، ينزل بالهدى والرحمة ، كما ينزل الغيث فى مواقع
مختلفة من الأرض !

وإن من طبيعة الدين الحق أن تكون نصوصه المقررة لشريعته ، والحاملة
لأحكامه محررة من التحريف والتبديل ، أولاً ، ثم تكون هذه النصوص فى
ضمان من التعمية والإلغاز ثانياً ، بحيث تكون بموضع نظر الناس جميعاً ، وعلى المفهوم
الذى تعطيه اللغة التى جاءت هذه النصوص بلسانها . . وبهذا يكون النص هو
الذى يعطى الحكم للحقيقة التى ضمَّ عليها ، من غير أن يسمح لتأول أو مضلل
أو مدع أن يحمل عليه معنى لا يحتمله لفظه ، ولا ينطق به منطوقه !

فالحقائق الدينية التى تجبىء على هذا الوجه تشيع فى النفوس مشاعر الثقة بها ،
والاطمئنان إليها ، فهى وإن لم يؤمن بها المكابرون والمماندون — لما قام فى
نفوسهم من حواجز العناد والكبر ، فإنهم — مع هذا — لا يجرءون على
تكذيبها ، وإن جردوا على الاعتماد عنها ، والنفور منها . . وهذا ما حكاه القرآن
الكريم عن قريش وموقفها من الرسول الكريم ، وما كان يقع فى مسامعها من

آيات القرآن : « قد نعلم إنه ليحجزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (١) !

وإذن فالعمل الذى ندعو إليه أرباب الأديان فى تصديهم لموجات الإلحاد الزاحفة من كل مكان ، هو أن يعرضوا — أولاً — من النصوص الدينية ما يدفع حجج الماديين ، ويبطل مدعياتهم على الأديان ، ثم يشرحوا — ثانياً — ما يحتاج من هذه النصوص إلى شرح ، على أن يكون ذلك فى حدود ما تعطيه اللغة فى مدلول مفرداتها ، وأساليبها ، دون أن تُقتصر هذه النصوص ، وأن يُلَوِّى وجهها عن القصد الذى أقامها الله عليه على لسان أصحابها .

وفى هذا العرض للحقائق الدينية — على هذا الأسلوب — يمكن مقابلة الحقائق الدينية بواقع الحياة المادية . ومتطلبات الناس منها . . ثم ليسكن للناس الخيار بعد هذا ؛ فى أن يذهبوا يميناً أو شمالاً ، وفى أن يصحبوا الدنيا ، بلا دين ، أو فى أن يصحبوا الدين والدنيا جميعاً . .

— ٧ —

ونحن فى هذا البحث ، إنما نتحدث عن الإسلام باعتبار أنه دين قام على الحق المطلق أولاً ، ثم قام على أنه دين الناس جميعاً ، وأنه الشريعة التى تصحب الناس ما صحبتهم الحياة ثانياً .

فالإسلام يقر هاتين الحقيقتين ، ويعلن عنهما فى أكثر من موضع من كتاب شريعته — القرآن الكريم .

فمن الحقيقة الأولى يقول الله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » (٢) —

(١) سورة الأنعام : ٣٣

(٢) سورة الإسراء : ١٠٥

ويقول سبحانه مخاطباً النبي الكريم: «وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» (١).

وعن الحقيقة الثانية يقول سبحانه، مخاطباً رسوله الأمين: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ، الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (٢) ويقول: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا» (٣) .. ويقول: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (٤).

والإسلام إذ يقرر هذا يدعو أتباعه إلى الإيمان، إيماناً مجللاً برسل الله جميعاً، وبما حملوا إلى الناس من هدى ونور: «قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق، ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وهارون، وما أوتى البنيون من ربهم، لا نفرقُ بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون» (٥). وبهذا كان الإسلام مُجْتَمِعَ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةِ، وخاتَمَ الدَّعَوَاتِ الإِلَهِيَّةِ .. قد جمع ما تفرق منها، وحوى من أصولها ما يتلاءم والدعوة الجديدة التي يدعو إليها، ويصحب الإنسانية أبد الدهر عليها.

نقول: إننا ندعى للإسلام، أو بمعنى آخر إن الإسلام يدعى لنفسه أنه دين الحق، ودين الإنسانية كلها.. في أزمانها وأوطانها.

وهذه الدعوى تقتضى - لكي تكون مقبولة عاملة في الحياة - أن تسددها

(١) سورة الشورى: ٥٣

(٢) سورة الأعراف: ١٥٨

(٣) سورة سبأ، ٢٨

(٤) سورة الأنبياء: ١٠٧

(٥) سورة البقرة: ١١٦

الأدلة ، وأن تدعمها البراهين ، تلك الأدلة والبراهين التي تخضع لأسلوب البحث العلمى على نحو ما من هذا الموضوع ، بمعنى أن تثبت للاختبار العلمى ، وتتقبل التجربة الواقعية ، وتستجيب لها.. وبغير هذا تصبح هذه الأدلة وتلك البراهين ، ادعاءات تتطلب لقبولها وإثباتها أدلة وبراهين... وهكذا إلى أن يقوم لها البرهان العلمى ، والدليل التجريبي ، فيشهد لها الواقع الشهادة التي لا تُردّ .
وفى المباحث التالية عرّض لهذه الدعوى ، وتمحيص لبراهينها.

* * *

دعوة الحق

♦ « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ... إِنَّ السَّمْعَ ، وَالْبَصِيرَ ،
وَالْفُؤَادَ ، كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَهُ مُسْتَوْلاً » .

[الإسراء : ٣٦]

♦ « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنسِ .. لَمْ يَلْمِزُوهُمْ وَلَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَمْ تُعْيِنْ لَأَيُّبِرُوا بِهَا ، وَلَمْ يَأْذَنَّا لَهُمْ لِيَسْمَعُوا
بِهَا ، أَوْ تَنصِتَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

[الأعراف : ١٧٩]

♦ « أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ .. أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
وَكِيلًا ؟ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْلَمُونَ ؟ .. إِنْ هُمْ
إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

[الفرقان ٤٣ ، ٤٤]

... ودعوة الهوى

♦ « إني أومن بذلك .. لأن ذلك غير
مقول » !!

« القديس أوغسطين »

♦ « لو أن أحداً قال لي : إن المسيح يُجافي
الحق، ولو أن هذا القول كان صحيحاً؛ لآثرت
البقاء مع المسيح ، على التزام الحق » !!
« دستوفسكي »

الباب الأول

الرسالة المخالدة

الرسالة الخالدة :

من أبرز ما يميّز الرسالة الإسلامية من غيرها من الرسائل السماوية هو ربطها بالعقل، وجعل أحكامها، وتشريعاتها في متناول أوساط ذوى العقول من الناس، بحيث تبدو وكأنها بعض الحياة التى يحيوها، ويقلبونها بين أيديهم، ويختبرونها بكل ما عندهم من وسائل الاختبار، فيقبلون منها ما يقبلون، عن اطمئنان وثقة، ورضى، دون أن يكون هناك تسلطات من خداع ماديّ أو أدبيّ، تغشى حى العقل، وتلفه بدخانها، وتفرقه في ظلامها، فلا يملك العقل من أمره شيئاً، بل يتحرك حيث يحركه التيار المتسلط عليه، ويقف حيث يقف به !

من أجل هذا كانت رسالة الإسلام قائمة على طريق الخلود، تلتقى بالإنسان حيث كان، في كل زمان، وفي كل مكان.. لأنها دعوة موجهة إليه توجيهاً مباشراً من السماء، ليس بينه وبينها أحد.. إلا الرسول الذى تلقاها من ربه، ثم تركها ميراثاً مشاعاً بين الناس جميعاً..

شرط واحد اشترطه الإسلام لمن يتلقون عنه، ويدفون به، هو أن يتلقوه بعقولهم، وأن يأخذوا أحكامه وتعاليمه عن نظر، وبحسب واقتناع.. فمن لم يجد مقنعاً بعد البحث وتقليب النظر، فهو في حلّ من أمره.. إذ « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . فإن الذى يقف إزاء الحق موقف الطالب له، المخلص في البحث عنه.. لا بد أن يلتقى به يوماً.. إن لم يكن اليوم، ففي غد، أو بعد غد.. !

الخلود وخلوده :

نمى بالخلود هنا حين نصف الرسالة الإسلامية به، الوجود الحى، القائم على الصحة والسلامة، والخلو من الآفات والملل، التى تنسلط على الكائنات الحية وغير الحية — فتفسد طبيعتها، وتغير معالمها..

والإسلام — فى اعتقادنا ، كما هو فى الواقع — هو الدين الذى يستأهل هذا الوصف كاملاً ، على الحقيقة ، لا الجواز ، فهو الدين الذى بُنى من لَبَنَاتِ الحق المطلق ، المصنّى من كل شائبة . . وبهذا لا يمكن أن تنال منه يد الأحداث والأزمان ، ولا أن تلتقى به عوارض الشيخوخة والمهرم . . بل هو دائماً فى شباب متأنق متجدد ، وفى فتاء مشرق لا يغبى !

أما حدود هذا الخلود فهو مقدور بالحياة الإنسانية ، وبالذور الذى تؤديه فى هذا العالم الأرضى . . طال هذا الدور أم قصر . . !

وعلى هذا ، فإن الإنسانية فى صحة هذا الدين فى شباب متجدد ، وفى فتاء خالد ، وفى سحر إلى الأمام دائماً ، وعلى طريق النور والخير أبداً !

ومعذرة إذ نرسل هذه الأحكام الخطيرة فى أقدارها وفى آثارها ؛ نرسلها هكذا على سبيل القطع والجزم ، من غير أن تقوم بين يديها أسبابها وحيثياتها !

ومعذرة أيضاً . . إذ كنا لا نستطيع فى « حضور » الإسلام ، أن نملك أنفسنا عن التصريح بهذه الحقيقة ، والمعالجة بها ، إذ كانت أقوى من أن تخضع لداعية التواضع ، أو المداراة . . إنها من القوة والوضوح بحيث تفرض سلطانها على الوجود . . لاتعبأ برضى من يرضى أو سخط من يسخط . . فهكذا الحقائق المنزلة من السماء ، تمسك بهذا الوجود ، وتقيم نظامه . . دون أن تنتظر إذن الناس لها فى إعمال قواها ، وإظهار آثارها . . إنها من سنن الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

الإسلام وأهليته لهذا الخلود :

وفى الإسلام حقيقة بارزة انفرد بها من بين الأديان السماوية وغير السماوية جميعها ، هى أنه الدين الوحيد الذى حمى نفسه حماية ذاتية مطلقة من أن يَدْخُل على الحقائق التى ضُمّت عليها نصوصه ، وحملتها آياته وكلماته ؛ ما يُبدّل من أوضاعها ، أو يغير من صورها وأشكالها . . ذلك أنه جعل النصوص وحدها حقّ الحديث عنه ،

والترجمة عن مقاصده ووسائله ، دون أن يجعل لأحد دعوى يدعيها فيه . بحجة أنه
مؤكد من قِبَل صاحب الشرع بكشف أسرارهِ ، وفض خواتم مُغلقاتهِ . . . فليس
لأحد — والأمر كذلك — أن يدعى هذه الدعوى في مواجهة الشريعة الإسلامية ،
إذ أن نصوصها — ونصوصها وحدها — هي الترجُمان الفاطق عنها ، حسب
مواضع اللغة التي نزل بها كتاب الشريعة ، وحسب مدلولاتها الصريحة ، كما يتعامل
بها أهلها في لسانهم ، ثراً وشعراً ، دون أن يقبل من أحد قول فيها ، إذا هو خرج
عن محاميل الألفاظ والعبارات كما عهدتها الناس في تعاملهم بها . . . « نَزَلَ بِهِ
الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(١) . .
فذلك هو لسان الشريعة . . لسان عربي مبين ، أى بين المعنى ، واضح للدلالة ،
أسهل من يحسن اللغة العربية ، ويفهم عنها . . .

القرآن الكريم ، وإن يكن كلام الله ، سبحانه ، فإنه لم يخرج بهذه الصفة عن
متعارف الناس في اللغة التي نزل بها . . وبغير هذا ما كان يمكن أن يكون معجزة
الرسول ، ومفاتيح التحدى الذي دعا العرب إليه ، وأعجزهم عن القيام له . . في أكثر
من موضع منه . . كقوله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأنوا
بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ،
ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُهْدَتْ لِلْكَافِرِينَ »^(٢) .
ولا متعلق لهذا التحدى إلا إذا كان مما تنزع إليه نوازع القوم ، وتتطاع إليه
مدركاتهم ، وإلا إذا كان بما يقع موقع الفهم منهم ، لروائمه ، وأسرارهِ ، ودرجات
علوه عنهم . . .

يقول ابن خلدون : « واعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرقها ، وأوضحها دلالة ،

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ ، ١٩٥ ،

(٢) سورة البقرة . . آيات ٢٣ ، ٢٤

« القرآن الكريم » ، المنزّل على نبيّنا « محمد » صلى الله عليه وسلم . . فإن الخوارق — في الغالب — تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة على صدقه . . والقرآن هو نفسه الوحى المدّعى ، وهو الخارق المعجز ، فشاهده في عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له — كسائر المعجزات — مع الوحى . . فهو واضح الدلالة ، لاتّحاد الدليل والدلول فيه ^(١) .

فأصحاب اللسان العربى يرون المعجزة السماوية ماثلة لأعينهم ، واقمةً في عقولهم وقلوبهم ، كلما نظروا في آية من آيات الكتاب الكريم ، أو استمعوا إلى تلاوة ما يُتلى منه . . فهم أبداً في وجه معجزة قائمة بينهم ، بطالونها في كل آية من آيات الكتاب . . يقرءونها ، أو يستمعون إليها . .

وليس هذا شأن الرسائل السماوية ، التى حلما رسل الله إلى أقوامهم . . فإنها وإن تسكن قد جاءت كلها باللسان الذى يتعاملون به ، ويفهمون عنه ، حتى تقوم الحجة عليهم بأنهم استمعوا ، ووعوا ما بُلّغ إليهم من دعوة السماء — كما يقول سبحانه وتعالى : « وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبين لهم ^(٢) » —

— إن يكن هذا عنصراً مشتركاً بين الرسائل السماوية ، فإن بين الرسالة الإسلامية ، وبين غيرها من الرسائل السماوية فرقاً واضحاً في هذا المقام . . حيث كانت تقوم إلى جانب الرسائل السماوية — إلا الرسالة الإسلامية — معجزات مادية قاهرة ، هى التى كانت تعجز الناس ، وتحملهم على التصديق بالرسالة التى بين يدى الرسول . . ومن هنا كان التفاتهم إلى كلمات الرسالة وإلى مضامينها واقعاً وراء النظر في المعجزة أو المعجزات المادية التى بهرتهم وقهرتهم . . ومن هنا أيضاً كان إلى الرسول وحده شرحُ هذه الرسالة ، والكشف عن مضامينها . . وليس

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢ .

(٢) سورة إبراهيم : ٤ .

كذلك شأن الرسالة الإسلامية التي حملها القرآن الكريم ، حيث أنها هي وحدها مناط الإعجاز الذي من حق كل من يدعى إلى الإسلام أن ينظر فيه ، ويتعرف إليه ، ومن أجل هذا كان المسلمون إلى جانب الرسول الكريم مدة مقامه فيهم .. يُمضون ما في كتاب الله ، ويحكمون به ، على حسب ما أدى إليه فهمهم لكلمات الله ، على الوجه الذي يفهمون به ما يلتقى إليهم من كلمات اللغة العربية ، شعراً ونثراً ! ولهذا كان القرآن الكريم في موضع النظر من كل مسلم على مدى الأزمان والأجيال ينظر فيه بنفسه ، ليعرف حجة الله عليه فيه !

وهذا الوضع الذي كان للقرآن الكريم من أول أسره قد جعل المسلمين جميعاً في مواجهة هذا الكتاب الكريم مواجهة دأمة متصلة ، فداروا حول القرآن في كل اتجاه ، ورصدوه من كل مطلع ، وجاءوا إليه بكل ما يملكون من قوى ذهنية ، وملكات نفسية وروحية .. يدرسونه ، ويتدارسونه .. فتركوا منه حرفاً إلا نظروا فيه نظراً مردداً ، ولا كلمة إلا وقفوا إزاءها متأملين ، ولا آية إلا عاشوا فيها متوسمين ، متعبدين ! .. هكذا هم مع القرآن في كل زمان ومكان .

ولك أن تحسب جميع العلوم التي اشتغل بها المسلمون منذ صحبوا القرآن إلى اليوم — أنها إنما كانت من أجل القرآن ، ولحساب القرآن !

فعلوم التفسير ، والقراءات ، والفقه ، والأصول ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والسيرة ، والتاريخ ، والفلك ، والطب ، والفلسفة والمنطق والخط .. وكل علم اشتغل به المسلمون — إنما كان ذلك كله لغاية واحدة ، هي الكشف عن أسرار القرآن الكريم ، والعمل على صيانة مادته وحفظها !

وأمر آخر .. يتضح منه فرق آخر بين القرآن ، وبين غيره من الكتب السماوية الأخرى ..

فقد تحدث القرآن عن نزول الكعب السماوية بلسان الأقوام التي بُعث فيها
رسالهم . .

فقال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليُبَيِّنَ لهم » . .
فالرسول هو الذي يبين ما أنزل إليه ، على حين أن قومه بمعزل عن المشاركة في
هذا البيان . .

أما حين يُذكر القرآن والصفة التي نزل عليها ، فيقول عنه الحق جلّ وعلا :
« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » ^(١)
وفي هذا نجد .

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى قد سمي القرآن ذكراً . . « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ » . . وفي هذه التسمية بالذكر تنبيه إلى ما ينبغي أن يكون عليه موقف الناس
منه . . وهو أن ينظروا ، ويتدبروا ، ويتذكروا .

ثانياً : أنه سبحانه جعل فاصلة الآية هكذا : « وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » . .
وفي هذا ما يكشف عن المعنى الخفي الذي ينطوي عليه كيان كلمة « الذِّكْر » .

ثالثاً : في قوله سبحانه مخاطباً نبيه الكريم : « لتبين للناس ما نزل إليهم »
لفتة كريمة رحيمة من الله سبحانه إلى هذه الأمة التي دُعيت إلى حمل رسالة
الإسلام ، فالقرآن وإن نزل على النبي فهو منزل للناس ، وتغير الناس . . « ما نزل
إليهم » . . إنهم في هذا يشاركون النبي في هذا الذكر المنزل عليه وعليهم ! .

هو كتاب النبي وكما بهم ، وهو معجزة النبي ومعجزة اللسان العربي ! تقوم
بين كل مسلم وبينه صلة ما بين الصديق والصديق . . يفهم عنه كل كلمة جاء بها ،
وكل دعوة دعا إليها ، أو حذر منها .

وإذ كانت اللغة العربية هي ترَجَّحُ القرآن ، ولسان أحكامه ومبادئه ، فقد نبه القرآن نفسه إلى هذه الصلة الوثيقة القائمة بينه وبين اللغة العربية ، فجاءت كثير من آياته تحدث بهذا الرباط الموثق بين اللغة العربية والقرآن للكریم : مثل قوله تعالى : « قرآنًا عربيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ »^(١) . . . وقوله سبحانه : « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »^(٢) . . . وقوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » ، وإنه في أمِّ الكتابِ لدينا لعلِّي حَكِيمٌ »^(٣) .

ومن أجل هذا فقد حاط المسلمون اللغة العربية حياطة قوية من أول يوم للإسلام معها . . . يحرسونها كما يحرسون القرآن ، لأنه لا قرآن إلا بها . . . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : « تعلّموا اللغة فإنها من دينكم »^(٤) .

يقول عمر هذا القول ، واللغة العربية كانت تجري على اللسان في سلاسة ، ونصاعة ، وإشراق ، لم تصبح المعجمة بعد ، ولم تتبلبل بها الألسنة !

ولهذا الوضوح الواضح بين القرآن وبين كل أصحاب اللسان العربى فقد أمسك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يقولوا شيئاً في معانى القرآن ، إذ لا داعية تدعوهم إلى شيء من هذا ، فكل من خوطبوا بالقرآن إذ ذاك كانوا يعرفون منه ما يعرف الصحابة أنفسهم ، إذ كلهم عرب خلّص فصحاء ، لا فرق بين عربى وعربى ، إلا هذا الفرق في الذكاء والفهم ، الذى يكون بين إنسان وإنسان !

ولهذا أيضاً ، فإننا لانذهب مذهب القائلين بأن الصحابة — رضوان الله عليهم — إنما أمسكوا عن القول في معانى القرآن تحرجاً ، أو تهيباً من التهجم

(١) سورة الزمر آية ٢٨

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ — ١٩٥

(٣) سورة الزخرف آيتا ٣ ، ٤

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٤٧

على مقامه ، وإنما نقول إن هذا الذى كان من عدم المأثور عن الصحابة فى تفسير القرآن ، أو قلته ، إنما هو لفقدان الداعى الذى يدعو إلى هذا التفسير .. فكل عربى كان على حظه من فهم كلام الله ، حسب ذكائه ، وفطنته .. وإن كان الفهم حظًا مشاعًا بينهم جميعًا .

ولهذا فإنه ما كادت رقعة الإسلام تتسع ، وتضم شعوبًا وأممًا لاتحسّن العربية حتى أقبل العالمون بلغة العرب ، والفاقهون لأساليب بلاغتها وبيانها — أقبلوا على القرآن الكريم يفسرونه .. آية آية ، ثم كلمة كلمة ، ثم قامت إلى جانب هذا التفسير تلك الدراسات الكثيرة التى أشرنا إليها من قبل ؛ لتيسر لغير العرب التعرف إلى اللسان العربى .. أولاً ، ثم للتعرف إلى كتاب الله .. ثانياً !!

من أجل هذا ، فقد بقى القرآن الكريم — لا نغنى مادته اللفظية وحسب بل ومعانيه التى نزل بها — بقى مصوناً صيانة كاملة من أن يدخل عليه معنى غريب ، أو يتلبس به معتقد فاسد ، مما قد يفضح على النصوص التى لا تضبط هذا الضبط .. من تأويلات ، وتفسيرات ، وتغيير وتبديل ، إذ لا حجاز يقوم بين المتسلطين على هذا النصوص من أصحاب الكلمة فيها — لا حجاز يحمى هذا النصوص ممن يدعى لها الطلسمه ، ثم يعود فيتولى فك طلاسمها ، وحل ألغازها ، وكشف معمياتها !

ولكى يتضح لك هذا الأمر ، فإنه لا بأس من أن ننظر نظرة فى الجانب المقابل للرسالات الإسلامية من الرسالات السماوية الأخرى .

وقفه مع الرسالات غير الإسلامية :

قلنا إن الرسالات السماوية كلها قد جاءت بأسنة الأتوام التى نزلت إليهم ، وباللغة التى يتفاهمون بها .

وقلنا أيضاً إن الرسل وخدامهم هم الذين كان إليهم تحديد مضمون الرسالة ،

وكشف محتواها، وليس لأحد من أتباعهم وحوارييهم أن يقوم هذا المقام في الفاس إلا بإذنهم !

وقد كان هذا التدبير لأمر منها :

أولاً : أن مادة الرسائل السماوية — إلا الإسلام — كانت عند أصحابها بالمنزلة التي دون منزلة المعجزات المادية التي قدمها الرسول لهم ، بين يدي رسالته .. ومعنى هذا أنهم مذهبون أو مشغولون عن النصوص التي تحويها الرسالة ، بتلك المعجزات التي تملك عليهم تفكيرهم وتقديرهم .

وثانياً : تلك المعجزات المادية القاهرة التي كانت تقوم بين يدي الرسائل السماوية هي دليل على أن الإنسانية التي كانت تخاطب بتلك الرسائل ، كانت في دور لم تبلغ فيه الرشد بعد. وإذن فليس لها أن تستقل بفهم نصوص هذه الرسائل ، وإلا فلو كان في مقدورها أن تفهم كلماتها فهما صحيحاً واعيّاً لكان في خطاب الله لها بكلماته ، وما تحمل هذه الكلمات من آيات بينات تدل دلالة قاطعة على قدرته ، وعلمه ، وحكمته — لكان في خطاب الله لها بكلماته هذه ما يبنى عن تلك المعجزات المادية القاهرة . !

وهذا وذاك مما جعل إلى الرسول وحده أن يبين للناس ما حملت رسالته من عقيدة وشريعة !

لا شك أن هذا التدبير مع قيامه على الحق والحكمة والمصلحة ، لم يحل بين الناس وبين أن تقوم فيهم جماعات وطوائف تدعى لنفسها دعوى في تأويل الكتب السماوية ، وفي كشف ما خفي على الناس منها .. ثم شيئاً فشيئاً أصبحت هذه الدعوى حقاً مقدساً ، يبنى أن يتلقاه الناس بالقبول والتسليم ، دون أن يوازنوا بين النصوص ، وبين المدلولات التي يستخرجونها لم من هذه النصوص ..

إذ ليست النصوص عندهم إلا إشارات ورموزاً ، وليس غير هؤلاء السدنة المقربين .
المقدسین من يدل على هذه الإشارات ، أو ينطق تلك الرموز !

أما الرسالة السماوية الإسلامية فقد جمعت كلماتها في أفواه أتباعها وفي عقولهم ،
يتلونها ، ويفهمون عنها ما تحمل من تعاليم وأحكام ..

فكلمات القرآن التي تلتقي بالمسلمين ، وغير المسلمين ، ممن يفهمون اللغة العربية
ويدركون دلالات ألفاظها ، ومعطيات تراكيبها — هذه الكلمات هي في الواقع
رسول قائم فيهم ، يبلغ رسالة السماء إليهم ، بلسان عربي مبين ، يفهم عنه الناس
ما يفهمون من منشور أدبهم ومنظومه .. وبهذا كانت رسالة الإسلام خالدة ،
متجددة ، تلتقي بأجيال الناس جيلا جيلا ، دون أن يموزها مترجم يترجم عنها ،
أو يحدد حياتها .

وانظر لترى مجباً ! :

لقد قامت في محيط الإسلام دعوات غريبة ملتوية ، تريد أن تدعى على القرآن
مثل هذه الدعوى ، فتجىء إليه بأهوائها ، ومذاهبها ، ومعتقداتها؛ ثم تحملها عليه ،
وتضيفها له ، بدعوى أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن فيه علم الأولين والآخرين ،
وأنباء ما كان وما سيكون ، وأن ذلك محبوب إلا عن جماعة أخذت هذا العلم
وراثته عن النبوة ، أو إلهاماً من الله ..

قول قامت في الإسلام مثل هذه الدعوات المنكرة ، كما عُرِف ذلك عن
بعض غلاة الشيعة ، وعن جماعة إخوان الصفاء ، ولكن لم يكذب يرتفع صوتهم
بهذا الزور والافتراء على كتاب الله حتى تنكر لهم وجه الإسلام ، وأنكرهم
المسلمون ، ونبذهم نبذ اللارقين للمحدين .. وسرعان ما أنكرتهم الأرض ، فلم تجعل
لهم فيها مكاناً مطمئناً ، بل هم حيث كان لهم وجود ؛ فهو وجود صامت صمت
أصحاب القبور !!

وبهذا ظل وجه الإسلام كما هو ، محتفظاً بكل سماته التي جاء عليها ، لم يتغير على الزمن ، ولم يتلون بتلون الأحداث والأشخاص .

أما الرسائل الأخرى فشأنها غير هذا الشأن .. كثير منها ذهب واندثر ، والقليل الذي بقي منها حُرِّف وبُذِل ، ثم صار رموزاً وألفاظاً ، لا ينطق عنها ، ولا يكشف مضامينها إلا من أُذِنَ لهم بالقراءة عليها ، والحديث عنها !

أتريد شاهداً على هذه الدعوى ؟

الشاهد ماثل بيننا الآن ، يتحدث حديثاً عالياً يملأ أسماع العالمين ، تردده إذاعات العالم وصحفها صباح مساء !

فالجمع للسكوني يجمع الآن^(١) في روما ، ويمتشد له رؤساء الدين المسيحي من كل أمة ..

وما لهذا كان حديثنا عن الجمع والمجمعين فيه ، وإنما كان هذا الحديث لأمر أثار عجب العالم كله ودهشته ، وهذا الأمر قد عرض له المؤتمر ، وجعله من أولى المسائل الجديرة بال نظر والبحث ، والاقتهاء إلى قرار حاسم فيها !

ولمَّا كنتُ عرفتُ الآن ما هو هذا الأمر الذي يقوم له الجمع المقدس ويقعد ، ويقدر ويفكر !

إنه إعادة النظر في صلب المسيح ، وفي تبرئة اليهود من هذه الجريمة الفكراء ، التي أدانهم بها العالم المسيحي ، خلال عشرين قرناً .. من موت المسيح إلى اليوم ! وحسن أن يُعاد النظر في أحكام الإدانة ، وأن تقلب وجوه الرأي في أسبابها ومسبباتها ، فقد يكون هناك ما يكشف عن خطأ أو أخطاء في الوقائع ، أو سوء فهم لها ، أو مجانبة للصواب في وزنها وتقديرها ، فتبرأ بذلك ساحة التهم ، ويرفع عنه الظلم الذي وقع عليه !

نعم هذا حسن ، بل وأكثر من حسن ، فإنه مطلوب شرعاً ، وعقلاً ، وديناً ومصلحة !

والإسلام يزكّي هذا المبدأ ، بل ويرغب فيه ، وبحض عليه ..

وهذا عمر بن الخطاب يسجل في وثيقة بعث بها إلى أبي موسى الأشعري حين ولّاه القضاء .. يقول فيها .

« ولا يعمدَنَّ قضاء قضيتَه بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهُدبت فيه إلى رشك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماهى في الباطل » !

ولكن أيجزى هذا المبدأ على إطلاقه حين يكون حكم الإدانة صادراً من السماء ، محمولاً في نصوص صريحة في كتاب سماوى ؟ يمكن أن يكون ذلك في وقائع التاريخ، وفي الأحداث التي سجلها ، حيث أن يد الإنسان هي التي خطت صفح التاريخ .. والإنسان لا يخلو من غفلة أو نسيان، أو هوّى ، ولا يسلم من الكذب والافتراء في أغلب الأحيان ! فهل يظن هذا الظن بالكتب المقدسة ؟ وهل يُعاد النظر في أخبارها وأحكامها ؟ .. ثم أيمكن أن تظل لها صفة القداسة ، وأن يقال عنها إنها مقدسة .. تُبنى عليها عقيدة ، ويؤسس عليها دين ؟

ماذا نقول ؟

إن ما يجتمع له الجمع المقدس الآن ، وما ينظر فيه خاصاً بصلب المسيح يحملنا نقول ، وبملء قنأ ؛ نعم .. يمكن أن يُظن هذا الظن بالكتب المقدسة ، ويمكن أن يعاد النظر في نصوصها وأحكامها ! .. بل لقد أمكن ذلك فعلاً ، ووقع يقيناً .. وهاهو ذا الجمع المقدس يعيد النظر في قضية قضى فيها الإنجيل قضاء مبرماً ! !

نعم ها هو ذا الجمع المقدس ، صاحب الكلمة في الديانة المسيحية وفي كتابها

المقدس — يجتمع ليعيد الفطر في أحكام قاطعة صريحة، حملتها نصوص الإنجيل، وسجلتها
صحف التاريخ !

ومع هذا .. فقد خرج الأمر عن أن يكون فيه مجال للأخذ والرد .. فقد
وقعت الواقعة ، وهاهى ذى القضية بين يدى القضاة ، وهاهو ذا الإنجيل بين
أيديهم ، يتدارسونه ، ويقلبون وجوه الرأى فى آياته وكلماته ، ويميدون النظر
فى أحكامه ومقرراته .

ولسنا نملك بعد هذا إلا أن ندعو الله لهم بالعون فى أداء هذه المهمة التى تنوء
الجال بجملها !

الحق أننى مشفق أشدَّ الإشفاق ، مكروب غاية الكرب لهذه الجماعة
الكريمة المتخيرة من رموس الجماعات والأمم ، لأننى لا أدرى كيف تواجه الناس ،
ولا بأى حكم ستلقاهم به فى هذه القضية ؟ وبحسبهم من المخرج ، بل والإنم أن جعلوا
نصوص كتابهم المقدس التى تصرخ صرخات راعدة مدوية تعلق الزمن ، وتزعج
أهله بما كان من اليهود فى تحدى السيد المسيح ، والتطاول عليه بالقول وبالفعل ،
وبمطاردته ، ثم استعداء الحاكم الرومانى عليه ، وتقديمه إليه لمحاكمته ، ثم الحكم
عليه صلبا — بحسب هؤلاء السادة الكرام أن جعلوا هذه النصوص العريضة من
كتابهم المقدس محلاً للنظر ، ومجالاً للضغط القاتل لها .. حتى تنطق بنير ما نطقت به !

ليكن الحكم الذى ينتهى إليه الجمع المقدس فى هذه القضية ما يكون .. فذلك
ربما اهتم له اليهود الذين لعبت يدهم بحذق ومهارة ومكر ، فى تحريك هذه الفتنة ،
حتى تمكنت من إثارة هذه المسألة بعد أن عاش فيها أتباع المسيح عشرين قرناً ،
يميدون الله عليها ، ويقيّمون صلاتهم باليهود على مضمونها .

واليهود على أى راجحون فى هذه الصفة .. سواء صدر الحكم لهم أو عليهم .
فأولاً : إذا لم يُصدر الجمع المقدس حكمه فى هذه المرة لصالح اليهود ، فهى

سابقة ، استطاعوا أن يفتحوا بها هذا الباب الذى أوصد من أول يومه ، وكان للعتق ألا يفتح إلى يوم الدين . .

ومن يدرى ؟ فلعله إن فاتهم الحظ فى هذه المرة فإنه سيواتيهم فى مرة مقبلة !
واليهود الذين استطاعوا فتح هذا الباب الميثوس من فتحه ؛ لن يعجزهم بعد هذا أن يَدْخُلوه ، وأن يَمْشُوا بما ضُم عليه من مقدسات !

وثانيا : هذا الموقف الذى ساق إليه اليهودُ المجمع المقدس — أيا كان الحكم الذى سيصدره — فيه توهين للعقيدة الدينية عند المسيحيين ، وإثارة لموجات من الشك والإلحاد إلى جانب الموجات الكثيرة المتدافعة إليها من أمواج الإلحاد والشك ، حيث ينظر المسيحي إلى كتابه المقدس فيراه يُنقض من أساسه ، وتفقد أحكامه وأخباره وجودها الذى عرفته الحياة لها .

وفى هذا كسب عظيم لليهود الذين يريدون أن يسود العالم كله الكفر والإلحاد . . فالإنحلال العقائدى والخلقى هو الذى يعطى اليهود مفتاح العالم ، الذى يطمعون فى سيادته ، ويحملون بحكمه .

وثالثا : إذا صدر الحكم لصالح اليهود ، وحكم ببراءتهم من دم المسيح . . فانظر ماذا سيكون :

(أ) سيخرج اليهود من هذا السجن الكبير الذى حكم به عليهم العالم المسيحى ، منذ حادثة الصلب إلى اليوم .

(ب) سيطالب اليهود بالتمويض الذى لا يكاد يُحصَر أو يُقدَّر ، عن هذا الاضطهاد الذى عاشوا فيه هذه القرون الطويلة ، وعن هذا الدم المسفوك الذى أريق منهم ؛ انتقاما لصلب المسيح !

وإنهم لن يسكتوا عن المطالبة بالثمن لهذه الأضرار التى لحقت بهم على مدى

عشرين قرناً ، يمد أن ذاقوا طعم تلك التمويضات الضخمة التي حصلوا عليها من ألمانيا ، ثم لما أصابهم به « هتلر » من أضرار .. في أنفسهم وفي أموالهم !

(ج) وليس يُعجز اليهود أن يقدموا كشوف حساب طويلة ، تحصر هذه التمويضات وتحددّها ، كما أنه لن يعجزهم أن يحصلوا عليها من الأمم التي علقوا هذه الديون بعقدها .. إنهم سيتقاضونها بوسائلهم المعروفة .. سواء أكان ذلك الذي يتقاضونه مالا ، أو أسلحة وذخائر ، أو عواطف تفتح لهم مجالات الوظائف والأعمال في المرافق الحيوية في الدول .. فيستولون على خيراتها ، ويملكون مصائر الأمور فيها .

إن اليهود وحدهم هم الذين أقادوا فائدة محققة من إثارة هذه القضية ، وعرضها للنظر في الجمع للقدس .. سواء أدانهم المجلس أو برأهم ! فهم بالإدانة لم يخسروا شيئاً — كما قلنا — لأنهم قد أدينوا منذ عشرين قرناً ، وسوى حسابهم على هذا التقدير !

وندع هذا ..

وننظر فيما تقول الأنابيل في هذه القضية .. فلربما يكون فيها مجال لمعاودة البحث ، والنظر .. وربما كان في نصوصها ما يحتمل أكثر من محمل !

ففي إنجيل متى .. تجيء خاتمة الصراع بين المسيح واليهود هكذا :

« والذين أمسكوا يسوع مضوا به إلى قيافا رئيس الكهنة^(١) ، حيث اجتمع الكهنة والشيوخ ... وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والجمع كله يطلبون كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه ، فلم يجدوا ، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون ، لم يجدوا ، ولكن أخيراً تقدم شاهدا زور ، وقالوا : هذا^(٢) قال إنى أقدر أن أنقض

(١) قيافا هو الرئيس الديني لليهود في هذا الوقت .

(٢) الإشارة إلى السيد المسيح .

هيكل الله ، وفي ثلاثة أيام أبنيه ! فقام رئيس الكهنة وقال له : أما تجيب بشيء ؟
ماذا يشهد به هذان عليك ؟ وأما يسوع فكان ساكناً ، فأجاب رئيس الكهنة
وقال له : أسمعحك بالله الحق أن تقول لنا : هل أنت المسيح ابن الله ؟ قال له
يسوع : أنت قلت . . وأيضاً أقول لكم : من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً
عن يمين القوة ، وآتياً على سحاب . . فزق رئيس الكهنة حينئذ ثيابه ، قائلاً :
قد جدّف . . ما حاجتنا بعد إلى شهود ؟ ها قد سمعتم تجديفه . . ماذا ترون ؟
فأجابوا وقالوا : إنه مستوجب الموت . . حينئذ بصقوا في وجهه ، ولكوه . .
وآخرون لطموه قائلين : تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

ويعمى إنجيل متى في عرض هذه الأحداث المثيرة . . فيقول :

« ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع ،
حتى يقتلوه ، فأوثقوه ومضوا به ، ودفعوه إلى بيلاطس البنطي الوالى .
ثم يمضى إنجيل متى في وصف هذه المحاكمة :

« فوقف يسوع أمام الوالى ، فسأله الوالى قائلاً : أأنت ملك اليهود ؟

فقال له يسوع : أنت تقول ! وبينما كان الكهنة والشيوخ يشتكّون عليه
لم يُجب بشيء ، فقال له بيلاطس : أما تسمع كم يشهدون عليك ، فلم يجبه ولا عن
كلمة واحدة ، حتى تعجّب الوالى جداً .

« وكان الوالى معتاداً في العيد أن يُطلق للمجمع أسيراً واحداً ، من أرادوه .
وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ، ففيا هم مجتمعون ، قال لهم بيلاطس :
من تريدون أن أطلق لكم ؟ باراباس أم يسوع الذى يدعى المسيح ؟ لأنه علم أنه
أسلموه^(١) حسداً ، وإذا كان جالساً على كرسيّ الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة
إياك وذلك البار^(٢) ، لأنى تأملت اليوم كثيراً فى حلّم من أجله . ولكن رؤساء

(١) الضمير هنا للسيد المسيح .

(٢) تقصد السيد المسيح .

الكهنة والشيوخ حَرَضُوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهملوا يسوع.. فأجاب الوالى وقال لهم مَنْ مِنَ الاثنين تريدون أن أطلق لكم ؟ فقالوا باراباس ، قال لهم بيلاطس : فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح ؟ قال له الجميع ليُصَلَّب ! فقال الوالى : وأى شرّ عمل ؟ فكانوا يزدادون صراخاً قائلين ليُصَلَّب ، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئاً ، بل بالحرى يَحْدُثُ شغب أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع ، قائلاً : إني برى من دم هذا البار ، أبصروا أنتم . . فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا ، وعلى أولادنا ! حينئذ أطلق لهم باراباس ، أما يسوع فجلده ، وأسلمه ليصَلَّب !^(١) يا سبحان الله !

أبعد هذا الكلام الواضح الصريح الذى ليست فيه كلمة واحدة تحتمل تأويلاً ولا تفسيراً يكون لأحد أن يسأل : من هم قتلة المسيح ؟ أو يشك في إدانتهم ؟ وماذا يُطلب من اللغة في مقام التفاهم والإفهام أكثر من هذا الوضوح الذى يكاد يتمثل أحداثاً واقعة ، ووقائع مشهودة ، شخوصها وشخصياتها . . الناطقة والصامتة جميعاً ؟

ولو كان للغة أن تَمسك بالقتلة وتحتفظ بالقبلى وأدوات القتل لكانت هذه الكلمات خير شاهد في هذا الشأن ، ولكن للغة طاقة في نقل الأحداث وتصويرها ، وحسبها أن تَلْقَى الناس كما عهدوها في مقام التخاطب والتفاهم .

وليس إنجيل متى وحده هو الذى انفرد بتفصيل هذه الواقعة أو المأساة ، ولكن الأناجيل الثلاثة الأخرى — يوحنا ، ولوقا ، ومرقس — تجيء بأكثر تفصيلاً ، ووضوحاً مما جاء في إنجيل متى . . إن كان بعد الذى جاء به وضوح أو تفصيل ! إننى في حيرة لا تكاد تنتهى عند حدّ لهذا الموقف الذى ساقه المجمعُ المقدس نفسه إليه . . كلما قلبت وجوه الرأى في هذه المسألة ازدادت حيرة وبلبلة !

(١) من إنجيل متى : الاصحاح السادس والمثرون والسابع والعشرون .

عشرون قرناً والمسيحيون يؤمنون بهذه المقولات التي ضمت عليها الأناجيل في شأن المسيح واليهود ، ويتعبدون بها ، وينظرون إلى اليهود من خلالها على أنهم قتلوا المسيح وصالبوه . .

ثم . . .

ثم يحىء المجمع المقدس بعد هذه القرون العشرين ليعيد النظر فيها ، وليجد لليهود مخرجاً منها !!
وكيف هذا ؟

لا تسأل . . فإن للمجمع المقدس — في أى وقت شاء — أن يقول ما شاء وأن يوجه نصوص الكتاب المقدس الوجهة التي يراها ، دون أن يكون لأحد من أتباعه — هل الأقل — أن يعترض ، أو يعترض ! وليس لمن يفعل ذلك إلا الطرد والحرمان من ملكوت الله !

ولا نستطيع أن نترك هذه القضية دون أن نتعرف إلى رأى الإسلام فيها ، لأن هذا التعرف يكشف لنا عن جوانب كثيرة من الأسس التي قام عليها هذا الدين ، وعن القوى المسكة به ، لئلا نضل هكذا عاملاً في الحياة ، دون أن نتال مع الأهواء أو الأحداث .

وموقف الإسلام من هذه المسألة — كموقفه في كل قضايا وأحكامه — هو لم يتغير ، ولن يتغير أبداً . . إذ لا سبيل لأحد أن يغير أو يبدل في كلمات الله . . وفي قوله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَمَهِّمْنَا عَلَيْهِ (١) » ما يكشف عن هذه الحقيقة التي يقوم عليها القرآن الكريم ، وأنه يحى نفسه من أن نتعرف كلماته ، أو أن تلتوى معانيه . . فهذه الهيمنة التي للقرآن الكريم على ما سبقه من كتب سماوية من ألزم مقتضياتها أن يكون القرآن الكريم نفسه بمنأى عن أن تلمب به الأهواء والعواطف ، إذ أنه لا يوصف الشيء بالهيمنة على شيء غيره إلا إذا كان له من ذاته ما يدفع عنه عدوان من يريد

الاعتداء عليه ، وبهذا الفهم الذى فهمنا الآية الكريمة عليه يمكن أن نفهم الحفظ الذى فى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنالاه لحافظون » ^(١) لا على أنه مجرد الحفظ للقرآن فى منطوق ألفاظه وعباراته وآياته وحسب ، كما نزل بها الوحى ، بل وحفظ هذه الألفاظ والمبارات والآيات فى مفهومها أيضاً ، على الوجه الذى فهمها عليه أصحاب اللسان الذين يطقون باللغة التى نزل بها القرآن .

فوقوف الإسلام من قضية المسيح وصلبه هى اليوم عند المسلمين كما كانت عند سلفهم الأولين منذ نطق رسول الإسلام بهذه الآيات فى مواجهة اليهود ، وفى فضح ماضيهم الأسود الكئيب مع رسالات الله ورسوله إليهم : « فَيَمَّا نَقَضْتُمْ ميثاقَهُمْ ، وكفرهم ، بآياتِ اللَّهِ ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غُلْفٌ ، بل طبع الله عليها فلا يؤمنون إلا قليلاً ، وبكفرهم ، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ اللَّهِ ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبهه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه ، لفي شكٍّ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه اللَّهُ إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً » ^(٢) .. لقد وقع عليهم لائم قتله ، إذ قتلوه فى تدبيرهم وتقديرهم ، ولكن « ما قتلوه يقيناً » ، إذ عصمه الله منهم ، وأبطل كيدهم . . !

فنطوق هذه الآيات ومفهومها بنطويان على :

أولاً : أن اليهود لهم تاريخ — قبل المسيح — مخضب بدم الأنبياء والرسل الذين بُعثوا إليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم مخاطباً اليهود وقاضعاً لهم : « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فقريباً كذبتم وفريقاً تقتلون » ^(٣) ..

(٢) سورة النساء .. الآيات ١٥٥ — ١٥٨

(١) سورة الحجر .. آية : ٩

(٣) سورة البقرة .. آية ٨٧

وهذا التاريخ الأسود المشؤم لليهود يسجله الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام . . . ففي إنجيل متى يقول السيد المسيح مخاطباً أورشليم - مركز الحياة الدينية لليهود يومذاك :

« يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء ، وراجة المرسلين . . إليّ كما أردت أن أجمع أولادك كما تجتمع الدّجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا . . هوذا بيتكم يترك خراباً^(١) . »

ثانياً : أن اليهود قد حملوا للمسيح بغضة متوارثة منذ يومه الأول معهم ، وأن المسيح لم يكن نصيبه منهم من الشغب والعناد ، ومن الإيذاء والإيلام ، بأقل ممن سبقه من الأنبياء الذين التقوا بهم . . ولهذا ضاق بهم المسيح ذرعاً ، وصب عليهم اللعنات صباً ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : « لئن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » . . وعلى لسان المسيح نفسه كما جاء في إنجيل متى : « يا أولاد الأفاعى . . كيف تقدر أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ؟^(٢) ! »

إنه الشرّ الذي تفرزه تلك الطبيعة المندسة في دم اليهود كما نفرز الأفاعى سمومها . . وأنهم ما زالوا بالمسيح يلاحقونه بالأذى ، ويرمونه بالثهم حتى ساقوه إلى ساحة الإعدام !

ثالثاً : أن اليهود يشهدون على أنفسهم - بما سجل القرآن عليهم - أنهم قتلوا المسيح ابن مريم . « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله » . . كما سجل عليهم الإنجيل ذلك الإثم العظيم ، فيما نقلناه من قبل . وما ذكره القرآن هنا من وصف عيسى بأنه رسول الله فيه تغليظ لجرمهم الشنيع ، سواء أ كان هذا

(١) إنجيل متى : الإصحاح الثالث والعشرون .

(٢) إنجيل متى : الإصحاح الثاني عشر .

القول من مقولهم ، إيماننا منهم في الاستهزاء به ، وتناولوا وتحدوا الله ، ومبارزة له سبحانه ، بالهزم برسله والعدوان عليهم .. أو كان هذا الوصف من عند الله سبحانه تكريماً لعيسى ، ووعيداً لمن آذوه ، وسعوا في قتله .

واللغى الأول يستقيم مع ماورد في الإنجيل .

رابعاً : يكذب القرآن الكريم الادعاء اليهودى بأنهم قتلوا المسيح ، كما يخالف ما جاء في الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين منذ انتشرت المسيحية ، إذ كلها مجمعة على أن لليهود هم الذين ساقوا المسيح إلى ساحة الإعدام ، وطلبوا إلى الحاكم الرومانى أن يعذبه حسب شريعتهم ، لأنه خارج على الشريعة والقانون ، ولأنه ينافزع قيصر حكمه ، إذ يدعى أنه ملك اليهود .. واليهود — كما صرحوا بذلك بين يدى الحاكم الرومانى — لا يعترفون بغير قيصر حاكماً ، وقد هددوا الحاكم الرومانى بأنه يكون غير تخلص لقيصر إذا هو ترك هذا الذى يدعى الملك دون أن يقتص منه ..

تقول : إن القرآن يكذب اليهود فى هذا الادعاء ، كما أنه يخالف ما جاء به الأناجيل من أخبار عن هذه الواقعة .. فيقول القرآن : « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم » ، وهذا يعنى أن اليهود الذين عاصروا المسيح كانوا حربصين على أن يقتلوه ، وأنهم لم يهدأوا ، ولم تسكن لهم نائرة حتى ساقوه إلى ساحة الموت ، وحتى وقع فى حسابهم أنه قتل فعلاً . ولكن الحقيقة كانت على غير هذا الحساب .. ! فالمسيح لم يقتل ، ولم يصلب !

هذا هو حكم القرآن فى واقعة القتل والصلب ، وهو حكم قاطع لاشك فيه ، ولا ارتهاب معه ! فلنقل الدنيا كلها ما تقول .. فإن الحق كله فيما قال القرآن وحده ! وسينكشف وجه الحق يوماً !

أما كيف شبه لليهود أنهم قتلوه ، وأما كيف أفلت المسيح ونجا من القتل الذى

كان يراد له ، فذلك أمر لم يتعرض له القرآن ، لأنه يفتأ بنفسه عن أن يدخل في جدل ومهاترات . في جزئيات هي من حواشي الحقيقة التي يريد تقريرها ! وفي هذا ما يروق الأنظار عن التعلق بالصميم من الحقيقة المراد عرضها ، وهي أن اليهود قد وقفوا من المسيح هذا الموقف اللئيم ، وأنهم ساقوه إلى الصلب ، ولكن الله عصمه منهم ، هل حين بادوا بهذا المكر الذي دبروه !

أما من يشهد للقرآن بصدق هذه الدهوى ، فهو القرآن الكريم ذاته ، فما قال قولاً ، أو أخبر بنحو وقع أو سيقع إلا كان كما نطق به ، وإلا جاءت الأيام شاهدة بأنه الحق الذي لا مرية فيه ، وإن وقع من بعض الزائنين والملحدین موقع الشك والارتياب قبل أن تكشف الأيام عنه ، فإذا انكشف وجه الحق اسودت وجوه الكافرين المكذبين .

وفي هذه الواقعة بالذات — واقعة قتل المسيح وصلبه على ما يعتقد اليهود والنصارى معاً . يقرر القرآن أن المسيح لم يقتل ولم يصلب .. « وما قتلوه بقيفاً .. بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً » .

يقرر القرآن هذا ، ثم يدع الذين يعتقدون خلاف هذا المعتقد في غيهم وضلالهم يَمَمُّون . ! حتى تجيء الأيام بما نطق القرآن به . ! وستجىء من غير شك . . إن لم يكن اليوم ففي غد ، أو بعد غد !

وأرانا قد وقفنا طويلاً — ربما إلى حد الإملال — عند هذه الجزئية ، ولكن ساقنا إلى هذا أمران :

أولهما : هذا الموقف الراهن الذي يدور فيه البحث بين أعضاء المجمع المقدس المسيحي في تبرئة اليهود من دم المسيح ، وفي ذلك تحدٍّ صارخ لنصوص الأنجيل ، ولعتقد المسيحيين مدة عشرين قرناً . . وقد دارت رموسفا لهذا الموقف الذي لا ندرى كيف أباح القوم لأنفسهم الدخول فيه ، ثم لا ندرى كيف يكون الخرج منه . !

وثانيهما : أن عرض هذا الموقف يجلّى لنا عن وجه من وجوه الإبهام القرآنى ، ويكشف عن حقيقة مشرقة من حقائق الإسلام ، وأنه دين يحمل فى كيانه كل القوى التى تدفع عنه تسلط الأهواء والمنازع البشرية من أهله أو غير أهله ، إذ ليس لأحد إزاء نصوص القرآن دعوى يدعيها فى فهم خاص له ، خارج عن مدلول اللغة ، ومتعارف أهلها عليها ، فى مفرداتها وتراكيبها .

ولنضرب لهذا مثلاً :

صرح القرآن الكريم بأن أبا لهب وامرأته سيصليان نار جهنم ، بسبب إصرارهما على الكفر ، وتعرضهما للنبيّ الكريم بالأذى ، قولاً ، وفعلًا . وقد أعلنهما القرآن الكريم بهذا الحكم ، وواجههما به ، وهما أحياء ، فلم يكن لهما فكّاك عذّه ، ولا تحول إلى الإسلام ، كما تحول كثير من مشركى قريش ، الذين كانوا على شاكلتهم . . وفى هذا يقول الله سبحانه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ . » !

ونسأل : أيجرؤ أحد من المسلمين ، أو غير المسلمين على أن يهمس ولو فيما بينه وبين نفسه بأنه يمكن النظر فى هذا الحكم الذى حكم به القرآن على أبى لهب وامرأته ؟ إن من يفعل ذلك ولو على سبيل المعابشة والمحاكمة يستغزى من نفسه ، كما يستغزى الذى يترعى من ثيابه — مضطراً — فى ميدان طام ، على رأى من الغادين والرائحين ! لعد رجلاً

وليس هذا فى قضية أبى لهب وحدها ، بل هو فى كل قضية من قضايا الإسلام التى عرضها القرآن الكريم ، وفى كل حدث من الأحداث التى تحدث بها ، والوقائع التى كشف عنها . . ليس فيها جميعاً إلا قول واحد ، هو ما نطق به القرآن ، وما تعطيه دلالات كلماته .

لقد حى القرآن نفسه من تطاول المتطاولين إليه ، وادعاء المذهين فيه ، وقطع السبيل على كل من يدعى لنفسه وحده حق القول فيه ، وأقام الناس جميعاً على مقام سواء منه ، ينظرون فيه بما معهم من مفاهيم اللغة العربية ودلالاتها ، وإن أى خروج على هذه المفاهيم وتلك الدلالات من حق المسلم — كل مسلم — بل من واجبه أن يرفضه ، وأن يردده على أهله .. أياً كانوا ، وكان مبلغهم من المعرفة والعلم !!

وبهذا بقى القرآن متصلاً باللغة العربية هذا الانصال الوثيق ، وبقيت اللغة العربية إلى جانب القرآن ، حارساً أميناً بحرس مضامينه من الأهواء والضلالات .. ومن هذا ندرك السرفى حفاظ المسلمين على اللغة العربية ، والعمل على حيائها وحمايتها من أن تتحول على الزمن إلى أخلط من اللغات المختلفة — الأمر الذى يذهب باللسان الذى هو ترجمان القرآن ، وحارسه من التأويلات المنحرفة ، والتفسيرات القائمة على الغرض والهوى .

* * *

وندع هذا .. ونعود لما كفا فيه من أن الحياة المتجددة فى الإسلام لا تنجى إليه من تلك الإضافات والتغييرات والتعديلات التى يدخلها أتباعه عليه ، دون أن يتقيدوا بمفاهيمه ونصوصه ودلالاتها اللغوية ، كما يفعل ذلك أصحاب الديانات الأخرى .. وإنما تنجى الحياة المتجددة للإسلام من تجدد نفوس أتباعه ، وتهيتها للتعامل مع أحكامه وشرائعه !

فالإسلام هو هو ، فى أحكامه وشرائعه ، وإنما يتلون بلون الإناء الذى يحل فيه فإذا استقبلته نفوس سليمة مستقيمة بدا هو سليماً مستقيماً ، وإن استقبلته نفوس عليقة معوجة ، بدا عليلاً معوجاً ، على حين يظل هو فى ذاته سليماً معافى .. يؤثر ولا يتأثر . ويعطى ولا يأخذ .. وهكذا الحق دائماً ، أشبه بالمرآة الصقيلة . تظهر الأشياء على

صفحتها كما هي، فيبدوا الجليل جيلا، والقبيح قبيحا .. دون أن يدخل عليها شيء من جمال الجليل أو قبح القبيح !

وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم ، حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم » .. فتغيير النفوس ، لا تغيير النصوص وتحريفها — هو الذي يعطى الدين الإسلامي المظهر الذي يظهر به في الحياة ..

يقول « جولد تسيهر » في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » :

« فالأديان التي نؤخذ عقائدها، وأشكال أعمالها من مراجع مقدسة محددة ، تحيى تطوراتها الفقهية والاعتقادية من أعمال الشرح والتفسير التي تفسر بها الكتب المقدسة !!

« وتاريخ الأديان في مثل هذه الدائرة يساوى تاريخ التفسير المكتوب ، ويتفق فيها إلى حد كبير جدا مع الإسلام الذي يتراءى تاريخه الداخلى في الطرق التي شرحت بها كتبه المقدسة ،^(١)

وهذا القول وإن انطبق على الكتب المقدسة التي أعطى أصحابها الحق لطائفة منهم أن يؤولوها ويفسروها على الوجه الذى يريدون ، وإن خالفوا نصوصها ، وخرجوا خروجاً صريحا عليها — فإنه لا يصدق على القرآن ، كتاب الشريعة الإسلامية .. فما كانت الشروح التي شرحت بها نصوص القرآن ، ولا الفقه الذى فقهه المسلمون منه هو الذى حدد موقف المسلمين من الإسلام ، وباعد أو قارب بينهم وبينه ، ولو كان ذلك كذلك لسكانت العصور التي انحلت فيها عرى الدين ، وضعف فيها سلطان الإسلام والمسلمين هي أزهى عصور الإسلام ، وأكثرها إشراقا وألقا ، بما جدّ في نصوص القرآن والسنة من دراسات ، وما وقع عليه الدارسون

(١) كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٦٦

والباحثون من حقائق ، في عصرنا الحديث هذا ، وفي العصر العباسي على امتداده الطويل !

ولكن الواقع كان على غير هذا ، فإنه حيث كان يلتفت المسلمون الافتاتاً قوياً إلى مناقشة قضايا الشريعة الإسلامية ، وتحليل نصوصها — كانوا حينئذ يشاغلون ، ويشغلون عن تمثل هذه القضايا ، والاستقامة عليها ، والعمل بمقرراتها ! .

* * *

وقداسة القرآن الكريم ليست بالتي تجعل بينه وبين الناس — كل الناس — حجباً وأستاراً ، يقوم عليها سدنة وحجاب ، وينطق باسمها كهان ورهبان ، وإنما هي قداسة حيطة الكلمات ، ومحافظة على نصوصه من التحريف والتبديل . . وإنه لكي لا يكون لأحد يد على تلك الرسالة الخالدة فقد تولى الله سبحانه وتعالى حفظها ، وضمن بقاءها ، بهذا الوعد الصادق الذي وعده سبحانه في قوله : إنا نحن نزلنا الذِّكْرَ ، وإنا له لحافظون . . . حفظ نصوص القرآن ، وحياطته من التبديل والتحريف هو مما تولاه الله عن المسلمين ، ليصرفوا عنايتهم وجهدهم للنظر فيه وتدبر آياته . . ولهذا تعبدتم الله سبحانه بتلاوته ، وجعل دعاءهم وصلاتهم من كلمات وآياته . . .

وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى ، فقد جعل الله سبحانه حفظها إلى رسله الذين حملوها ، ثم جعل إلى أتباعهم حفظ ما حفظهم الرسول إياه ، دون أن يغيروا أو يعدلوا ، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هُدًى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء » (١) . .

فالربانيون والأحبار هم الذين إليهم حفظ ما أنزل الله إلى رسلهم ، يؤدونه إلى عباد الله كما تلقوه ، من غير تبديل أو تحريف .

هذا ، ونود أن نُلَفِّتَ النظر إلى ما قد يثار من اعتراض هنا على تلك الدعوى التي يدَّعيها الإسلام من صلاحيته لكل زمان ومكان — هذا الاعتراض الذي يدفع تلك الدعوى بالواقع للشاهد ، الذي يبدو في عجز الإسلام عن تلبية حاجات العصر ، والاستجابة لمطالب الحضارة والمدنية ، وأنه بقصوره هذا قد حجز أتباعه في هذا الأفق الضيق المجدب من الحياة ، فأمسك بهم عن التطور ، وقيد خطواتهم بقيود ثقال . . وكان من ذلك أن تمثروا في الحياة ، وتثاقلوا عن النهوض إلى تلك المجالات الفسيحة ، التي تعمل فيها يد العاملين ، من أم الحضارة والمدنية ! !
قد يقال هذا أو نحوه .

فكيف يكون للإسلام بعد هذا أن يغيّر أوضاع أتباعه ، وأن يقيم لهم في الحياة طريقاً قاصداً مستقيماً ، وأن يدفع بهم في مزدحم العاملين فيها ؟ أذلك ممكن من غير أن تتبدل نصوصه ، وتعفى أحكامه ؟ وإذا كان ذلك مما يمكن أن يقع في الشريعة الإسلامية ، أفيمكن ذلك — بعد هذا — هو الإسلام كما جاء به القرآن ، وبلغه الرسول ؟ أو أنه دين جديد ، يحمل دعوى جديدة ، لم يقم لها شاهد يشهد بصدقها ؟ وإذا فلا يكون من حق الناس أن يلقوا هذا الوجه الجديد للدين بالشك والارتياب ؟ أو بمعنى آخر : ألا يقع في حساب التدينين بهذا الدين . . أنه ليس مما جاءت به السماء ، وإنما هو مما اصططنه أصحاب الأهواء ليتسلطوا به على الناس ، وأنهم إنما خرجوا به عليهم من أفق الدين ليُلْقُوا في روعهم شيئاً من الاحترام ، وليظفروا هم محتفظين بما لهم على الناس من سلطان روعي من جهة الدين !

هذه النظرة إلى الدين قد وقعت فعلاً في نفوس أصحاب الأديان التي ذهب بها أربابها وأصحاب الكلمة فيها مذاهب شتى ، من التأويل والشرح . . والمثل المائل أمامنا الآن هو المسيحية ، وما تسلط عليها من شروح وتأويلات باعدت بين الناس وبين ما تنطق به نصوصها . .

فأين مسيحيو اليوم من دعوة السيد المسيح ، وما وعته الأناجيل من وصايا

يقرأ المسيحيون كل صباح ومساء قول السيد المسيح : « قد سمعتم أنه قيل
للقدماء : لا تَزْنِ .. وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد
زنى بها في قلبه ، فإن كانت عينك اليمنى ، تُعْثِرُكَ فأقلعها وارمها عنك ، لأنه خير
لك أن يهلك أحد أعضائك ، ولا يُلْقَى جسدك كله في جهنم !! » .

ويقرون كل صباح ومساء قول السيد المسيح أيضاً : « سمعتم أنه قيل : عين
بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقارموا الشر ، بل من لطمك على
خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً .. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فترك
له الرداء أيضاً ، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين .. من سألَكَ فَأَعْطِهِ ،
ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .. ! »

وهم يقرءون ويرتلون دعوة السيد المسيح : « لا تَكْنِزُوا لكم كنوزاً على
الأرض حيث يفسدُ السوس والصدأ ، وحيث ينقُبُ السارقون ويسرقون ، بل
اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقُبُ
سارقون ولا يسرقون .. لا يقدر أحدكم أن يخدم سيدين ... لا تقدر أن
تخدموا الله والمال .. (١) »

أين مسيحيو أوروبا وأمريكا .. بل وكل مسيحيي العالم من هذه التعاليم
الإنسانية المثالية الرفيعة ؟

إن العاس في واد وهذه التعاليم الواضحة الصريحة في واد .. وهم — مع هذا —
يحسبون أنهم على شريعة هذا الدين ، بما اصطنعوا له من تأويلات وتخرجات !
ولكن الذين يتصلون بالإنجيل ، ويعرضونه على عقولهم يرون ديناً غير الدين الذي
هم عليه ، ويسمعون حديثاً غير هذا الحديث الذي يسمعون إياه الأحرار والرهبان !!
ومن هنا كان مُستند أولئك للماديين الذين يشككون في الأياد ، ويستبعدون

إن تكون أصولها مرتبطة بالسما ، إذ لو كان أمرها كذلك لما قبلت هذا التحويل والتبديل ، الذى يجريه عليه أتباعها ، بل وَلَمَّا جَرُّ أَرْباب هذه الأديان على أن يلعبوا بها هذا اللعب ، ويمسحوا وجوهها هذا المسخ ، الذى يبذل خلقها ، ويضيع معاملها ! يقول الماديون فيما يقولون هنا : إذا كان الدين — أى دين — يفرز عصابات حسب استدعاء الناس له ، لَسَدَّ تلك الفجوات التى تحدث بينه وبين الحياة ، حتى يتقبل تطوراتها ، وحتى يتسع لاستيعاب كل ما تلده الحياة من حقائق العلم والفن — فإن ذلك معناه :

أولاً : أن حقائق الدين ، التى تقبل مثل هذا « المط » ، وتعمل هذا الجرى اللاهث بها إلى كل مجال ، ليس لها فى ذاتها قدرة على الإلهام والتوجيه ، إلى تلك الغايات التى دفع بها الدافعون إليها ، وإلا لكان لها ذلك من أول أمرها مع الناس ، ولأعظمتهم كل مافى كيانها منذ اتصلت بهم واتصلوا بها !

وإن أحسن ما يفترض لحقائق الدين هنا هو أنها ربما تُضمِر فى كيانها مضامين التقدم والحضارة التى تظهر فى كل عصر ، حتى إذا ما سعى الناس سعيهم فى الحياة وبلغوا غاية بعينها تلفت بعض المهتمين بالدين — أو المشفقين عليه — إلى مقررات الدين فشدوها شداً إلى تلك الغايات التى بلغها الناس فى العلم والفن ، وخيّلوا إليهم منها أن الدين هنا ! ! وأنه حيث تكون الحياة ، وحيث يبلغ الناس منها !

وهذا على ما به من شطط فى التكلف والتعسف ، يجعل الدين مفسراً للحياة ووقائماً بعد أن تقع ، وليس هادياً أو موجهاً ، كما ينبغى للدين أن يكون !

ثانياً : لا يمكن أن يَسَلَّمَ هذا التأويل لمقولات الدين التى تُعطى مطاً ، حتى تنسج لمنطق العصر ومحدثاته وتقبلها — لا يمكن أن يسلم من اتهام أصحاب هذا الدين ودعائه بتحريف الكلم عن مواضعه ، وإقحام مفاهيم جديدة للشريعة ، وربما إدخال نصوص عليها ، أو إخراج نصوص منها ، لتستقيم مع جديد الحياة ، الذى

فاتها ، ولتقيم منها شاهداً على حيوية الدين ، واستجابته لحاجات الناس ، واقتداره على امتلاك وجودهم الديني والدينيوي جميعاً ، على مدى الأمكنة والأزمنة !

وهذا أقل ما فيه أنه يفسد الثقة التي ينبني أن تكون قائمة على أوثق ما يكون ، بين الدين وأهله ، حيث يرى الناس كل يوم للدين الذي يعتقدونه وجهاً جديداً ، مخالفاً لما عرفوه منه .. الأمر الذي يصبح معه الدين ضرباً من الشكوك ، تلتهب في عقول الناس وقلوبهم ، وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد تكون مجانبة الدين ومجافاته خيراً من صحبته ، والحياة معه !!

ونسأل :

أيصدق هذا التصوير بمقدماته ونتائجه على الإسلام ؟ بمعنى أن استجابة نصوصه للأصول والتفسير الذي يكشف منها عن وجوه جديدة فيه تتلاقى مع وجوه الحياة المعاصرة — هذه الاستجابة أليكون من معناها أنها تدخل على الإسلام ما ليس منه ، أو تمدل بنصوصه عن وجهها الذي من حقها أن تستقيم عليه ؟

والحق أننا في الإجابة على هذا السؤال ينبني أن نفرّق بين موقفين يقفهما المسلمون من القرآن الكريم ..

فهناك موقف الدين ينظرون إلى القرآن على أنه كتاب علم ، حوى أسرار الوجود كلها ، ما علمه الناس ، وما سيعلمونه ، وما لن يعلموه .. وهم بهذا يفسرون القرآن الكريم تفسيراً علياً .. وهم في هذا بين مقصد ، وظالم لنفسه ، معتمد على كلمات الله !

وهذا الاتجاه بجميع صورته وأشكاله ، ليس الوجه الذي قام عليه فهم المسلمين للقرآن ، وأخذ أحكام شريعتهم وتعاليمها منه .. وإنما هو دراسات خاصة لبعض المسلمين ، يريدون — عن نية حسنة — أن يقيموا للقرآن وللإسلام حجة في وجه

المدنية الحديثة. وعلومها وفنونها . وهذا العمل ، وإن بدا أنه - يخدم القرآن ، فإنه معول هدم للقرآن من حيث لا يشعر المسكون به !^(١)

أما الموقف الآخر فهو الموقف الذى ينظر فيه الناظرون إلى القرآن الكريم من خلال دلالات اللغة ، ومعطيات ألفاظها وأساليبها على النحو الذى شرحناه آنفاً ، وقد عرفنا أن القرآن الكريم فى حياطة قوية من ذاتيته ، وفى ضمان وثيق من اللغة التى ظلت وستظل — إن شاء الله — قائمة إلى جواره ، ترد عنه كل عادية ، وتدفع كل نظر مريض ينظر إليه .

هذا ، وينظر غير المسلمين من علماء المفسرين إلى القرآن فظرتهم إلى الكتب السماوية الأخرى ، ويسوون حسابهم معه على ما أسفرت عنه تجارب الحياة مع تلك الكتب ، وما أجرى عليها رجال الدين من تحوير وتبديل ، غير معالمها ، وهذل بها عن طريقها الذى كانت قائمة عليه . .

يقول « جولدسيهر » : ومن الخطأ الخطير أن يذنب للقرآن أكبر القيم فى بيان طابع الإسلام بوجه عام ، كما أننا من باب أولى لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستفدين إلى هذا الكتاب وحده — المقدس لدى المسلمين ! ثم يقول : « والواقع أن هذا الكتاب لم يحكم الإسلام إلا فى خلال العشرين السنة الأولى من عونه !

« فى خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ظل القرآن فى رأى أتباع دين محمد هملاً أساساً محترماً باعتباره موحى به . . كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى حد لم يظفر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية !

ثم يتابع هذا القول :

« ولكن بالرغم من أن الإسلام فى أطوار نموه التالية قد اتخذ القرآن أساساً

(١) انظر رأينا فى هذا فى كتابنا لمجمل القرآن - الجزء الأول ص ٨ وما بعدها .

— وهذا أمر طبيعى — وبالرغم من أنه كان يُوزَن به جميع منتجات العصور المتأخرة، وبالرغم من أن كل شيء قد تَصَوَّر أنه متفق معه، أو حُويلَ تصور ذلك — بالرغم من هذا كله فإنه لا يمكن أن نتناسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية . . .

« إننا لا نفهم الإسلام بلا قرآن . . . ولكن القرآن وحده بعيد عن أن يكفى لمواجهة العقلية الإسلامية النامية في سيرها الطبيعى . . »

« وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الإسلام فى كل العلاقات جاء إلى العالم طريقةً كاملة، بل على العكس، فإن الإسلام والقرآن لم يتما كل شيء، وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة ! » (١)

وهذا هو بيت القصيد من هذه المقولات . . الإسلام ليس إلا مجرد حركة إصلاحية أدت دورها فى بيئة خاصة، ولوقت محدود . . ثم ظلت هذه الحركة واقعة حيث هى مجمدة فى زمانها ومكانها . . على حين انطلق المسلمون يأخذون من الحياة وجودهم، وإن ظلت مشاعرهم تحمل لهذه الحركة ذكريات يطوف حولها المسلمون كما يطوف المرء بمقبرة ضمت على رفات إنسان عزيز عليه !

أفهذا هو التشريع الإسلامى، وتلك هى كل معطياته التى يمكن أن يعطيها للناس وللحياة ؟ ذلك هو ظن من لا يفهم رسالة الإسلام ؛ ولا يدرك مافى كتاب الشريعة من قُوَى حية متجددة، تزيدها الحياة والحركة قوة وإشراقاً . .

يقول جولد تسيهر استكمالاً لخطته التى اختطها .

« والقرآن نفسه لم يُعطِ من الأحكام إلا القليل، ولا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المنتظرة كلها مما جاء من الفتوح، فقد كان مقصوراً

على حالات العرب السّافجة ، ومعنّياً بها ، بحيث لا يكفي لهذا الوضع الجديد^(١) ،
وهذه تهمة ترددت كثيراً ، ولا تزال تتردد هنا وهناك ، على ألسنة الغربيين
والمستغربين .. وقد تعرض لدفعها والدفع عليها كثير من العلماء والفقهاء والدارسين ..
ولكن لم يخرج الأمر عن دائرة الجدل الخطّابي الذي لا ينتج إلا مزيداً من
الجدل والعدا !

وأستبجح لنفسى فى هذا الموقف أن أقول قولة أراها تقطع هذا الجدل ، وتُنهِى
ما بين المتجادلين من نزّال وطِمانٍ .. فنقول : هذا هو القرآن وحده ، فى دلالة
ألفاظه الصريحة ، وفى منطوق اللغة العربية ومفهومها ، غير مسند إلى تخريجات
الفقهاء ، وتأويلات العلماء .. فليُنظر فيه كل من عرف اللغة العربية ، وأدرك معطيات
أساليبها ، ثم ليعرض أى حكم من أحكامه ، وأية دعوة من دعواته على أعلى
مستوى بلغته الحياة اليوم ، فى أى مجال من مجالاتها ، فإن وجد فى هذا الحكم أو تلك
الدعوة عوجاً ، أو انحرافاً ، أو قصوراً ؛ فإن له أن يخرج عن الإسلام إن كان مسلماً ،
وأنا كفيل بحمل هذه المسؤولية عنه ديانةً ، يوم يقوم الناس بين يدى الواحد
القيّان ! .. شىء واحد فقط هو الذى اشترطه فى هذا الموقف ، وهو أن يُخلى الباطل
فى كتاب الله نظرَه من الهوى ، وأن يجعل نظرَه قائماً على المنهج العلمى ، الذى
تختبر به حقائق الأشياء ، اختباراً مسنداً إلى التأمل ، والفحص ، وتقليب وجوه
النظر فى كل اتجاه ، ووزن كل صغيرة وكبيرة تقع فى دائرة نظرَه !

أقول هذا القول فى قوة وإصرار ، وأنا أقدر أن بعض من لا يفهم الإسلام
فهماً سليماً واعياً — يشفق ، أو يفزع من هذه الدعوة ، ويرى فيها باباً يفتح
لمرضى القلوب والمقول مدخلاً إلى التحلل من الإسلام ، وقطع ما بينه وبينهم من
صِلات ..

وأقول لمؤلاء المشفقين ، أو الفزعين : لا عليكم ، فإن معدن الإسلام
معدن كريم ، وجوهه جوهر نفيس ، يزداد على النظر روعة وجمالاً ، وعلى العقاب
كرماً ونفاة . . فلتأخذ الأَبصار من كل جهة من جهاته ، ولتتناوله العقول في
كل وضع من أوضاعه . . ثم ليقبل عليه من يُقبل وليُعرض عنه من يعرض . .
فإنه : « لا إكراه في الدين .. قد تبين الرشد من الغي » .. وإنه لمن حق الإنسان
- كل - إنسان أن يستوثق لدينه ، وأن يتعامل مع مبادئه وأحكامه على هُدًى وبصيرة ،
وعلى استيقان واطمئنان . . وإنه بغير هذا لا يكون الدين ديناً ، ولا يكون
المتديون على دين : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » !

* * *

بقي بعد هذا أن ننبه إلى أن هذا العرض الذي سنعرض فيه بعض حقائق
الإسلام ، ليس فيه جديد من أى وجه من وجوهه ، بل هو حقائق مقررة من
أول يوم للإسلام ، وأن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة هما اللذان يعرضان هذه
الحقائق ، على ما عرفها المسلمون يوم التقوا بالإسلام ، وارتضوه ديناً .

وليس هذا العرض — كما قلنا — إلا تذكيراً بمبادئ الإسلام وبحقائقه ،
فإن كثيراً من المسلمين قد نَسَوْها ، وكثير من غير المسلمين قد فهموها على غير
وجهها !

وفي هذا العرض سيتمضح أن الرسالة الإسلامية رسالة خالدة ، وأن حقائقه
وتعاليمه التي حاش بها وفيها أعراب البادية ، وأبناء الصحراء ؛ هي التي تعتبر الآن
ثوباً فضفاضاً لما يمكن أن تعيش فيه أرقى الشعوب حضارة ومدنية ، وسمواً .. في
الحياة العقلية والروحية والنفسية جميعاً .

ونود أن ننبه أيضاً إلى أن حقائق الشريعة الإسلامية ليست مجرد نظريات
فلسفية ، أو قضايا منطقية ، تعيش لحساب العلم والمعرفة ، وإنما هي منهج تربية ،

وأسلوب تعليم وتوجيه ، ومادة غذاء للمقل والروح .. ومن هنا كان منظوراً إليها من خلال الإنسان ، محسوبة بحسابه ، مقدرة بتقدير ما فيه من خير وشر ، وقوة وضعف ، وهلو وإسفاف .. فهو - أعنى الإنسان - ليس مَلَكاً من عالم الخير والنور ، وليس شيطاناً من عالم الشر والظلام ، وإنما هو من طين هذه الأرض التي تُنبت الحلو والمر ، وتخرج النافع والضار ، وتلد الطيب والخبيث !

لهذا ، فإننا قبل أن نلتقى بما نريد عرضه من حقائق الإسلام ، سنقف وقفة مع الإنسان ونظرة الشريعة الإسلامية إليه .. فإن النظرة إلى الإنسان في أفرادهِ وجماعته لا بد أن تسبق عمل أى مُشرّع يشرّع لأية جماعة ، حتى يحىء القانون الذى يريد من عليه واقعاً بالفرض الذى يهدف إليه من وراء هذا التشريع .. وإنه بقدر ما تتعمق نظرة المشرع في أغوار النفس الإنسانية ، وبقدر ما تتعرف إلى أدواء الإنسان وعمله بقدر ما يكون لتشريعهِ من الأثر والنفع .

ولهذا أيضاً .. فإننا سننظر في نظرة الإسلام إلى الإنسان ، وفي تقييمه له بين المخلوقات ، لنرى مدى ما بين التشريع الإسلامى وبين قوى الإنسان ومَلَكاته النفسية والروحية من تجاوب وتساند !

البَابُ الثَّانِي

الإنسان نظرة الإسلام إليه

الإنسان كائن أسمى من حيوان

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة ، تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعها ، في هذا الكوكب الأرضي ، الذي جعله الله خليفته فيه ، حيث أن من مقتضيات الخلافة أن ينصوبَ إلى سلطانها كل كائن يقع في دائرة ملكها الذي تقوم عليه !

والقرآن يصرِّح بأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض ، وأنه إذ سواه ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بأن يسجدوا له ، احتفاءً به ، وتكريماً لمولده .. وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، ونُقَدِّسُ لَكَ ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا هلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض : وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى ، واستكبر وكان من الكافرين » (١) .

وفي هذا الامتحان الذي يُقَدَّم للملائكة في الملأ الأعلى ينكشف عجزهم ، حيث لا يعلمون شيئاً إلا ما يعلمهم الله إياه ، ثم يُدعى إليهم آدم ليعلمهم ما عجزوا عنه ، وليقوم فيهم هذا المقام الذي لم يمهده من قبل إلا من الله — وهذا الامتحان هو في الواقع تكريم فوق تكريم لآدم ، وإعلان عمليّ عن تلك القوى التي

أودعها الله سبحانه وتعالى فيه ، واختصَّ بها ، والتي تستأهل فعلاً أن يسجد له
الملائكة من أجلها سجود إجلال وإعظام ، بعد أن رأوا من هله ما رأوا !
هذه إحدى حقائق الإسلام عن الإنسان ، يعلمها الإسلام في وضوح لا يقبل
جدلاً ، ولا يحتمل خلافاً . !

فالإنسان في نظر الإسلام ، هو بحق سيد ما على هذه الأرض من كائنات ،
وأن إليه أمر سياستها وتدير شئونها .. وليس هو هذا المخلوق الذي حَقَّتْ عليه
الامنة ، ولبسته الخطيئة المتنفلة في أبناء آدم جيلاً بعد ، جيل والتي هي ميراث مقسوم
بينهم ، كل أخذ بقصيبه منه ! كما تقرر ذلك بمض الديانات التي تحكم على الإنسانية
هذا الحكم القاسي ، الذي يُدين الإنسان من غير جريمة اقترفها أو ذنب جنّاه ،
والذي يجعل مواليد الإنسانية كلها ؛ كائنات معطوبة مشوّهة ليس فيها إنسان
واحد ولد سليماً معافى من هذا الداء الخبيث .. فأين هذا من نظرة الإسلام إلى الإنسان ،
ووضعه بهذه المنزلة الرفيعة التي تجعل الملائكة في مقام الساجدين له ؟

وآين هذا مما يصف به القرآن الكريم الإنسان ، وكيف قام خلقه على أجل
مثال ، وأحسن تقويم .. حيث يقول الحق سبحانه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ »^(١) .. ويقول : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَىِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ »^(٢) . ويقول : « وَلَقَدْ
كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ
مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً »^(٣) .. أفيلتقى هذا الخلق في أحسن تقويم ، وهذه النسوبة
والاعتدال ، وهذا التكريم والتفضيل على كثير من المخلوقات — أيلتقى هذا مع
تلك اللعنة التي تلبس الإنسان لباس الروح للجسد ؟ والتي تقضى عليه — سلفاً —

(١) سورة التين : آية ٤

(٢) سورة الانقطار : الآيات ٦ — ٨

(٣) سورة الإسراء : الآية ٧٠

بالضياع والبوار ، فلا تستشرف نفسه بخير ، ولا تتطلع روحه إلى مشارف الخير
والسور ؟

بل أين من هذا تلك النظرات المريضة المشائمة ، التي تنظر بها الفلسفات الحديثة
إلى الإنسان ، والتي تراه أتعس المخلوقات وأشقاها ، وأنه حشرة حقيرة ، ودودة
قذرة ، يعيش في « مزيلة » الحياة . . أو أنه ليس إلا « قرداً » خلقه الله ليتلهم
به في أبديته الطويلة — كما يقول « نيتشه » ؟

إن هذه الفطرة المشائمة تقتل في كيان الإنسان كل أمل وطموح ، وتسد
في وجهه منافذ الرحمة والرجاء في الخلاص من أى سوء ينزل به . . بل إن عليه
— بحكم هذه الفلسفة — أن يتقبل لطأت الحياة ، وأن يطلب المزيد منها ، فإنه
ما خلق إلا ليَلْطَمَ ، ويمدَّب ، ويشقى ! وليس له من سبيل إلى الخلاص إلا اليأس
من الخلاص ! وليس له من وجه إلى الراحة إلا أن يفقد هذه الحياة ، ويلبس
ثوب العدم !

أما القرآن الكريم ، فإنه يتحدث إلى الإنسان حديثاً يملأ صدره بدفء
الأمَل وسَمَةِ الرِّجاء . . ويفتح عينيه على صفحات مشرقة للوجود ، تغريه بالوقوف
عند كل موجود ، والاتِّفات إليه ، والتجاوب معه ، والافتتان به : « وسخر
لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » (١) . . « وسخر لكم
الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر
دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا
نعمه الله لا تحصوها . . إن الإنسان لظَلوم كَفَّار » (٢) . .

حينما تلفت الإنسان فى هذا الوجود ، وجد كل ظاهر وخفى منه ؛ مسخرأ له ،
كما لم يخلق إلا من أجله ، ومن أجل تحقيق رغباته . . ومن هنا أحس الإنسان

(١) سورة الجاثية آية ١٣

(٢) سورة إبراهيم آية ٣٤

هذا الإحساس الذى أقام فى تفكيره أنه مركز هذا الكون ، وأن كل شئ فيه .
هو له . . هذا التفكير هو الذى كانت تقوم عليه الفلسفة القديمة ، تلك الفلسفة
التي كانت تأخذ مادتها من أحلام الإنسان ورؤاه ، قبل أن تأخذها من عقله المعربد
المشخن بجراحات الصراع بيومه وبين الوجود . .

نقول لأن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض !
ولقد أثبت الإنسان أنه أهل لهذه الخلافة ، وجدير بهذه الثقة التي أشهد الله
عليها ملائكته . .

فإن الإنسان منذ ظهر على هذه الأرض وهو يستخرج خبأها ، ويفتح
مغالقها ، ويتلأ يديه من كل خير فيها . .

لقد غير الإنسان وجه هذه الأرض ، وأخضع كل ما فيها لسلطانه ، فنسقها
هذا التنسيق البديع ، وعمرها بكل غريب وعجيب ، فأحال قفرها عامراً ، ووحشها
مأنوساً ، وظلامها نوراً . . فكل ما على الأرض اليوم من معالم الحضارة والمدنية
هو من صنع الإنسان ، ومن نتاج تفكيره ، وثمره يده ، لم يشاركه فيه كائن آخر ،
إلا على أن يكون مسخراً له ، خاضعاً لسلطانه .

لقد وضع الإنسان يده على هذه الأرض وهى عالم موحد فسيح ، ليس فيها
إلا الأدغال والأحراش ، ثم مازال معها فى صراع وكفاح حتى جعل منها اليوم هذا
العالم الزاخر بألوان الحياة ومفاتها .

ولو كان الإنسان مجرد حيوان لما فارق تلك المناطق التي تعيش فيها الحيوانات ،
ولرضى أن يتخذ له مكاناً بينها على أية صورة من الصور ، بل إنه لو كان مجرد
جسد حي لقتع بمطالب هذا الجسد ، من طعام وشراب وسكن وأباص ، ولما حاول
أن يحمل ذاته هذه المطالب ، وأن يكسوها ألواناً من الحسن والبهجة ليَرْضَى من نفسه
نوازع حب الجمال ، وتعشق الحسن ، من كل منظور وغير منظور .

إن المادية بمنطقها الجاف ، الذى بُنى منه العقل الحديث ، تفرض على الإنسان فرضاً أن يفصل عن هذه المشاعر ، وأن يتخلّى عن هذه الأحاسيس التى ترُود موارد الروح ، وتخلق فيما وراء الحسّ ، لتتملّى فى وجوه هذا العالم السحريّ ، ولترشف منه رَشَقَاتٍ ، يَنْدَى بها القلب ، وتفتتح مغالقه .

إن المادية الحديثة لتقف للإنسان بالمرصاد ، تذود مشاعره أن تطلب غذاءها فى هذا العالم ، الذى تترقق أواجه وراء المحسوس .. من تأملات هائلة ، ونظرات مشدوهة والهة إلى هذا الوجود ، الذى لا تمسكه حدود ولا قيود .. فإن مثل هذه التأملات وتلك النظرات — عند الماديين — ليست إلا أوهاماً وخيالات وقَبْضَ الرّيح ، لا يحصل المرء من ورائها شيئاً يجده فى يده ؛ وبين سمعه وبصره !

الإنسان فى هذا التقدير :

ولك أن تتصور الإنسان — أى إنسان — وهو يعيش هذه الحياة — فى مجال تلك النظرة المادية — منزوع المشاعر ، مسلوب الأحاسيس .. ! إنه يعيش فى سجن مظلم رهيب .. لا يبهى فيه بارقة أمل ، ولا لمعة رجاء .. إنه يعيش مغلقاً على نفسه ، فى لحظة عابرة ، منقطعة عن الماضى والحاضر جميعاً .. إنه إنسان لا تاريخ له .. فالماضى أحداث وذكريات بليّات وتمفّنت لا نستحق الوقوف عندها والالتفات إليها .. والمستقبل أمانى ، وأوهام وخيالات .. فن السفّه الاشتغال بها ، ووضع الأقدام على خَوَاطِئها .

ولو كان الإنسان حيواناً من تلك الحيوانات الدنيا .. كدودة مثلاً — لاحتمل هذا الوضع الذى يريده له أولئك الماديون . ولكنه عالم صغير ، يقابل هذا العالم الكبير ويُنَظَرُه . فيه صفو هذا الوجود وكَدَرِه ؛ وسكونه واضطرابه ، وعلوّه وانحداره ، وسمائه وأرضه ، ونوره وظلامه .. فهيهات أن يقبل طائناً مختاراً هذا الوضع الذليل المهين ، أو يسكن إليه ويقنع به !

إن هذه الفلسفة المتشائمة السوداء، التي تجلّ الحياة بهذا الظلام الكثيف في هذا العصر، إنما هي في الواقع وليدة هذه المآسى التي ولّدتها الحرب العالمية الأولى، ثم نمتها وضاعفتها وزادت شفاعاً وفضاعة الحرب العالمية الثانية، وما خلّقت وراءها من ويلات وفواجع، وما تركت في أعماق النفس الإنسانية من ندوب وجروح لا تلتئم .

هذه الفلسفة المتشائمة السوداء قد جعلت الناس اليوم فريقين : فريقاً أخذ الحياة بواقعها، وتلقّاها بمقله التجريدي ، دون أن يلتقي عليها نفخة من روحه.. فإذا الحياة عنده ليل دامس ، لا تهرق فيه بارقة خير أو رجاء . . وقادة هذا الفريق هم العقليون العمليون، الذي يحيلون كل شيء إلى أرقام وعمليات حسابية.. وفريقاً آخر تجاوز هذه الحياة الواقعة ، وأبى أن ينزل على حكمها فلقبها عابثاً هازئاً . . وعلى رأس هذا الفريق الإباحيون وأصحاب الدعوات التحلّلية التي تخلي الإنسان من كل قيد خلقي ، أو ديني ، أو اجتماعي . .

ومن هنا كان هذا التناقض الواضح في سلوك الناس . . حيث تقوم الحياة المتزمتة المتشائمة ، إلى جانب الحياة المتحللة . . المازلة . . وحيث يقوم اليأس المطبق الخائقي ، إلى جوار الاستهتار المسترعى المسعور !

الدين والعداوات المضمرة له :

ولاشك أن هذه النظرة إلى الحياة في صورتها : المتزمتة المتشائمة ، والمتحللة المازلة — هذه النظرة لا تحفل بالدين ، ولا تقف عند مقرراته، بل إنها تلقاه بالعداوة ، وترميه بالشنآن والبغضة ، إذ تعدّه « مخدراً » تتبدّل به مشاعر البلهائه ، وتخدم به أحاسيس الدّهماء ! وهو لا يعدو أن يكون من حيّل القادة والزعماء ، وذوى الأطماع والأهواء، يُنميون به اليأس منهم ، حيث يقيمون لهم فيما وراء هذه الحياة عالمًا مليئًا بالوعد والخلابة والأمانى العذاب . . عالمًا مفعًا بموائد الطعام والشراب ، وألوان

المتع والذذات ، ليجدوا في هذا عزاء لما فاتهم من هذه الحياة ، بل وليخلع كثير منهم عما في يده من حطام هذه الدنيا ، ليسعى حثيثاً خفيفاً إلى تلك المائدة المعدة له في الملا الأعلى . . . من أجل هذا كان الدين هو العدو الأول لأصحاب المذهب المادى بأطرافه كلها ، لأنه — كما قلنا — يعارض الحياة العملية ، التي يحيون فيها على أى وجه يتقاربون فيه ، وعلى أية فلسفة يقيمون عليها نظرتهم إلى الحياة . . . ذلك أن الدين — أى دين — يحمل في صميم تعاليمه إيماناً بأمور غيبية وراء الحس ، كما يحمل وعوداً وآمالاً . . . تتحقق فيما بعد الحياة الدنيا !

الإسلام والعقل الإنسانى :

العقل العلمى المعمل الذى ولد لهذا العصر ، والذى مكن للغرب من هذه الانتصارات التى تكاد تكون معجزات قاهرة ، يقف أمامها العقل نفسه مبهوراً مذهولاً — هذا العقل نريد أن نضعه فى الميزان إزاء العقل الذى نشأ الإسلام وربّاه ، لنرى أى العقلين أقرب إلى الكمال ، وأكثر حيوية ونشاطاً ، وأصنى مورداً ، وأطيب ثمرة !

ربما كان من العسير أن نضع عقلاً إسلامياً فى عصور الإسلام الزاهرة إزاء عقل غربى فى العصر الحاضر أو عصر النهضة ، أو العصر اليونانى ، أو الرومانى ، فنشل هذا العمل لا يمكن أن تضبط فيه الحدود والملاح ولا أن تحدد فيه العناصر والوجوه التى توضع فى كفتى الميزان ، هنا وهناك . . . ذلك لاختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأحوال ، ومنازع الحياة .

ولعل خير ما يمكن أن نصنعه هنا ، هو أن ننظر فى المنهج الذى يربى عليه كل من العقل الإسلامى ، والعقل الغربى المعاصر ؛ إذ كانت هذه التربية هى « البوتقة » التى يصنع فيها العقل ، الذى تتحدد به مجالات النشاط الإنسانى ، وتنشكّل صورته وألوانه .

المنهج الذى رُبِّى عليه العقل الغربى الحديث قام على دعامتين : —

أولاهما : الحرية المطلقة ، فى تناول موجودات الوجود كلها ، والنظر فيها ، دون أن يكون هناك حاجز بينه وبين أى موجود .. ظاهر أو خفى ، سماوى أو أرضى .

وثانيتهما : وضع هذه الموجودات فى « بوتقة » التجربة الحسية ، وتفتيتها ، وتشريحها ، وتقليبها على جميع الوجوه الممكنة لها .

ولقد كان من هذا أن وقف هذا العقل من الوجود موقفاً حيادياً ، أشبه بموقف القاضى حين ينظر فى عناصر قضية من القضايا ، يجرّد لها عقله من كل عاطفة أو شعور ، حتى لتتمثل أمامه عناصر القضية ، وكأنها أرقام فى عملية حسابية .

إنه ليس بين هذا العقل العلمى المعملى وبين الموجودات التى أدخلها فى معمله ، وأعمل فيها مشرطه وصبّت عليها أحماضه — شئ من التعاطف الذى تخلقه الأحاسيس والمشاعر .. إنه ينظر إلى الوجود وموجوداته نظرة باردة فاترة ، ليس فيها شئ من هذا التوهج الانفعالى ، الذى يوّاد العواطف ، وينمى المشاعر ، التى يتعامل بها الإنسان مع آيات الجمال ، وروائع الحسن المنبثة فى هذا الوجود .

أما المنهج الذى رُبِّى عليه العقل الإسلامى فإنه إذ يقوم على هاتين الدعامتين التى قام عليها العقل العلمى الحديث . فإنه يستصحب معه هذه المشاعر والأحاسيس ؛ التى تجعل رابطة التعاطف بينه وبين الموجودات قائمة لا تنقسم أبداً ، بل إنه كلما لُزّاد العقل اتصالاً بالأشياء ، كلما زاد تعاطفه معها ، وإحساسه بها !

وهذه دعوى تحتاج إلى دليل فى جانب العقل الإسلامى .. إذ كان ما للعقل الغربى واقفاً ملموساً ، لا يحتاج إلى دليل !

والأدلة التى تقدمها لدعوى العقل الإسلامى هذه ، إنما تقدمها من أوثق وثيقة ،

ومن أصدق كتاب ، لا يذاع أحد في صدقه ، وسلامته من التحريف والتبديل ، من يوم أن ظهر إلى هذا اليوم . . ونعني بهذا القرآن الكريم . . دستور الشريعة الإسلامية وكتابتها .

لقد دعا القرآن العقل دعوة قوية حارة ، إلى أعمال قوته وسلطانه في هذا الوجود . . فكل شيء في هذا الكون — من ظاهر وخفي — هو في ولاء وخضوع للعقل ، إذا عرف العقل كيف يروضه ويقوده . . وليس هناك شيء محظور على العقل أن يدعو إليه ، وأن يسطر عليه ساطانه ، من كل ما في هذا الكون لثريب ، في أرضه وسماؤه . .

فالكون كله كتاب مفتوح للعقل ، يقلب صفحاته ، ويقرأ ما يشاء من سطوره وكتابه . . في جهر أو سر ، وفي وحدة أو اجتماع .

وفي هذا يقول الله سبحانه : « قل انظروا : ماذا في السموات والأرض (١) » . ويقول : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه (٢) » . .

ولا يقف القرآن عند هذه الدعوة الآمرة : « انظروا » ، ولا عند حدود هذه النظرة التي تشمل الوجود وما فيه : « ما في السموات وما في الأرض » ، بل إنه يعرض دعوته هذه في صورة مغرية ، تفتتح لها أشواق القلب ، وتستجيش لها مشاعر الافتتان والإعجاب فيه . . استمع إلى قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج . . والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماءً مباركاً ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والفصل باسقات لها طلع نضيد . . رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتة كذلك الخروج (٣) » وإلى قوله

(٢) سورة الجاثية: آية ١٣

(١) سورة يونس: ١٠١

(٣) سورة ق: الآيات ٦ — ١١ .

سبحانه : « ألم تر أن الله يُزجي سحاباً ، ثم يُؤلّف بينه .. ثم يجعله رُكاماً .. فتَرى الودقَ يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سناً برّقه يذهب بالأبصار .. يَقَابُ الله الليلَ والنهار .. إن في ذلك لَمِبرةً لأولى الأبصار^(١) » وإلى قوله : « وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ .. وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّامَانَ مَتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »^(٢) .. وإلى قوله سبحانه : « وفي الأرض قطعٌ متجاورات وجناتٌ من أعناب ، وزرع ونخل ، صِنوانٌ وغير صِنوان يسقى بماء واحد ، ونفَضَلُ بعضها على بعض في الأكل^(٣) » .

وفي القرآن الكريم مئات من هذه الآيات ، التي تفتح القلب والعقل معاً ، على الوجود وما فيه من روائع الخدن والجمال ، إلى جانب ما فيه من نعم وخيرات .. فالإنسان — في دعوة القرآن — إذ ينظر إلى هذا الوجود فإنما ينظر إليه بوجوده كله .. بعقله وقلبه ، وسمعه ، وبصره ، وحواسه جميعاً .. وهذه هي النظرة العطية حقاً .. النظرة التي تأخذ من الموجودات أكبر قدر يمكن أن يُنال منها .

هذه النظرة التي يدعو إليها القرآن ، هي نظرة إنسانية .. لا تحرم أحداً حقه في هذا الوجود ..

فكل إنسان — أي إنسان — آخذ بحظٍّ مقدور من هذا الوجود ، إن لم يسمفه عقله ، أسمعته حواسه وما تحمّل إلى قلبه من نبضات وخفقات ! فالطبيعة وما تحمّل من ظاهرات ، ليست وفقاً على العلماء ، أو الفلاسفة أو الشعراء ، وإنما هي معرض مفتوح للناس كلّهم .. يدخله الناس جميعاً ، ثم يخرجون منه بما قدّروا على ..

(٢) سورة الأنعام : ١٤١

(١) سورة النور : آية ٤٣ ، ٤٤

(٣) سورة الرعد : آية ٤

حمله منه، كلُّ حسب ما عنده من استعدادٍ نفسى، وروحى، وعقلى، وجسدى أيضا !
ومن هنا، كان الناس - فى مفهوم الدعوة الإسلامية - على حظوظهم من هذا
الوجود . ليس هناك غاية يقف عندها النظر فى هذا الـكون الرحيب . فبينما ينفى بعض
الناس على ساحل هذا البحر المحيط، يَنسِمون من نسائته ، ويملأون العين بحاله وجلاله ..
إذ يفوس بعضهم الآخر فى أعماقه، ويملأ اليدين من جواهره، أو أصدافه، أو طينه !!
والإسلام فى دعوته التى يدعو بها العقل إلى النظر فى الوجود لا يضع على
هذا النظر قيوداً ، ولا يرسم له حدوداً ، بل هو نظر مطلق من كل قيد ، مُرْسَلٌ
من كل حدٍّ .. فله أن يصحب هذا الوجود فى جميع المستويات .. بعقله ، أو قلبه ،
أو حواسه، أو بهذه القوى كلها، مجتمعة ومتفرقة ، فى حال ، أو فى جميع الأحوال .
فتلا قوله تعالى .. « ألم تر أن الله يُزجى سحاباً ثم يؤثف بيته ثم يجعله
رُكاً ، فترى الودقَ يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من بردٍ ،
فيصيب به من يشاء ، ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ..
يقبب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار .. والله خلق كل دابةً
من ماء ، ففهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى
على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير » (١)

فى هذه الآيات معارض متعددة لظواهر الطبيعة .. الرياح ، والسحاب ، والمطر
والبرد ، والبرق ، والرعد ، ثم حركات الليل والنهار وتعاقبهما على مدى الأزمان ..
ثم هذه المخلوقات الحية التى تدب على الأرض ، وصورها وأنواعها ، وفصائلها ..
هذه الظواهر، هى فى واقعها الظاهر؛ على مستوى النظر العام للناس جميعاً ..
العالم ، والجاهل ، والشاعر ، والفيلسوف .. والصغير والكبير ، والبدوى والحضرى ..
والناس فيها نظردائم متجدد، يعود بعد كل ناظر بمعطيات مختلفة، ومفاهيم متعددة .. ثم إنه

ليس على الناس حرج بعد هذا النظر الجمل في أن يفوصوا إلى أعماق هذه الظواهر، وأن يقابروها على وجوهها، وأن يبحثوا في الرياح وأسبابها، والماء وعناصره، والبرق وكيف يحدث، والرعد وكيف يقع، والأفلاك في مداراتها، والنجوم والأقمار وطبيعة الحياة فيها وصلاتها بالأرض .. والحياة وكيف نشأت على هذه الأرض، وكيف تأصلت هذه الأنواع وتعددت .. إلى غير ذلك مما بلغه العلم وما لم يبلغه .. فإن كل ما تنسج له دائرة العلم .. في الفلك، والطبيعة، والكيمياء، وعلوم الحياة، وأصل الأنواع .. كل هذا وغيره يتدرج في مجال النظر إلى ما تعرضه الآية الكريمة، من معالم الوجود، وما بظهره وبضمرة كل موجود.

ومثل هذا يقال في كل آية من آيات الكتاب الكريم، التي تُلقت إلى ظاهرة من ظواهر الحياة .. فيقال مثلاً إن النظر في مجال الطب وفي علم الأجنة بأزسع دائرة النظر، تتضمنه الآية الكريمة: « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين »^(١) أو الآية الكريمة: « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق .. في ظلمات ثلاث »^(٢) .. وهكذا.

ونود أن ننبه هنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين دعوة القرآن العقل إلى النظر المطلق، المتحرر من كل تلقيات سابقة، ومقررات مُعدّة — وبين أن تحمل هذه الدعوة في طياتها نظريات علمية، وحقائق كونية .. فالقرآن ليس كتاب علم، لأن ذلك ينقض الدعوة التي يدعو إليها، وهي إيقاظ العقل، وحمله على أن يرتاد بنفسه وانفسه مجالات المعرفة، وأن يجنى ثمارها، وبطعم ما يروقه منها، وبهذا

(١) سورة المؤمنون: آيتا ١٣، ١٤

(٢) سورة الزمر: آية ٦

يكسب العقل قوة ، ومِرَاناً ، وتقدماً مع الحياة ، حالا بعد حال ، وجيلاً بعد جيل . !

ولو كان من تدبير الدعوة الإسلامية حلٌ مقررات علمية إلى الناس لجاءت تلك المقررات في صورتها السكاملة ، التي ليس وراءها نظر انظر ، ولا بحث لباحث . . وفي هذا ما فيه من مصادرة للعقل ، ومصادمة لطبيعته ، وقضاء على شخصيته ، وتمطيل لوظيفته ، بهذه التغذية الصناعية ، التي تحرمه ذلك الجهد الذي تتفجر منه طاقاته ، كما تتفجر طاقات الحبة حين يُلقى بها في باطن الأرض ، فتتجمع عند ذاك كل القوى السكاملة فيها لتنفلق من عقالها ، ولتحرر من سجنها ، وهنا تتصدع الجدر المطبقة عليها ، ويتدسس إليها الضوء في خفوت ، فإذا الحبة قد هاجها فجراً ، وفارقاثرها ، وإذا السنّة رقيقة حداد تنفلق منها لتذوق هذا النور . . وعندها تثبت أقدامها في الأرض ، وتطاول أعناقها لتصافح للنور في سماواته . . وإذا بهذه الحبة الصغيرة الميته دوحة منداحة ، أو نخلة باسقة !

هكذا العقل في غفوته وركوده . . ثم في صحوه ويقظته . . إنه يظل راكداً هامداً مادام بعيداً عن المجالات التي تهيجُه وتُثيرُه . . فإذا دخل في مناطق الهياج ، والإثارة ، والقلق ، حين يقف في مواجهة ما في الوجود من عجائب وغرائب — تحسس طريقه إلى الاستقرار ، والسكون والاطمئنان ، وعندها تفتح له أبواب المعرفة ، التي تُسلمه من باب إلى باب ، وتدفع به من حال إلى حال . . فلا يجد سبيلاً للعودة إلى مناطق الركود والهمود أبداً . . !

إن هذه اللاماتاة التي يواجهها العقل في بحثه عن حقائق الأشياء هي التي تُبرز ملكاته ، وتنبئ لها أجنحة وريشاً ، يستطيع أن يحلق بها في آفاق عالية ، ويرتاد بها مجالات جديدة كل يوم .

وعلى هذا التقدير ، وبهذا الحساب يتعامل الإسلام مع العقل الإنسانى ..
فـ :

أولاً : يرفع للعقل معالم الحياة ، وظواهر الوجود لينظر فيها ، ويكشف عن مواطن الجمال والجلال منها ، ويطلع على ما تحمل فى كيانها من نظام ، ودقة وإحكام .. ثم إن لهذا العقل أن يذهب بهذه الظواهر إلى أبعد من هذا ، فيعرف القوانين التى تخضع لها ، والنظام الذى يمسك بها : « الذى خلق سبع سموات طباقاً .. ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر ، هل ترى من فطور .. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً ، وهو خاسير »^(١) .

ثانياً : يكشف الإسلام للعقل عن الآثار السيئة التى تنجم عن التهاون والكسل ، والغفلة ، عن ملاحظة ما فى الوجود من ظواهر وحركات .. فإذا نام العقل ولم يستجب لدعوة الحياة له ، ضعف ، وضمّر ، وركبه الجهل ، والحق ، ولفه الظلام ، وكان ممن وضعهم القرآن بهذا الموضع المهين بين الناس فى قوله تعالى : « وكأين من آية فى السموات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ، وهم عنها معرضون »^(٢) . « أَلَمْ يَجْعَلْ أَرْجُلُكُمْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ ، أَمْ لَمْ أُعَيْنِ يُبْصِرُونَ بِهَا ، أَمْ لَمْ آذَنْ يَسْمَعُونَ بِهَا »^(٣) .. وقوله سبحانه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ! وقوله : « مثل الفريقين : كالأعمى والأصم ، والسميع والبصير .. هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون »

ثالثاً : فى الوقت الذى يدعو فيه الإسلام العقل إلى البحث والنظر والانطلاق إلى أبعد غايات استطاعتها ؛ فإنه يحمى هذا العقل من الشرود والجموح ، ويحفظه

(١) - سورة الملك : ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) - سورة يوسف آية ١٠٥

(٣) - سورة الأعراف آية ١٩٥

من الغرور والبطر .. ذلك أنه مهما جَدَّ العقل وجهِد ، ومهما تَمَرَّ وحَصَلَ فإنَّه لا يزال على ساحل هذا البحر الخِصَمِّ ، الذي لا حدود له من العلم والمعرفة : « وما أوتيتُم من العلم إلا قليلاً » ^(١) . . ثم إنه ليس في الناس من يأخذ العلم المتاح لهم من جميع أطرافه ، فهو حظ مشاع بينهم جميعاً . . فأكثر الناس علماً وأوسعهم ثقافة ليس له أن يتعالى على الناس ، أو يتناول على غيره . . إذ رُبَّ جاهل في نظره أو نظر الناس ، هو أكثر منه علماً في باب من أبواب العلم . . « وفوق كل ذي علم عليم » ^(٢) وفي الأثر : « رُبَّ حامل علم إلى من هو أعلم منه » !

حجة داحضة :

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن الدعوى التي يدعيها الماديون ، أو العقليون على الدين من أنه « أفيون الشعوب » وأنه مادة تخدير للعقل ، وتنويم للمساكات الإدراكية والتفكيرية الكامنة فيه ، — هذه الدعوى كذب وافتراء على الدين — أعنى الدين الإسلامى بالذات ، الذى عرفنا موقفه من العقل ، وما حمل إليه من دعوة قوية حكيمة إلى التدبّر ، والتأمّل ، والنظر ، والبحث ، إلى أبعد ما تدعو إليه أكثر الدعوات المادية التى تهتف بالعقل ، وتميش معه ، وتعزّبه هذا الاعتزاز الذى يدفع إلى الغرور ، ويسوق إلى التهلكة ، إذ لا يقوم وراء هذا العقل ما يمسك به فى مواقف الزلل ، أو يلزمه جادة الطريق إن هو شرد ، أو ضلّ !

الحقائق الدينية ، وكيف يعرضها الإسلام :

ومن احترام الإسلام للعقل وتقديره له ، واعترافه بالدور الكبير الذى له فى مجال الدعوة الإسلامية ، وما تحمل من تعاليم وأحكام — أنه لم يعرض حقيقة من

(١) سورة الإسراء : آية ١٨٥

(٢) سورة يوسف : آية ٧٦

حقائقه ، ولم يلقَ للناس بدعوة من دعوات شريعته قبل أن يوقظ لها العقل الإنسانى من رقدته ، وقبل أن يطمئن إلى استكمال هذه اليقظة ، ويستوثق من ذهاب ماران عليه من غاشية هذا النوم الطويل ، فى خدر ثقيل من الجهالات والضلالات ، حتى يتلقى الحقائق الدينية فى يقظة كاملة ، وإدراك سليم .

ولهذا كانت المرحلة الأولى من مراحل الدعوة الإسلامية موجهة توجيهها مباشراً إلى العقل الإنسانى ، توقظه من سباته العميق ، وتكشف عنه ما خيم عليه من ضلالات ، وحماقات ، وسفاهات ، وتضع بين يديه معالم الهدى ليسلكها وليعرف مواقع الخير والشر ، وليميز الخبيث من الطيب . . وبهذا يصبح أهلاً لأن يحمل التكليف الشرعية ، ويحاسب على ما قصر أو فرط فى جنبها .

ولهذا أيضاً — كان القرآن المسكى كله تقريباً قائماً على هذه الغاية عاملاً لها . فكانت الظواهر الطيِّمية ، والآيات السكونية ، هى أكثر ما حمل القرآن فى هذه الفترة . وكانت الحجج المنطقية ، وموافف الإقناع ، والإفحام هى الأسلوب الذى لقي به القرآن المخاطبين فى هذه المرحلة من الدعوة ، التى كانت كلها لحساب العقل ، ولتصحيح مقامه فى كيان الإنسان ؛ وإعداد له لأداء وظيفته فى لقاء الدعوة السماوية الموجهة إليه .

إن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (١) . .

وانها لدعوة قوية هاتفة إلى إعلان الحرب على الأمية وعلى الجهل معاً . . تلك الأمية التى طمست على عقول الناس وقلوبهم ، وعاشت فى حياتهم عيش أمن واستقرار . . وهذا الجهل الذى ساقهم إلى مآهات الهلاك والدمار ، فأفنوا أنفسهم

في حروب طاحنة متصلة ، كادت تذهب بهم ، لولا أن تداركهم الإسلام برحمة الله :
« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخواناً ، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها » (١) .

وإنه لعبرة لمن يعتبر؛ أن تكون أول دعوة يتلقاها النبي من السماء ، هي هذا
الأمر الكريم : « اقرأ » .. وقد عجب النبي لهذه الدعوة الصاعدة إلى من لم يكن
يعرف القراءة ، وكان جوابه : « ما أنا بقارىء .. ! » .. ويتكرر الأمر
والجواب .. حتى تكون الثالثة : فيؤمر : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق
الإنسان من علق .. » الآيات .

إنها إذن ليست دعوة إلى قراءة مجردة — بل هي قراءة فاحصة دارسة متأملة
في هذا السكون .. « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ
وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .. إنها قراءة في صحف هذا
الوجود كلها ، وهي قراءة يَقْطِى ، واعية ، تنظر بعين العقل الحر ، المتحرر من
التقاليد ، والعادات .

ثم كانت الدعوة التالية ، وهي عرض صحف الوجود ، ودعوة الإنسان إلى
تقليب هذه الصحف صفحة صفحة ، والنظر فيها سطوراً سطوراً ، وكلمة كلمة ، وحرفاً
حرفاً .. !

وهل تعرف الحياة دعوة إلى العلم كدعوة الإسلام هذه ، ، شمولها ، واتساع
آفاقها ، واعتدال منهجها ، واستقامة طريقها ؟ إن كل ذى نسكة من عقل مدعو
إلى رحاب هذا الكون الفسيح ، ليقطف ماشاء من ثمرات العلم والمعرفة ، غير
منساق إليه بهوى ، أو نايل غيه بعين غيره ، أو متابع فيه ذى رياسة دينية ،
أو سلطة مدنية .. بل إنه هو وحده القائد والمقود .. إن شاء تقدم أو تأخر ،

وإن أراد مضي أو توقف . . ليس عليه مَن يحاسبه ، إن أصاب أو أخطأ : « إن هو إلا ذكرٌ للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم ^(١) » .

استمع إلى بعض ماقى القرآن الكريم من دعوات قوية متتابعة إلى مواطن العلم والمعرفة :

إنها ليست مجرد دعوة إلى نظر هائم حالم في هذه الظواهر الطبيعية ، التي يعرضها القرآن ، وما تحمل في كيانها من أسرار . بل هي دعوة إلى نظر متفحص ، دارس مستلهم ، يستكشف الأسرار ، ويستهدي إليها ، ليقم منها شواهد تشهد للخالق المبدع المصور . . « الذى أحسنَ كلَّ شئ خلقه ^(٢) » . . ولهذا لم يكن من عمل الرسول أن يأخذ الناس إلى دعوته بالإكراه والسيطرة ، فها هو إلا حامل دعوة يبلغها ، ويرفع بين يديها معالم الذكرة والبصرة . . « إنما أنت مذكرٌ . . لست عليهم بمسيطر ^(٣) » .

انظر إلى قوله سبحانه : « ألم يَرَوْا أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ، فنخرجُ به زُرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ ، وَأَنْفُسُهُمْ . أَفَلَا يَبْصُرُونَ ^(٤) » .

وإلى قوله : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَسُوا كَلْمَهُ ، وجعلنا فيها جناتٍ من نخيل وأعناب ، ونَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ، وما عملته أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ، سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ^(٥) » .

« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَاخٌ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، والقمرَ قد رنَاهُ منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليلُ سابقُ النهار ، وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

(٢) سورة السجدة : آية ٧

(١) سورة التكوين : آيتا ٢٧ ، ٢٨

(٤) سورة السجدة : آية ٧٢

(٣) سورة الفاشية : ٢٠ ، ٢١

(٥) سورة يس ٣٣ - ٣٦

مثل هذه الآيات الكونية التي يدعو القرآن العقل إلى لقائها والنظر فيها، هي المدخل الذي ينفذ منه العقل إلى مطالع الدور، التي يرى على سناها وفي ضوئها، الحق الذي يملأ القلب إيماناً وطمأنينة إلى هذا النظام الممسك بكل ذرة من ذرات الوجود، وبهذا الإيمان المطمئن يتعرف إلى الخلاق العظيم، ويؤمن به إيماناً قائماً على بصيرة وهدى ..

وفي هذا يقول سبحانه لنبيه: « قل هذه سبيلي، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ.. أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (١) » .. وليس أصرح من هذا في بيان الأسلوب الذي قامت عليه الدعوة الإسلامية، وأنه أسلوب الحجة البالغة، والبرهان الواضح، بما يتكشف للبصيرة النافذة من النظر في آيات الله، واستشفاف روائع الخلق والإبداع فيها.

ولقد امتدح الله سبحانه أصحاب هذا النظر الباحث المتدبر، وجعلهم فيمن رضى عنهم وأرضاهم، فقال تعالى: « والذين إذا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٢) » ..

هذه حقيقة مقررة مؤكدة، في صميم الدعوة الإسلامية، إذ كانت مادة أساسية من مواد الدستور، الذي حل مقررات هذه الدعوة، بل كانت في مقدمة موادها، يعانها القرآن في كل مرحلة من مراحل دعوته، وفي كل موقف من مواقفها.. ولقد بلغ تدبير الحكيم العليم في هذا؛ أنه لم يدع الرسول الكريم عند مفهوم هذه الآيات التي تلزمه بأن يحمل أسلوب الدعوة قائماً على الحجة والإقناع، بل وجه إليه هذا المفهوم في منطوق واضح صريح، حتى لا يدخل على نفسه شيء من الترخّص في هذا الأمر الملزم، الذي أصبح لازماً لزوماً لا انفكاك معه، بعد أن نزلت مثل هذه الآيات: « إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٣) » .. « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

(١) سورة يوسف: آية ١٠٨ (٢) سورة الفرقان: آية ٧٢

(٣) سورة الفاشية: آيتا ٢٠، ٢١

وعليها الحساب^(١) .. « ما على الرسول الا البلاغ^(٢) » .. « لا إكراه في الدين قد تبين للشدة من النسي^(٣) » .. « أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين؟ »^(٤)

وبهذا الأسلوب الذي عرض به الإسلام حقائقه وقضاياها أمام العقل الإنساني أقام أقوى دِعامَة من دعامات الحماية للمعتقد الديني ، من أن يَحْدُثَ فيه تصدع أو انهيار ، تحت ظروف الحياة ، أو بفعل مؤثرات الدعوات الباطلة ، والمفتريات المضلّة ، التي يرمى بها المفكرون والمضالون في ساحة الدين ، وبين يدي المتدينين .

ومن جهة أخرى ، فإن الاطمئنان الذي ينبني أن يحده المتدين في محبته لدينه ، لا يقوم إلا إذا دخل إلى القلب عن طريق العقل ، الذي نظر بنفسه وجه الحق ، وعرف طريقه إليه ، مستهدياً بالأدلة الواضحة : والحجج المشرقة .. وإلا كان هذا المعتقد عرضة للاهتزاز ، أو التصدع والانهيار ، عند أول عاصفة تهب عليه من أية جهة .

يقول الفيلسوف المسلم محمد إقبال ، في تقييم العقل ومكانته في تثبيت المعتقد الديني :

« لا نستطيع أن ننكر أن الإيمان أمر أكثر من مجرد الشعور .. فهو في حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة .

« الدِّين من حيث هو عقيدة : نظام أو مجموعة من الحقائق العامة ، لها تأثير في تكييف الخلق ، إذا صدّق الاعتقاد بها ، وفهمّت فهماً واضحاً قوياً .
ثم يقول :

« وإذا كانت غاية الدين وهدفه الأسمى تكييف الإنسان وهدايته في تدبير نفسه ، وفي صلّاته بغيره ، فقد أصبح من الجليّ أن الحقائق التي يشتمل عليها الدين

(٢) سورة المائدة: ٩٩
(٤) سورة يونس : ٩٩

(١) سورة الرعد آية : ٤٠
(٣) سورة البقرة : ٢٥٥

ينبغي ألا تبقى غير مقررة .. فما من أحد من الناس يقامر بالإقدام على عمل ما ، على أساس مبدأ خاقي مشكوك فيه !

« في الحق أن الدين — نظراً لوظيفته — أشد حاجة حتى من المبادئ العلمية المسلمة ، إلى أساس عقلي لمبادئه الأساسية .

« إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثته الملك ، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين — من مصادر المعرفة الإنسانية — كل ذلك صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة !

« وعلى هذا ، ففكرة انتهاء النبوة ينبغي ألا يفهم أنها تفترض مصير الحياة في النهاية هو إحلال العقل محل الشعور إحلالاً كاملاً ، فثل هذا لا يكون ممكناً ، ولا مرغوباً فيه »^(١)

وكلمات إقبال هذه تنفذ إلى الصميم من نظرة الإسلام إلى الإنسان وإلى الصلة التي ينبغي أن تقوم بينه وبين حقائق الدين ، تلك الصلة التي تجمع بين العقل المتحرر ، والقلب اليقظ .. بين الفكر والشعور .. إذ أن حقائق الدين لا تقع موقع القبول والاطمئنان إلا إذا واجهت العقل ، وتفاعلت معه ، وإلا إذا كانت بحيث تعطى كل عقل يلقاها ، حجةً واضحة ، وبرهاناً مبيناً .. وبغير هذا لا ينزل بها الإنسان إلى ميدان الحياة ، ولا يصحبها في وجوده الخارجي ، بل تظل مشاعر غامضة ، وخواطر مضطربة : كأنها أحلام ، أو أضغاث أحلام .

الإنسان في مواجهة الدعوة الإسلامية :

وواضح مما تقدم أن الدعوة الإسلامية لا تواجه الإنسان بأحكامها ومقرراتها إلا إذا كان مستصحباً معه وجوده كله : الذهني ، الوجداني ، والحسي .. إنها

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص ١١٤ وما بعدها .

دعوة لا تستولى على الإنسان بسلطان الإرهاب والتخويف ، أو تأخذه على غِرّة ، في غَفْوَةٍ أو نومة . . ، وإنما تريد أن يحيى هو إلى الدين منقاداً له ، لا نذراً بجماه ، مستظلاً بظله ، بعد أن يكشف بنفسه ، ويستدل بعقله ، على الخير الذي يحصله ، والنفع الذي يحققه ، إذا هو أَوَى إلى الدين ، ودخل في حماه . . ولهذا لم يكن في الدعوة الإسلامية شئٌ أبداً من تلك المعجزات المادية المذهلة ، التي يفرّ العقل من بين يديها مذعوراً مقهوراً . . كما أنه لم يكن في مقررات هذه الدعوة أسرار ربانية ، وخفايا علوية ، لا يعرف وجهها إلا الحواريون والسدنة الذين يُلَقَّون في رُوع الناس ما يُلَقَّون ، من حق أو باطل ، دون أن يكون للإنسان قول أو مراجعة . . بل إن كل حقائق الإسلام في معرض الرأي والنظر لسكل متدين بهذا الدين . . ليس لأحد اختصاص بمزيد من العلم إلا بمقدار ما يبذل من جهد ، في التحصيل والدرس .

وإذن فالذين استجابوا للإسلام ، أو الذين يستجيبون له ، هم أحد رجلين : رجل نظر بعقله ، واستهدى ببصيرته ، فوجد شريعة يزداد بها عقله علماً ومعرفة ، وتزداد بها بصيرته هدى ونوراً . . فصحب هذا الدين حبة إلف ومودة . . ورجل أخذ الدين ميراثاً عن الآباء والأجداد . . وهؤلاء وهؤلاء جميعاً قد صحبوا الإسلام ، وعاشوا فيه ، فسعدوا به ، وجنّوا من ثمراته أطيب الثمر وأوفره . . ثم إن هؤلاء وهؤلاء لا يشدم إلى الإسلام قوة خارجة عنه ، ولا يمسك بهم سلطان روحي أو زمني . . قائم وراءه ، وإنما الذي يشدم إلى الإسلام ويمسكهم به ، هو مشاعر ذاتية قائمة بينهم وبينه ، على اختلاف هذه المشاعر . . قوة وضعفاً . .

ولست هذه المشاعر التي تربط المسلم بدينه وأيده ولاء أعنى ، أو استسلام مقهور ، إلا أن يكون ذلك للسلم سفيهاً أو ضعيفاً ، ومثل هذا الإنسان ليس هو الرجل الذي يعامل منه الإسلام معاملة كاملة صحيحة . . حتى يرشّد ويبلغ أشده . .

ومن جهة أخرى فإن حقائق الإسلام — مع ما لها في ذاتها من قدسية وجلال — ليست بالأمور التي قد حيل بين الناس وبين النظر فيها ، بل إنها — على ما بها وما لها من قدسية وجلال — واقعة في مجال البحث والنظر ، لا تحتمى في حصانة من جلالها وقديسيها ، ولا تتعالى على الناس بعلو مُتَنَزِّها : فللاس كل الناس — أن ينظروا فيها ، وأن يقلّبوا وجوهها ، باحثين ودارسين .. وللناس — دائماً . وفي كل وقت — الحق كل الحق في أن يستأنفوا النظر فيما يقع لهم من حقائق هذا الدين ، وأن يراجعوا أنفسهم فيه ، وأن يقتربوا من هذا الدين ، أو يبتعدوا عنه ، حسب ما يقع له في عقولهم من إقناع ، وما يجدون له في قلوبهم من رضا واطمئنان !

إن حقائق الإسلام ومسائله واقعة في تجربة الحياة اليومية يوماً يوماً ، وفي محك كل عقل .. فرداً فرداً .. فمن شاء أن يأخذ بهذا الدين أخذ ، ومن شاء أن يتركه ترك ، إذ ليس من شأن ما هو حق أن يأخذ الناس بالقهر والاعتساف « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ^(١) . « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » ^(٢) .

* * *

أقْبَعُ هذا احترام وتقدير ، بل وتقديس ، لإنسانية الإنسان ، ولكرامته ، وإرادته ؟ وهل في الدساتير الوضعية ، أو المقررات المذهبية ما يسمح للإنسان بأن يتحرك في مجالها بقله ، وقلبه ، وإرادته ومشاعره ؛ مثل هذه الحركة المطلقة المتحررة المطلقة ، التي يسمح بها الإسلام ، لمن يلتقي به أو يتعامل معه ؟ ذلك ما لم يكن ، ولن يكون !

(١) سورة الكهف : آية ١٩

(٢) سورة يونس : آية ١٠٩

ذلك هو الإنسان الذى يتعامل معه الإسلام ، ويحمله مباط التكليف ، وأهلاً
لحل الأمانة التى عرضها الله سبحانه على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن
يحملنّها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان !

وحقيقة أخرى، نريد أن نقرّها هنا ، وهى أن الإسلام قد التقى بالإنسان
وقد بلغ رشده ، وجاوز مرحلة الطفولة والصبا ، وأصبح مهيناً لأن يستقل بنفسه ،
وأن ترفع عنه وصاية السماء .. فلا رسالة ولا رسل بعد رسالة الإسلام ، ورسول
الإسلام !

وعلى هذا التقدير جاءت تعاليم الإسلام وأحكامه، لتمضى مع الإنسانية فى طريق
الحياة إلى غايتها ، ولتصحب الناس ما كانوا فى هذه الحياة . وما كان لهم
وجود فيها !

الباب الثالث

الاسلام وقضاياها

نظام... لا كلام

نستطيع أن نسمى حقائق الإسلام «قضايا» .. فهذه التسمية أقرب شيء إليها ، وأدل الأسماء على حقيقتها ، إذ كان كل مافي الإسلام ، من مقررات العقيدة والشريعة آخذاً مأخذ القضايا العامة الشاملة في الحياة .. في ميادين العلم والفن .. تلك القضايا التي يمالجها العقل بمنطقه الاستدلالي ، ويختبرها بأسلوبه العلمي ، ثم يضعها فيه بمكانها ، من الصحة أو الاعتلال ، ومن القبول أو الرفض .

ومن جهة أخرى ، فإن هذه الحقائق ، التي ضُمَّت عليها الشريعة الإسلامية ، ليست من الأمور التي تُدرّس دراسة نظرية مجردة ، غايتها الرياضة الذهنية ، أو المحاكات المنطقية ، أو الجدليات الفلسفية ، التي لا تلد إلا صوراً تعيش في الخيال ، وتفترق من الوهم .. وإنما تنبُت حقائق الإسلام جميعها على هذه الأرض ، التي يعيش عليها الناس ، وتتحرك معهم في كل متجه ، وتعيش في عقولهم وفي قلوبهم ، على مسرح الحياة التي يتقلبون فيها .

فالإسلام ليس مجرد مجموعة من التصورات ، يحتويها العقل ، أو مثلُ يمثّلها الخاطر ، أو أحكام موقوفة التنفيذ ، وإنما هو معتقد ، يصحبه عمل ، وإيمان ، بصورة سلوك موجّه بهذا الإيمان ، وأحكام ملزمة ، واجبة التنفيذ ، وحقوق لا تبرأ الذمة إلا بقضائها !

ومن هنا كان الإسلام وتعاليمه على محك الحياة دائماً ، إذ كان فرضاً لازماً على من يديّون به أن يلقوا الحياة منه ، وأن يديروا مماركهم فيها ، بما معهم من أسلحته ومعداته ، التي دخل بها على عقولهم وقلوبهم .. فليس الإسلام مجرد معتقد ينطوي عليه كيان الإنسان .. وإنما هو — مع ذلك ، أو قبل ذلك — منهج

تفكير ، ومنزع سلوك ، يمدش الإنسان على هده ، ويتحرك على ضوئه ، فى خاصة نفسه ، وفى صلاته بالإناس جميعاً ، أقرباء وأبعداء ، وأولياء وأعداء !

وعلى هذا ، فإن العقيدة الإسلامية وإن تكن أمراً ذاتياً ، تتعلق بذات الشخص ، وترجع إلى ضميره ووجدانه — فإنها لا تكون شيئاً إذا هى لم تصرّح عن مضمونها ، ولم تكشف عن معطياتها وثمراتها فى الحياة !

استمع إلى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون .. أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (١) .

فهذه صفات المؤمنين الذين دانوا بهذا الدين ، واستجابوا لتعاليمه وأحكامه ، وهى صفات ذات معطيات عملية ، تجرى فى واقع الحياة ، وتؤثر فى الأفراد والمجتمعات ، فأثيراً طيباً ، يزيد فى حصيلة الحياة ، من الخير والودة والسلام .

انظر فى قوله تعالى : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يرايون ويمنعون الماعون » (٢) . . تجد أن هذه الصلاة التى غفل عنها أصحابها ، وأدوها فى غير اكتراث ، والتى هى ركن من أركان الإسلام — لم تثمر ثمرتها المرجوة منها ، لأنها لم تقم فى كيان صاحبها مقاماً مكيناً ، فلم يحفل بها ، ولم يفتح قلبه لها ، بل سها عنها ، وأداها — حين أداها — فى كسل وفى تراخ . . أداء آلياً . . فكان أن حرم صاحبها هذا الخير الكثير الذى كان

(١) سورة المؤمنون : الآيات من ١ - ١٠ .

(٢) سورة الماعون . . والماعون : ما يستعان به فى شئون الحياة .

يمكن أن يجنيه منها ، لو أنه حرص عليها ، وشغل نفسه بها ، وملاً قلبه خشوعاً وخضوعاً بذكر الله فيها ، فكان بهذا متعرضاً لرضا الله ورحمته : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . . . وإذا لم يذته صاحب الصلاة عن الفحشاء والمنكر فلينظر أى خلل وقع في صلاته ، وأية آفة أنت على حصّاده ، الذى كان يتوقّعه منها !

وهكذا الشأن في كل عبادة تعمّد الله بها عباده ، وكل دعوة دعاهم إليها . . لا تنفصل أبداً عن الخير ، ولا تخلف وعدها به ، لمن أدّاها على وجهها الصحيح ، موقظاً لها قلبه ، مستجمعاً لها مشاعره ، مخّياً لها صدره من خطرات السوء ، ووساوس الشيطان !

ذلك هو الإسلام ، في أحكامه وتشريعاته . . إنه ليس في عزلة عن الحياة ، وعن الأحداث الجارية فيها ، بل هو إمداد للحياة ، وتوجيه لها ، ودفع إلى الغايات الكريمة ، والمقاصد الطيبة النافعة فيها . بما يزرع في عقول الناس وقلوبهم ومشاعرهم من مفارص الحق والخير .

وهذه الحقيقة قد شهد بها كثير من العقلاء ، الذين لم يعتقدوا الإسلام ، ولم يدّينوا به . إذ كانت من الواضح . بحيث يرى الماثل أن من الظلم لعقله ، والإضرار به أن ينكرها ، أو يشوش عليها ؟ يقول الفيلسوف « جب » .

« الحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات . . إنه أعظم من ذلك كثيراً . . هو مدنيّة كاملة » !

« ولو بحثنا عن لفظ مقابل له ، لقلنا : « العالم المسيحي » ، ولم يقل « المسيحية » ، ولقلنا « الصين » . . بدل أن نقول : « ديانة كونفوشيوس »^(١) .

(١) وجهة الإسلام للفيلسوف « جب » ترجمة أبو ريّدة .

وهذا يعنى أن الإسلام نظام إنسانى متكامل ، يضم إليه الدين والدنيا جميعاً ، أى أنه يملك وجود الجماعة التى تدين به ، ويدخل فى فسيح الحياة التى يحيوها ، فلا تقوم حياتهم إلاّ عليه ، ولا تتشكل وتقلون إلاّ بما يعطى من أشكال وألوان . . . على حين أن الديانة المسيحية . مثلاً — تحكم أتباعها من جانب واحد ، هوجانب العقيدة فى مجالها الذاتى الفردى ، الذى يحتفظ به الفرد لذاته نفسه ، كما يحتفظ بنظرية علمية أو مذهب فلسفى ، دون أن يمتد بصره إلى ما وراء ذاته ، ودون أن يدخل بهذا الرصيد من العقيدة إلى الحياة العامة ليشارك به مع الآخرين ، فى إقامة نظام سياسى ، أو اقتصادى ، أو اجتماعى !!

العقيدة والمعتقدون :

وإذ كانت تلك هى طبيعة أحكام الإسلام وتعاليمه ، وتلك هى معطياتها فى الحياة حين تجد الفاقهين لها ، والعاملين بها ، فإنه ينبغى أن نقرر أنه فى اليوم الذى يواجه فيه الناس الحياة بأسلحة هذا الدين ومعداته ، ثم لا يكسبون معارك الحياة ، أو يتخاذلون عنها ، أو يعتزلونها — فلا يمدو الحال أن يكون ذلك ناشئاً عن أحد أمرين :

إما أن هذه الأسلحة وتلك المعدات قد امتدت إليها يد البلى ، وعلاها الصدا . فلم تعد صالحة للعمل فى الميادين الجديدة ، التى فتحتها الحياة على الناس ، بعد أن بلغوا ما بلغوا ، من العلم والمعرفة ، وبعد ما حصلوا من مدنية وحضارة .

وإما أن يكون أولئك الذين يحملون هذه الأسلحة وتلك المعدات قد ضعفت قواهم عن حملها ، وتراخت أيديهم عن الإمساك بها ، وأنهم شغلوا بغيرها عنها ، وملثوا أيديهم بما وقع لهم من أسلحة الحياة .

وفى سهرنا على طريق هذا البحث سنرى أى هذين الفرضين أولى بالقبول ، وأحق بالتسليم له ، والأخذ به !

قضايا الإسلام . . ما هي ؟

القضايا التي ينتظمها دستور الإسلام ، وتحملها شريعته ، تقوم على مجموعتين : كبيرتين : مجموعة عقديّة ، ومجموعة تشريعية .

ويدخل في مجموعة العقيدة كل ما يتصل بما وراء الحس ، أو ما وراء الطبيعة ، مما لا سلطان للعقل عليه مباشرة ، وإنما يتعرّف إليه العقل ، ويتعامل معه من وراء حجاب ، يتبع الآثار التي تدل عليه ، وتحدّث عنه ، وتكشف عن كثير من صفاته . .

وأهم قضايا هذه المجموعة : قضايا الألوهية ، والنبوة ، والكتب السماوية ، والملائكة ، والبعث . والحساب ، والجنة ، والنار .

ويدخل في مجموعة الشريعة ، كل ما يتصل بالإنسان في خاصة نفسه ، مع الله ، وفي صلاته بالمجتمع الإنساني ؛ في أفرادهِ وجماعته ، وفي كل ما يدور في شئون الحياة ، في محيط الفرد والأسرة ، والمجتمع ، والإنسانية كلها . . وتضم هذه المجموعة : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق .

وطبيعي أنه ليس بين مقررات المجموعتين حدود فاصلة ، بحيث تعيش كل مجموعة منها في عزلة عن صاحبتها في كيان الإنسان ، بل إنها — في الواقع — نظام واحد ، ومنهج مترابط ، يلتقي في كيان الإنسان ، ويصطبغ في مبادئ أفكاره ، وخلجات وجدانه ، فيعمل عمله ، في تفكيره وفي تصوراتهِ ، وفي شعوره ، وفي سلوكه . . كما سنرى ذلك ، فيما سيأتى من مباحث هذا الكتاب .

والألوهية في كل دين — وفي الإسلام على وجه خاص — تأخذ أهم وأقوى جانب من الدين ، بل إنها المحور الذي تدور في فلكه كل مقررات الدين ، وبغيرها لا يكون دين ، فإن كان فهو أوهام وخرافات وأباطيل ، لا تلبث طويلاً

حتى يفضحها العقل ، ويدفع بها بعيداً ، يُخِلِّي مكانها للإله الحق .. الله رب العالمين .

* * *

ولا نريد في هذا البحث أن نستعرض قضايا الإسلام كلها ، فذلك أمر إن نحن نصديقنا له خرج بنا عن الغاية التي نريدها ، وهي التعريف بالإسلام ، والدلالة على أحكامه وتعاليمه ، وما تقوم عاياه هذه الأحكام وتلك التعاليم من دعائم ثابتة ، وأصول راسخة ، لا ينال منها الزمن ،

والتعريف بالإسلام يكفي فيه موقف واحد مع حقيقة من حقائقه ، أو قضية من قضاياها ، بل ومع جزئية من تلك القضايا .. لأن شعاة واحدة من أشعة الشمس تدل على الشمس ، كما تدل على أنها قطعة من ضوءها الغامر ، الذي لا يشبهه — بضوء غيره .

وعلى هذا ، فإننا سنعرض من هذه القضايا بعضاً ، ندع بعضاً ، وفيما نعرضه شاهد لما لا نعرضه .

هذا ، وسنجعل كل قضية نعرضها في فصل خاص بها ، ليسكون النظير إليها في هذا الإطار المحدد لها .

* * *

الفصل الأول

الألوهية

الإله .. ولماذا ؟

لماذا قام هذا الإله في تفكير الناس ؟

ولماذا شغلوا به هذا الشغل الدائب المتصل ؟

ولماذا لم يقع في تفكير بعض الناس دون بعض ؟

.. فيكون وهماً من أوهام الدماء !

.. أو وسوسة من وساوس الحق والمجانين ؟

.. أو منزعاً من مفازع الحكماء والفلاسفة ؟

.. أو وادياً من أودية الشعراء ؟

.. أو حلماً من أحلام القادة والمصلحين ؟

لماذا يقع التفكير في الإله في كل عقل ، ويشغل كل قلب ، ويملأ كل وجود .

إنساني .. منذ قامت الخليقة إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم ؟

ولماذا هذه الميا كل ، والمعابد ، والمساجد .. التي تملأ وجه الأرض ، في كل

زمان ، وفي كل مكان ؟ والتي تمثل تاريخ الإنسان على هذه الأرض منذ أن وجد .

إلى اليوم ؟

ولماذا هذه الصلوات ، والتراتيل ، والأنشيد ، والابتهالات ، والدعوات التي

تنطلق من كل فم ، وتدوى في كل مجتمع ؟

لمن كل هذا ؟ ولحساب أية جهة ؟

إن ذلك كله ، وكثير غيره من نتاج العقل البشرى فى مجال العقيدة هو لهذا
الإله الذى يطالع الفاس وجهه مُصْبِحِينَ ومُؤَسِّين ، وفيما بين الإصباح والإمساء ،
والإمساء والإصباح — يطالعون وجهه ، ويشهدون آياته فى أنفسهم ، وفى كل
موجود ومولود ؟

إن أحداً من الفاس فى مواليد الإنسانية كلها لم يقل إنه رأى الله ، واتصل به
اتصالاً مباشراً !

ومع هذا فكل إنسان — فرداً فرداً — منذ كان للفاس وجود إلى اليوم —
له موقف مع « الإله » .. أيأ كان هذا الموقف .. حقاً أو باطلاً ، مستقيماً أو منحرفاً ..
ذكياً أو غيبياً !

هو موقف إيمان وتسليم .. إن كان من المؤمنين .

أو موقف إنكار وجحود .. إن كان من المنكرين الجاحدين !

أو موقف الشك والتردد .. إن كان من المتشككين المترددين !

وقد يأخذ الإنسان الواحد هذه المواقف جميعها من الإله . طرداً وعكساً ..
يتقلب فيها إلى أن يقف عند واحد منها ، أو يظل هكذا حائراً متردداً بينها !

إن شعوراً مندساً فى كيان كل إنسان ، يُملئ عليه أن يعطى ولاءه لأقوى قوة
فى الوجود .. قوة غير منظورة ، لأن جميع القوى الواقعة فى مجال الحسّ ليس فيها
قوة واحدة ، تملك زمام الموجودات كلها ، وتسيطر عليها جميعها .. وأن أعظم
وأقوى موجود يقع فى مجال الحسّ يبدو فى حال أو أحوال ، مقهوراً ، خاضعاً لقوة
وراءه .. لا تُرى !

هكذا كان تقدير إبراهيم عليه السلام وتفكيره فى البحث عن تلك القوة التى
لا قوة وراءها أو فوقها .. وهكذا يكون تقدير كل إنسان وتفكيره ، إذا هو أراد —

فى إخلاص وصدق — أن يبحث عن القوة المطلقة التى يدين لها بالولاء ، والخضوع والعبودية !

يذكر القرآن الكريم هذا الموقف الإنسانى ، الذى وقفه إبراهيم عليه السلام فى بحثه عن الإله . . القائم على الوجود كله .
يقول الله تعالى :

« وكذلك نرى إبراهيمَ ملِكُوتَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وإسكونَ من الموقنين ، فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربى ! فلما أَفَلَ ، قال : لا أحبِّ الآفلين . . فلما رأى القمرَ بازِغاً قال : هذا ربى ! فلما أَفَلَ ، قال : لئن لم يَهْدِنِ رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ القومِ الضَّالِّينَ ، فلما رأى الشمسَ بازِغَةً قال : هذا ربى ، هذا أكبر ! فلما أَفَلَتْ قال : يا قوم إنى برئى مما تشركون . . إنى وجهتُ وجهى للذى فطرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ . . حنيفاً ، وما أنا من المشركين » (١) .

هذا هو طريق الإنسانية كلها فى البحث عن الإله . . قطعه أقوام فوصلوا إلى شاطئ الأمن والسلام ، وتعثروا فيه آخرون حين ركبوا أهواءهم ، واستجابوا للأوهام والوساوس ، ففرقوا فى رمال اللتاهاات والجاهل ، وخرجوا بهذا عن أن يكونوا فى مجتمع الإنسانية الكريمة ، العاقلة ، الرشيدة . . « أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ؟ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ بِسْمَعُونَ أَوْ يَمْقُلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » (٢) .

إن هؤلاء الذين يركبون أهواءهم ، أو تركبهم أهواءهم ، قد تنازلوا — مختارين — عن إنسانيتهم ، وانتظموا فى سلك الأنعام . .

هذا هو حكم الإسلام فيهم . . لا يرام أهلاً لأن يتوجه إليهم بخطاب . . ولهذا جاء خطاب الحق — سبحانه — بعد هذا مباشرة ، موجهاً إلى النبىِّ الكريم ،

وإلى من اتبع سبيله . . فيقول سبحانه : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمسَ عليه دليلاً ، ثم قبضناه إينا قبضاً يسيراً » إلى قوله : « وهو الذى خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصِيراً ، وكان ربك قديراً »^(١) .
ففى هذا الخطاب لفتٌ للعقل وللعقلاء وحدهم ، إلى مظاهر قدرة الله ، ودلائل حكمته ، وعلمه . .

وماذا لو أخلى الناس عقولهم وقلوبهم من التفكير فى الإله ، والبحث عنه ، والاشتغال به ؟

ماذا لو فعلوا فأراحوا أبصارهم من التعلق والتحديق ، فيما لا يمكن أن يصلوا إليه ، أو يتصلوا به ، اتصالاً مباشراً محققاً ؟

إن أحداً لم يقل إنه رأى الإله عياناً ، أو تعامل معه مواجهة . . فالأمر بالنسبة للإله . . فى أحسن وجوهه ، وأقرب احتمالاته ، لا يعدو أن يكون ضرباً من التأويل لأحلام العقل ، وتطامعاته إلى ما وراء الحس . . بحثاً عن المجهول !

فماذا يشد الإنسانية ويربطها بهذا الرباط الوثيق ، الذى لا تستطيع الفكك منه أبداً . . إن هى أرادت ذلك ، وبذلت جهدها له .

يسأل وليم جيمس . هذا السؤال :

« أى موجود يكون الإله » ؟

ويجيب على هذا بقوله :

« قد دلت كلمة الله على كثير من الأشياء فى تاريخ الفكر الإنسانى من الزهرة والمشتري » إلى « الفكرة » التى يقول بها « هيجل » :

« لقد أصبحت القوانين الطبيعية المادية فى هذه الأيام — أيام للفلسفة الوضعية —

موضوعات مستحقة للتمجيد الذى لا ينبغي إلا للإله ، وبذلك اعتبرت الموضوعات الوحيد، التى يجب أن نحترمها ، ونقدسها .

ولكن أيستطيع سلطان المادة — على طغيانه فى هذا العصر — أن يصفى حساب الإنسان مع الإله ، وأن يخلى تفكيره منه ؟^(١)

وندع الفيلسوف المواندى « إتيليه » يجيب على هذا السؤال . . يقول :
« إن أصل الدين هو . . حينئذ : الإدراك الفطرى فى الإنسان الخاص بالسببية ، وإنهاء الأسباب إلى سبب أخير ، وعلّة نهائية . . وحينئذ : شعور الإنسان ببعيته لقوة عليا . . وحينئذ : حدسُ اللانهائى . . وحينئذ : الزهد فى العالم واطراحه ، هذا الزهد الذى ترى فيه تأثيراً يسود المرء وبغلبه على أمره »^(٢) .

إن الشعور الدِّينى حقيقة من حقائق الوجود-الإنسانى ، وطبيعة من طبيعته ، لا يمكن أن يخرج الإنسان عن سلطانها، إلا إذا خرج عن وجوده .

ومع هذا فقد حاول كثير من الناس أن يقرّوا من هذا الشعور الخفى المتسلط عليهم ، وأن يتحرّروا من سلطانها ، حتى لا يفكروا فى الإله ، ولا يجروا له ذِكراً . . يدعوى أن ذلك ضروب من العبث والمعاناة ، لا يحصل المرء من ورائها شيئاً ، ولا يمسك بيده منها على شيء . .

هكذا صورت الانحرافات العقلية ، والأمراض النفسية لبعض الناس ، أنهم قادرون على أن يخلّوا عقولهم وقلوبهم من البحث عن الإله والتفكير فيه ، وأن يقطعوا كل ما من شأنه أن يذكرهم به ، أو يدعوم إليه !

والواقع أن هؤلاء الذين يغمضون أعينهم عن الإله ، ويصمّون آذانهم عن

(١) العقل والدين ص ٩

(٢) العقيدة والشرعية لجولد تسيهر ص ٩

الحديث عنه هم أكثر الناس حديثاً عن الإله، وأكثرهم تفكيراً فيه، وبحسبنا عنه.. وأن هذا الموقف السلبي الذي يقفونه منه إن هو إلا أثر من آثار هذا الصراع العنيف الذي يدور في كياناتهم، بحسبنا عن إله يريدون أن يَرَوْهُ رأى الحقائق العلمية، التي تتكشف لهم من وراء تجربة ناجحة، في معمل من معامل العلوم الطبيعية أو الكيميائية.. ثم إنهم حين يضيفون البحث، ويرهقهم التطلع، ويطول بهم الانتظار، وتلاحقهم الخيبة.. المرة، بعد المرة، دون أن يطلع عليهم هذا الإله المنشود في بوتقة أوقنتية، حينذاك يملأ اليأس قلوبهم حسرة وألماً، فيكون منهم هذا التجديف، وذلك الهذيان، يترضون به أنفسهم، ويدأبون به جراحات الخيبة التي منوها بها، في تلك المعركة، ويرضون كبرياء العقل، ويعذرون له عجزه وقصوره في هذه السبيل، باعتبار أنه إنما كان يبحث عما لا وجود له! فلا عليه إذا هو رجع ولا شيء معه!!

الإله في التفكير المادي :

إن البحث عن الإله بهذا العقل المادي، واختباره بمخايير المادة، لا بد أن يصل بالباحثين إلى مثل هذا الموقف الذي يُسلم العقل إلى اليأس، ثم الجحود والإنكار.. ثم التجديف والتخبط.. ثم الخيرة، والاضطراب، والقلق.. فلا يطمئن لهم قلب، ولا تسكن لهم نفس.. بل هم أبداً في سخط، وتبرم.. وفي اتجاه سريع إلى التخلص من الحياة، ولو بالانتحار!

يقول «وليم جيمس» :

« لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادي اليوم قائلاً : « هناك اليوم إله واحد مقدس، يقف في إجلال وعظمة، بين أنقاض كل إله غيره، وكل دين — وهو الحقيقة العلمية .

« وليس له إلا أمر واحد، وقول واحد، وهو : أن ليس لكم أن تؤمنوا

يآله ، لأن الإيمان بالآلهة إرضاء للميول الذاتية ، وإرضاء للميول الذاتية يؤدي
للهلاك العقل . . . ١١

ثم يقول : « ويظن أرباب الضمائر هؤلاء أنهم استقلّوا بأنفسهم ، وحرّروا
عقولهم من تحكم للميول الفردية تحريراً كاملاً وأبدياً .. ولكنهم في ذلك مخدوعون ..
لأنهم لم يفعلوا شيئاً ؛ إلا أنهم قد اختاروا من ميولهم المتعددة الميول التي تنتج أجنس
النتائج ، وأحاطها قدرأ ، بل وأكثرها إجحالا .. وأعني بذلك مجرد عالم ذرى ،
وضخوا بكل ما عدا ذلك من الميول ^(١) » .

يكشف ولیم جیمس هنا عن طبيعة العقلية المادية ، وعن محاولتها الهروب من
الوقوع تحت المؤثرات الذاتية للميول والمواطف ، في مجال البحث عن الحقيقة ،
ذلك أن الإخلاص للحقيقة يفرض على الباحث أن يتجرد لها من كل ميوله
وعواطفه ، حتى يستطيع أن يراها غير ملونة إلا بالألوان الذي لها ..

وهذه التضحية بالميول الذاتية والمواطف الشخصية في سبيل البحث عن
الحقيقة عمل مبرور ، لو كان في إمكان الإنسان أن يحققه ، وأن يبلغه من نفسه ..
ولكن الذي يحدث غالباً — وربما دائماً — هو أن ميول الإنسان ونزعاته كثيراً
ما تغلبه على أمره معها ، وأنه في أحسن أحواله قد يتخفف منها ، أو يمتثلها للحظات
عابرة ، ثم لا تلبث أن تنطلق ، وتأخذ مكانها من تفكيره .

فالإنسان لا يمكن أن يتخلى عن ميول ذاتية تتحرك في كيانه ، ولو افتقدها
لحظة لافتقد ذاته التي يشعر بها ، ويرى من خلالها شخصه ووجوده !

وغاية ما يمكن أن يفعله الإنسان إزاء شعور ذاتي خاص هو أن يصرف هذا
الشعور ويحمل محله شعوراً ذاتياً آخر .. يوازي هذا الشعور ، أو يناقضه !

وفي هذا الموقف الذي يقفه العقل المادي من الآله ، والذي يدعوه فيه جلال

(١) العقل والدين لوليم جيمس ، ترجمة الدكتور محمود حب الله ص ٩٩ .

الحقيقة التي يبحث عنها ، أن يتجرد لها من نوازعه وميوله وعواطفه ، حتى يراها .
رؤية خالصة من شوائب الغبار ، الذي تنفضه عليها هذه النوازع والميول والعواطف .
— في هذا الموقف لا يمدو المرء في تصرفه هذا أن يكون قد استبدل ميولا ذاتية
بميول ذاتية أخرى ، فهو وإن يكن قد أخلى نفسه من تلك العاطفة التي تميل به
إلى جانب الأمل ، الذي يفسح له في رحاب الكون مجالاً تسعد فيه نفسه بهذا
التماطف الذي يقوم بينه وبين الوجود — فإنه قد أقام في كيانه شعوراً ذاتياً باليأس ،
فأوصد الأبواب التي بينه وبين هذا العالم الرحيب ، الذي يقوم وراء العالم للمادى ،
واعقل نفسه في سجن المادة للظلم الكثيف !

فالقول بأن الإيمان بالإله ، ذلك الإيمان المستوحى من واد غير أودية
الكشوف العلمية المجردة تجرداً مطلقاً من النوازع الذاتية — القول بأن مثل هذا
الإيمان هو إهدار للعقل ، واستجابة للفرائر الطفولية في الإنسان — هذا القول
إن يكن فيه اعتراف بالمنزلة التي ينبغى أن يحتلها العقل في كيان الإنسان . فإنه في
الوقت نفسه فيه إخذال للعقل ، وإطفاء لجذوته التي لا تشتمل أبداً ، إلا إذا أمدتها
الرغبات الذاتية والنزعات الشخصية بالقدر الكافي من الوقود ، الذي إن انقطع مدده
خمد العقل وخبا ، وبرد ، وأظلم !

إن أصحاب الفلسفة المادية الذين يؤمنون بالعقل هذا الإيمان المطلق على هذه
الصورة التي بصورونه بها ، وبهذا الوضع الذي يضعونه فيه — إنهم يظلمون هذا
العقل ظلماً بيئياً ، ويقسون عليه قسوة قاتلة . . إذ أن عدم اعترافهم إلا به وحده
أداة للتفكير ووسيلة لتحصيل العلم والمعرفة ، يقطعون هذا العقل عن أطيب مجاى
العلم ، ويعزلونه عن أصنى موارد المعرفة ، ويسوقونه سوقاً عنيفاً في صحراء مجردة ،
محروقة ، تتلظى بلهب الهواجر ، وتتقلب في سمومها !

إن ذلك وضع لا يقبله العقل أبداً ، ولا يحتمل الصبر عليه يوماً أو بعض

يوم . . فإنه في اليوم الذي يستطيع فيه إنسان أن يصير بعقله ، أو يصير به عقله إلى هذا المصير — هو اليوم الذي توصل فيه في وجه الإنسان أبواب الرحمة ، وتكتمل فيه أنفاس الحياة ، فلا يجد المرء أمامه في تلك الحال غير الانتحار طريقاً للهرب من وجه هذه الحياة الكالحة المكشّرة عن أنيابها . . فاموت وحده ، وليس إلا الموت هو وجه الخلاص من هذا البلاء ، الذي سيق إليه العقل ، وسيق للإنسان به معه .

« إن الصفة الجوهرية التي تميز الإنسان عن الحيوان ، هي تلك الثروة الطائلة من الميول الشخصية . . فلم ينشأ تفوق الإنسان إلا عن السكية والكيفية الغريبة وغير الضرورية ، من رغباته وحاجاته المادية والأخلاقية والوجدانية والعقلية . . فلم تكن حياة الإنسان إلا عبارة عن بحث وراء الكماليات لما تمكن تمكناً لا يغالب من الحصول على الضروريات »^(١)

فالكماليات ليست من مطالب العقل المجرد ، لأن العقل المجرد بمنطقه الجاف ، لا يستسيغ قبول هذه الكماليات التي يراها إضافات لا حاجة إليها ، وذبولاً تضر ولا تنفع ، وإنما هذه الكماليات من مطلوب الرغبات ، والفرائز والميول . . وهذه الكماليات التي يزهد فيها العقل التجريدي هي التي تدفع الإنسان في قوة ، وشوق ، وجدّ إلى غاياتها . . وفي الطريق إلى تلك الكماليات يحصل على الضروريات ، ولولا السعي المشوق إلى الكماليات لوقف في الطريق . . لا يصل إلى الضروري ولا الكمالي جميعاً .

تلك هي جناية العقل المادي المجرد على أصحابه . . إنه يحرمهم ثمرات كثيرة طيبة من ثمرات الحياة المادية التي يدفعون به إليها ، ويتدافعون هم وراءه ، متكالبين عليها . . لأنهم يُجرونه بغير زاد ، فيعيا ويسقط بهم في أول الطريق . .

(١) العقل والدين . لوليم جيمس . . ترجمة محمود حب الله ص ٩٩

واستمع إلى قول الحق جلّ وعلا ، وإلى هذا الإعجاز الذى تخضع له الأعناق :

« ومن الناس من يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنَّ أصابَهُ خَيْرٌ اطمأنَّ به ، وإنَّ أصابته فتنةٌ انقلبَ على وجهه ، خَسِرَ الدُّنْيَا والآخرةَ ، ذلك هو الخسران المبين » ^(١) .

أليس ذلك هو صورة من صور العقل المادى الذى يقف بأصحابه هذا الموقف الخرزى اللثيم مع الله . . إنه لا يتعامل مع الله سبحانه إلا على هذا الأسلوب النفى البقدى المعجل !! .

إن الغرائز والميول — كما قلنا — هى الوقود الذى تفلئ به مراحل الكيان الإنسانى ، فيتحرك وينطلق إلى المدى الذى يمكن أن تبلغه بإياه قوة الدفعة التى تدفعه بها غرائزه ورغباته وميوله .

يقول ولیم جیمس : « إن كل القوى التى تعمل فيها متضامنة بالضرورة ، حين نكون آراءنا الفلسفية ، فيتضامن العقل والإرادة والغدق والشهوة فى المسائل النظرية ، كما تتضامن فى المسائل العملية .

« إن العملية الذهنية الجوفاء التى لا ينفىها إلا أن تجمع الأدلة ، وتقدر ما فيها من احتمالات مستعملة فى مقاييس دارجة ، ومتأثرة بحجم الأدلة ، وبمقدار من ماعتدبها من الناس — لعملية محالة من ناحية عملية ، وغير مناسبة من ناحية نظرية !!

ثم يقول :

« ولست أدري كيف يتأتى لهؤلاء الذين يشتغلون بالفلسفة أن يقولوا إنه من

(١) سورة الحج : آية ١١ .

الممكن تكونين فلسفة من غير مساعدة الميول الشخصية ، والاعتقادات الفردية ، أو اعتبار المستقبل ، وتبصر العواقب ؟ وكيف نجح هؤلاء في أن يمنموا حواسهم من أن تدرك الحقائق الحيوية من العباائع البشرية ، ولم يتبينوا أن كل من كان له أثر في تطور الفكر البشرى — كان قد اعتقد أولاً في أز الحقيقة لا بد أن تكون موجودة في أحد الجانبين دون الآخر .. واعتقد ثانياً أن نظريته يمكن أن تفجح .. ثم بذل أخيراً كل ما في وسعه لجعلها ناجحة ؟

« إن تلك الميول العقلية المتباينة للأفراد هي الاختلافات الذاتية التي يُعتمد عليها التنازع العقلى من أجل البقاء ، فتتخلد النظريات الصالحة ، ويلمع معها في المستقبل أسماء رجالها » (١)

فالتفكير الذى ينسلخ فيه العقل من العواطف ، هو تفكير مفتعل ، متحدّ للطبيعة الإنسانية ، ومن هنا تجيء معطياته معطوبة ممسوخة !
إن مثل هذا التفكير الذى يُفرق العقل فى التراب ، لا يمكن أن تلتمع فيه بارقة أمل أو رجاء فى حياة أفضل . .

واسكن من رحمة الله بالإنسان أن جعل العقل غير قابل للخضوع لهذا التفكير الأسود ، وإنما هو فى سعى دائم ، وفى تطلع مستمر لا ينقطع إلى هذا النور القائم وراء المادة المظلمة ، يراه بحدسه ، ويلدحه فى رؤاه وأحلامه ، وآماله !

* * *

ونعود — بعد هذا — لنسأل : لماذا الإله ؟ ولماذا هذا البحث الدائب عنه ؟ وما الضرورة الحيوية التى ألجأت الإنسانية فى جميع أزمانها ، وأطوارها ، وأجناسها إلى التفكير فيه ، ومماناة الاستدلال عليه ؟

(١) العقل والدين : ص ٦٢ .

تُرى أَيْكون هذا الاجماع المطبق المتواصل بين أبناء الجنس البشرى ناجماً عن ضلال تواصلوا به ، وتوارثوه جيلاً عن جيل ؟

إن ذلك بعيد لا يقبله العقل ، ولا يزكّيه الواقع — فإن تاريخ الانسانية كله لا يعرف أمراً واحداً غير هذا الأمر ، شغل الناس جميعاً ، وواجه الحياة الإنسانية كلها على امتدادها زماناً ومكاناً . . . ولو حدث شيء من هذا لكان له دورة من دورات الحياة ، ثم لا يلبث أن يختفي غير مخلف وراء إلا أثراً أو خبراً ، وقد لا يترك أثراً ولا خبراً !!

أفيسكون ذلك البحث المتصل عن الآلة وجهاً من وجوه المعرفة ، يطلبه الناس ، ليحققوا من ورائه نفعاً مادياً ، بتسخير قوى الطبيعة ، وفتح مغالقها ؟

ذلك غير مقبول .. إذ لو كان كذلك لما وقف الناس منه إلا أفراداً أو جماعات ، وإلا كان الوقوف إزاءه لا يتجاوز مرحلة من الزمن ، ثم يفتنون منه على أى حال .. سواء أ كشفوا هذا الوجه أم عميت عليهم السبل إليه !

إن أمراً واحداً لا غير هو الذى شغل الإنسانية على هذا الوجه الذى شمل وجودها كله ، من أول يومها إلى اليوم ، ثم هى لا تزال فى شغل به ، لا تفرغ منه أبداً .. ذلكم هو البحث عن الآله .

والآله الذى يبحث الناس عنه ، ويشغلون به ، لا بد أن يكون — فى مفهوم هذا التصور — ذا خصائص يفرد بها عن كل ما نأظر فيه الإنسان وشغل به ، من شئون الحياة ، ومن مسائل العلم والفن .

ومن هذه الخصائص :

أولاً : التفرد .. الذى يقطع كل مقارنة أو مدانة بين الآله ، وبين أى شيء آخر . . . وإلا لتوزع الناس بين هذه الأشياء التى تقاربه أو تدانيه . . . ولكن الناس جميعاً لا يطلبون إلا الأول المتفرد ، ولا يجدون مقدماً أو رضى فيما هو دونه .

ثانياً : أن يكون خالداً ، وإلا افتقده الناس يوماً ، ثم لا يجدون له في كيانهم مكاناً يدعوهم إليه .

ثالثاً : أن يكون ملء هذا الوجود . . بحيث يجده الناس أين كانوا ، ومتى كانوا . . وإلا كان شغل الناس به محدوداً بزمن ، أو محصوراً بمكان !
هذه صورة منطقية للصفات التي ينبغي أن يكون عليها الإله الذي تبحث عنه الإنسانية ، وتتطلع إليه .

أما الإله الذي وجدته الإنسانية في ضميرها فهو أكبر وأعظم من هذه التصورات . . إنه لا يقايس بالإنسانية وحدود زمانها ومكانها . . وإنما ينظر إليه من خلال هذا الوجود كله . . المحسوس ، وما وراء المحسوس . . ما يدركه العقل وما لا يدركه .

فالإله الذي يسكن إليه وجدان الناس ، وتطمئن له قلوبهم إنما هو هذا الوجود الذي يحيط بهذا الوجود ، وبصرّفه بلفظه ، وعلمه ، وحكمته . . !

يقول الفيلسوف وليم جيمس : « إنه يبدو لي — وتلك أفيجتي النهائية — أن العالم الخلقى المستقر المنتظم الذي يبحث عنه الفيلسوف الخلقى لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قوة مقدسة ذات مطالب عامه شاملة . .

« فإذا وجدت هذه القوة ، فإن منهجها في إخضاع أحد المثل الآخر سيكون المنهج الصحيح لتقدير القيم » (١)

ثم يقول : « إن إضافة صفة القداسة لله ، تجعلني أعتقد أن الله لا يريد إلا الخير . .

« وإضافة الملم الكامل لله أثر على سلوكي ، لأنها تجعلني أعتقد أنه يمكن رؤية أفعالي في الظلام !

وتصور المدل والآسى يؤثر على سلوكى حيث أن عقابى أمر محتم حين يرى منى عصياناً .

« وحب الله العباد يحمانى على الاعتقاد بأنه ميال للفقران وقبول التوبة .. وهكذا »^(١) .

فهذه الصفات الكمالية التى يتمثلها الإنسان فى الإله الذى يعبد ذات موحيات قوية ، لها سلطانها فى سلوك الإنسان ، وفى تقويم هذا السلوك ، وإقامته على الوجه المقابل لهذه الصفات .

ويرى « وليم جيمس » أن هذه الصفات العالية التى يتصف بها الإله ، لا تقطع الصلة بينه وبين الإنسان ، ولا تجعل الإنسان فى وضع ذليل مهين . إذاً هو نظر إلى الخالق العظيم فى سلطانه المطلق وبطشه وجبروته ..

فالله هو خالق هذا الوجود ، وهو الذى — بمقتضى هذا الخلق — يراءه ، ويحفظه ، ويدفع عنه طافية الفساد والاضطراب ..

وإذن فالإنسان — وهو مخلوق كريم عند الله — قريب من الله ، مأنوس برحمته ، مطمئن إلى عدله وحكمته ..

يقول جيمس فى هذا :

« لِمَ يكون الله مَلِكاً متعالياً على كل قوة ، إننا نريد مواطنين أحراراً فى جمهورية كلية ! »

« إن العالم شبيه بدولة جمهورية شعبية ، يقدس كل عضو فيها أعمال الآخر . وفوقهم معين أكبر .. هو الله .. »^(٢) .

(١) وليم جيمس ص ١٤٧

(٢) وليم جيمس ص ١٨١

مطلوبُ الإنسانية إذن هو إله ، أو معبود تجتمع عليه رغبات الناس جميعاً ،
في جميع المستويات ، وفي مختلف الأحوال والأزمان ، لا تنقطع الصلة بينه وبينهم
لحظة واحدة ..

ونسأل :

هذا الإله الذي يتحقق للإنسانية فيه هذا الإشباع للتفكيرها ، وتصوراتها ،
ونوازعها ، ورغباتها ، وخوارجها ، وأحلامها .. ما هو ؟ وكيف يتصور ؟

الإله في التفكير المادى .. مرة أخرى :

الماديون .. لا يقبلونه إلا أن يكون مما يستجيب لحواسهم أولاً وقبل كل
شيء ، فيبصرونه بأعينهم ، ويلسونه بأيديهم ، ويخضعونه لشرط انقشريح ،
ولخباز العمل !

وهذا الإله المادى ، لا يشبع — كما قلنا — إلا رغبة محدودة في جماعة محدودة
من الناس ، ولوقت محدود عندهم .. فإن أياً من هذه الحسوسات التي تفنن
الإنسان ، وتملك عليه وجوده ، لا يمكن أن يظل هكذا بسلطانه القاهر المنسلط
على الإنسان ، القاهر له ، المستبد بعقله ووجدانه .. بل إنه لا يلبث أن يذهب
الزمن بما وقع على النفس منه ، من بهرٍ ودهش وإعجاب ، ثم لا يلبث أن تتحول هذه
المشاعر الملتهبة الواهمة به إلى مشاعر فاترة باردة .. تلقاه فلا تسكاد تلتفت إليه ،
أو تأبه له ..

هكذا كل شيء يمكن أن يكون له على نفس الإنسان سلطان يدعو إلى
الإعجاب به ، والأولة له ، أو الخضوع والولاء بين يديه .. لا تلبث النفس أن
تتحول عنه ، وترهب فيه ، بعد الإلف والصحبة ، فإن لم تتحول هي عنه تحول
هو عنها ، حين يُبلى الدهرُ جديده ، وتُطْفئ الأيام جذوته ، وتذهب بشبابه ،
وتجمله وجلاله .

وإذن فالإله الذى يلتبس من وجوه المادة ليس هو الإله الحق الذى يستظل
الإنسان بظله ، ويحمى فى كنفه .. لأنه ظل زائل ، وكنف مهيض ، صائر إلى الفناء !
لقد عبد الماديون كثيراً من هذه الآلهة ، وسجدوا لها ، وخشعوا بين يديها
خشوع العابد لربه .

الطبيعة مثلا .. أليست إلهاً معبوداً فى قوانينها التى أسلم إليها العقل زمانه ،
وجعلها ملاذه ومعاده ، فى كل تفكير وتقدير له ؟

والنظريات المذهبية — من سياسية واقتصادية — أليست ديناً ، تقوم فى كيان
أصحابها ببادئها وتعاليمها ، كما تقوم الأديان السماوية بنشر تعاليمها وأحكامها فى عقول
أتباعها وقلوبهم ؟

والفلسفات المادية ، بصورها وأشكالها ، من وجودية وبرجانية وغيرها ..
أليست معتقداً مستولياً على وجود أصحابه ، يؤدون له ما يقوم عليه من طقوس
وأعمال ، على نحو ما يؤدى أصحاب المعتقدات الدينية للإله ، من عبادات وقربات ؟
وصور الحياة المادية التى يفرق فيها الماديون ، ويفنون وجودهم فيها ، فى فلسفة
مجنونة — من مال ، وخر ، ونساء ، وموائد قمار .. وغيرها ، وغيرها .. أليست
هذه آلهة أو شبه آلهة يطوفون بها طواف العايد بوثنه ؟

فإذا كانت الطبيعة وقوانينها ، والنظريات المذهبية وسلطانها ، والفلسفات المادية
وإغراؤها ، والمال وفتنته ، والمرأة وإغواؤها ، والقمار وسعّاره ، والخمر ونشوتها —
إذا كانت كل هذه وكثير غيرها مما يعبد الماديون ، وما يترضون به نزعة العبودية
الكامنة فيهم — أفيمكن أن تجتمع أهواء هؤلاء العابدين على معبود واحد من
هذه المعبودات ؟

إن أياً من هذه المعبودات لا يسع هذه الأهواء المتخالفة ، ولا يشبع تلك
النزعات المتفرقة ، التى لا يكاد يلتقى فيها إنسان مع إنسان ، لقاء دائماً مستمراً .

وإذن فليس يصح أن تقوم لأى منها دعوة يدعى إليها الناس جميعاً ، ويتلاقون عندها ، ليكون ديناً يعتقد ، أو إلهاً يعبد .

ولقد أشرنا من قبل إلى ما صور به القرآن الكريم هذه الأهواء المتسلطة على الناس ، حيث تقيم لها منها آلهة يعبدونها ، ويعطون الولاء المطلق لها . . . وذلك في قوله سبحانه وتعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ أفأنت تكون عليه وكيلاً ؟ أم تحسب أن أكثرهم سميعون أو معقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » ^(١) . . . ويقول سبحانه بعد هذا مباشرة : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً » ^(٢) . . .

وأنت ترى في هذه الآيات كيف يفرق الله سبحانه وتعالى بين العقل المادى الذى لا يخرج عن المادة ، ولا يرتفع عن غبارها ، وبين هذا العقل الإنسانى الذى يضع بين يديه آيات قدرته ، وحكمته ، وعلمه ، ثم يدعو إلى النظر فيها ، ليرى من خلالها الإله الحق الذى ينبغى أن يعبد ، لا تلك الآلهة التى تتولد من نزعات الضلال والهوى التى تفتش على البصر ، وترين على القلب . . . « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة » ^(٣) .

هذا وليس يشفع للماديين ، أو يخرج بهم عن تلك الصفة أن يدعوا أنهم لا يعبدون شيئاً من هذه الأشياء التى نقول إنها الآلهة المعبودة لهم من دون الله ، وإنما الذى يقوم بينهم وبينها هو إلف ومودة عن اقناع واطمئنان . . .

ونقول : إنهم عابدون لها ، رضوا بذلك أم أبوا ، شعروا به أو لم يشعروا . . . وماذا تكون العبادة غير هذا الذى هم فيه من ولاء وتقدير ، أو فناء واستغراق لما يعبدون ، وفيما يعبدون ؟

* * *

(٢) الفرقان ٤٥ ، ٤٦

(١) سورة الفرقان آية ٤٣ - ٤٤

(٣) سورة الجاثية : آية ٢٢

الإله في التفكير الإنسانى:

غير الماديين ، من لا يقيمون وجودهم فى إطار المادة ، ولا يعطون ولاهم كله لها — هؤلاء يتمثلون الإله فـسكرة مجردة ، تعيش فى كياناتهم أشبه بالخطاطر المسعد الذى يملأ وجود الإنسانية سعادة ورضى .. على صورة دأمة ، لا تنقطع أبداً ، وإن تفاوتت درجات الإحساس به بين الناس ، وفى مختلف أحوال الإنسان الفرد ذاته .

وهذا التصور للإله لا يمكن أن يجد له العقل وجهاً يراه عليه ، لأنه يقوم على غير صفة معروفة يطلبه الإنسان عليها ، ويهتدى اليه بإشارات ووحيا . ومن هنا كان مثل هذا الإله عرضة لأن يضل الإنسان طريقه إليه ، وأن يفتقده يوماً فلا يجد على الصورة التى عهد عليها ، أو يجد لها آخر ، أو خاطراً جديداً حل محله ، وشغل مكانه !

وإذن فما الإله الذى يمكن أن تتجه إليه العقول والقلوب ، وتتلاقى عنده النزعات والرغبات .. فى الإنسان الفرد ، وفى الناس جميعاً ، ثم تجد فى رحابه المجالات التى تتحرك فيها إلى كل اتجاه ، وإلى غير مدى ؟

الإسلام والإله الذى يدعو الناس إليه :

والإسلام يستطيع أن يجيب على هذا السؤال الإجابة الصحيحة ، التى لا تنقضها الأيام ، ولا تغيرها الأحداث ، ولا الأحوال .

* « قل .. هو الله أحد .. الله الصمد .. لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد »^(١) .

هذا وجه اللاهوتية ، تستطيع الإنسانية كلها أن تتجه إليه ، وأن تطالع فيه

قَامَالُهَا ، وَأَنْ تَسْنَدَ إِلَيْهِ وَجُودَهَا ، وَأَنْ تَمْدَّ إِلَيْهَا يَدَهَا .. فَتَمْسَكَ بِأَوْتَقٍ مِنْهُ الْعُرَى ،
وَتَلُوذُ بِأَقْوَى الْقَوَى ..

* * *

* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .. لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ .. لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ؟ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ،
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - وَلَا يَئُودُهُ
حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ^(١)»

وهذا وجه آخر للألوهية ، يمرضه الإسلام فيرى فيه الناس القُدرة القادرة
القائمة على هذا الوجود ، الحافظة لنظامه ، والتي لولاها لاختل هذا النظام واضطرب ،
أو لكان عرضة لأن يختل ويضطرب ، فلا يسمى الإنسان أو يصبح إلا وهو مهدد
بالكوارث والمهلكات التي تزول بها السموات والأرض !
وكيف يقوم هذا الوجود ، وكيف تتحرك كائناته السماوية والأرضية بلا قائد
ومدير ، دون أن تتصادم ، وتهاوى ؟

أرأيت إلى ميدان من تلك الميادين القائمة في المدن الكبيرة ، وقد انطلقت فيه
السيارات إلى كل اتجاه .. ثم — وعلى غير إرادة — تراخت أيدي السائقين عن
عجلات القيادة لهذه السيارات المنطلقة أو جمدت عليها .. فماذا يكون ؟ وما مصير
الذين تقلهم تلك السيارات ؟ إنه التصادم المتفجر الذي يذهب بالمرأى والراكبين !!
إن هذه الصورة التي يمرضها الإسلام للألوهية تعطى الناس جميعاً شعوراً
الطمأنينة إلى النظام المسك بالوجود .. ذلك النظام الذي تقوم عليه قدرة حكيمة
عالمة ، لا حدود لقدرتها ، وحكمتها ، وعلمها .

ألم ترَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ ، وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ
السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرْحِيمٌ رَحِيمٌ ^(٢)» ..
إِذْ مِنْ رَأْفَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بَعَادَهُ أَنْ حَفَظَهُمْ مِنْ تَوَقُّعَاتِ الْاِخْتِلَالِ لِهَذَا الْكَوْنِ ،

ومن تعرضه لضربة عمياء تذهب بكل شيء فيه ! فإن مثل هذا الشعور لو تسلط على الناس لما أقامهم لحظة من ليل أو نهار على جناح أمن أو غرار .

* « هو الله .. الذى لا إله إلا هو .. الملك .. القدوس .. السلام .. المؤمن .. المهيمن .. العزيز .. الجبار .. المتكبر .. سبحان الله عما يشركون .. هو الله .. الخالق .. البارى .. المصور .. له الأسماء الحسنى .. يسبح له مافى السموات ، ومافى الأرض .. وهو العزيز الحكيم ^(١) » .

وجوه كثيرة لا حصر لها .. كلها حسن ، وبهاء ، وجلال .. يتملأها الإنسان فيرى فى كل منها ما يملأ عاينه وجوده طمأنينة ، ورضى ، وسعادة .. إذ كانت حياته فى ضمان هذه الذات تتصف بتلك الصفات التى لا حدود لسكناها ، ولا نهاية لسلطانها !

إلى هذا المفهوم الواضح القويم ، الذى لا التواء فيه ولا غموض ، يحمل الإسلام إلى الناس الدعوة إلى الله ، ويقيم وجوههم إليه ، وبهذا يستطيع الناس جميعاً على اختلاف أفكارهم ومنازعاتهم ، وعلى تفاوت حظوظهم ومنازلهم فى العلم والمعرفة أن يروا الإله ، وأن يعمل العقل ، والضمير بينهم وبينه ، صلة تقديس ، وولاء ، وحب ، وعبادة !

فن غلبت عاينه للمادية كان هذا الوجود فى أرضه وسمائه ، وفيما فى أرضه وسمائه — مرآة يرى فيها آيات الإله ، وما يتجلى فيها من روائع العلم ، والحكمة ، والقدرة ، والتى تشهد شهادة قاطعة قائمة على سمت الواقع الحسوس أنه واحد لا يشاركه أحد ، فيما صور وأبدع :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وماذا ينكر الماديون في هذا الموقف، الذي يقفونه بين يدي الله، على مسرح الطبيعة، وفي مواجهة آياتها وروائعها؟

إن الواحد من هؤلاء الماديين ليقف بين يدي مصنوع من تلك المصنوعات التي أودعتها يد عالم فنان . . في لحن موسيقى، أو تمثال، أو صورة، أو قصيدة . . فيتخاشع بين يدي هذا المصنوع ويتخاضع له، وتحضره حال من الدهش والبهر، وتستولي عليه مشاعر من الروعة والجلال أمام هذا العمل الرائع المعجب، ثم لا يلبث أن ينتقل بمشاعره تلك، وبالخال التي استولت عليه إلى صاحب هذا العمل، فيتمثله في خاطره صورة يتعشقها، وقد يعبدها . . وإن لم يكن قد رأى هذا الفنان، أو سمع عنه، أو استدل على ملامحه من صورة أو تمثال!

فلم ينكر هؤلاء الماديون أن يقفوا بين يدي رب هذا الوجود، وصانعه، ومبدعه— هذه الوقفة التي يقفونها بين يدي مصنوعات المصنوعين، ومخلوقات المخلوقين؟

« أَمَّنْ جَمَلَ الْأَرْضِ قَرَارًا، وَجَمَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا، وَجَمَلَ لَهَا رَوَاسِيَ، وَجَمَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا؟ أَلَا إِلَهٌُ مَعَ اللَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »^(١)

« أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ؟ أَلَا إِلَهٌُ مَعَ اللَّهِ . . تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »^(٢).

فهذه آيات من الفن الرفيع الذي لا تتناهى قدرة فنان، ولا تقوم عليه دعوى يدعيها أحد لنفسه، أو يقول إنها من عمل يده، أو يد أحد من المخلوقات، من جنسه أو غير جنسه!

فَنَنْصَرِّفُ صَاحِبَ هَذِهِ الْآيَاتِ؟ وَمَنْ صَانِعُهَا؟

« أَلَا إِلَهٌُ مَعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . . إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٣).

(٢) سورة النمل: آية ٦٣

(١) سورة النمل: آية ٦١

(٣) سورة النمل: آية ٦٤

فإذا لم يكن ثمة برهان لأحدٍ عليها . . فلن هي إذن ؟ وإلى أى صانع تنسب ؟ إنها — بلا شك ، ولا امتراء — لهذا الخالق العظيم ، الذى تفرد بالوجود ، على تلك الصفات الكمالية ، التى أهدع بها ما أبدع ، وصور ما صور !

إنه إذن هو الذى ينبغى أن يكون له الولاء كله ، والحب كله ، والتقديس كله . . ثم ليسكن له من الأسماء الحسنى ما يليق به ، وبجلاله ، وعظمته . . « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » . . إنه ليست للماديين حجة تخرجهم من هذا الإلزام ، الذى يقضى عليهم أن يكونوا هم وما يعبدون من آلهة — مصنوعين للصانع العظيم ، وأن يكونوا هم وآلهتهم تلك مقودين له ، خاضعين لسلطانه : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » . .^(١)

أما غير الماديين ، أو الماديين الذين لم يفرقوا فى المادة إلى أذقانهم أو آذانهم ، فإن دعوة الإسلام لهم إلى الإله الذى أقام فيها وجوه الناس جميعاً إليه — هؤلاء وهؤلاء جميعاً سيجدون فى هذا الإله — كما يدعو إليه الإسلام — أكمل كمال يطلبونه ، وأجمل جمال يتمشقونه ، وأمنع حصن يلوذون به ، وأرحم راحم ، وأسمع سامع ، وأبصر مبصر ، وأكرم معط ، يمدون أيديهم له ، ويرفعون وجوههم وأبصارهم إليه ! ومن هنا لم يكن للناس جميعاً على اختلاف ما بينهم ، فى تصورات عقولهم وفى خطرات قلوبهم ، وفى خلجات ضمائرهم ، وفى منازع آمالهم ، وفى مهوى أفئدتهم — لم يكن لهم انفكاك عن الاتجاه إلى الله ، والنجوى إليه ، أينما كانوا ، وعلى أى حال كانوا !!

فالإله الذى تبشر به الشريعة الإسلامية ، وتدعو الناس إلى الولاء والعبودية له . . هو قوة حكيمة عالمة ، قادرة ، مدبرة . . لا حدود لسلطانها ، ولا معقب لحكمها . . يراها الإنسان بعقله وقلبه جميعاً ، رؤية تسكن إلى كيانه ، وتعلأ

وجدانه وشعوره إيماناً و يقيناً ، دون أن يكون للعواس — ومنها العقل — سبيل إلى لقائه لقاءً واقعاً مباشراً .

ومع هذا الوضوح المشرق لكل من ينفذ الحق ، ويطلب الهدى ، في غير لجأج ، أو عناد ؛ فإن كثيراً من ظنون الإلباس والشك والضللال تدخل على بعض العقول ، فتقيم بينها وبين هذه الحقيقة المشرقة حجبا من الغبار والغيوم ، فتختبئ في الظلام ، وتضرب في متاهات ، لا ترى فيها للحق وجهاً .

فتلا . . في هذا القول بالإلآة المطلق ، المتفرد ، القائم على هذا الوجود ، الآخذ بنافسية كل موجود فيه — هذا القول من شأنه أن يفقد الإنسان وجوده وبشلاً تفكيره ، ويقيد خطوه ويمسك زمامه ، فلا يتحرك حركة ، ولا يعمل عملاً إلا في ظل هذا الإحساس ، الذي يرى المؤمنون من خلاله يد الإلآة تملأ الوجود كله ، وتمسك بكل ذرة من ذراته .

وأيّن الإنسان إذن في هذا الوجود الذي يصور على تلك الصورة ؟ وهل للإنسان بوضعه هذا — من حيلة يحتملها ، أو من طريق يسلكه ؟ وكيف ؟ وقد سُدّت المسالك ، وبطلت الحيل ؟

تلك مقولات ، ومما حَكَات ، وتلبّيسات يُلقي بها العقليون وأشباه العقليين بين يدي هذا القول القوي بقوله الإسلام في الإلآة ، ويصفه به ، ويصوره عليه !

وهذا الفهم الخاطيء لصفات الله ، وما ينبغي أن توصف به من كمال مطلق ، ثم قيام الشريعة الإسلامية في ظل هذا الإحساس بكمال الله للمطلق ، وقدرته المطلقة — هذا الفهم قد أغرى بعض المستشرقين باتهام الإسلام بأنه دين استسلام ، وخضوع ، واستذلال . . وأن هذا الشعور الذي قام في كيان المسلم تجاه الله قد ترك آثاراً سيئة في المجتمع الإسلامي ، أدت إلى هذا الركود والجمود ، الذي يسرى في كيان المجتمع الإسلامي كله ، حيث ألقى المسلمون بوجودهم كله في ظل الإلآة . .

مستسلمين لنوم عميق ، في ليل طويل ، لا تطامح له شمس ، تبهث الدفء والدفقة في هؤلاء النيام !

وقد أعان على هذا الفهم الخاطئ ما يعانیه المسلمون في مواطن كثيرة ، من ضعف وفقر ، وذلة ، بعد أن دارت بهم دورة الحياة ، فأنزلتهم عن مكان العزة والقوة والغلب فيها ..

ولو نظر هؤلاء الناظرون إلى المسلمين في أيام مجدهم وعزمهم وغلبتهم لما وجدوا لهذا الضلال وجهاً يخرج به إلى الحياة ، ويواجه الناس ..

يقول « جولد تسيهر » .. المستشرق المجري :

« الإسلام معناه الانقياد .. انقياد المؤمنين لله ..

فهذه الكلمة تركز أكثر من غيرها الوضع الذي وضع فيه « محمد (١) » ، المؤمنين بالنسبة لموضوع عبادتهم — يعني الله —

« لأنها — أى الإسلام — كلمة مصطبغة فوق كل شيء بشعور التبعية القويّة ، الذي يحس به الإنسان إحساساً قوياً أمام القدرة غير المحدودة ، والتي يجب أن يخضع لها ، وينزل في سبيل ذلك عن إرادته الخاصة ..

فهل حقاً أن الإسلام يسلب الإنسان إرادته وقوته ، إذا هو جعل لله وحده القوة والإرادة ، والعزة ، والعلم ، والقدرة ، وغيرها من صفات الكمال ؟

الإسلام يعترف اعترافاً صريحاً مؤكداً في كثير من آيات القرآن الكريم بما ينبغي أن يقال في شأن الله ، وما يجب أن يصفه المؤمن به ، من صفات الكمال ، وأنه سبحانه قائم على كل شيء « لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض

(١) لا يريد المستشرقون أن يفهموا أبداً أن محمداً رسول الله ، وأن الإسلام وحى سماوى من الله إليه .. بل إن فهمهم للإسلام إنما هو على أنه عمل من عمل محمد ، وتديير من تدييره !

ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين»^(١).. «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابِعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرُ إلا هو معهم أينما كانوا»^(٢).. «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»^(٣).. «وعنده مفاتيح الغيب لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ. وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ»^(٤).. فهذه الآيات وكثير غيرها تحدّث عن الله سبحانه، بأنه وحده مالك الوجود، وإليه الأمر كله ، لا يَشْرِكُ فيه أحد ، في قليل أو كثير . «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ.. تَبَارَكَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٥) .

ومع هذا كله الذى لله ، فإن للإنسان وجوده الكامل ، كما أن لكل كائن وجوده الذى يقوم عليه فى هذا الوجود، بما أودع فيه الخالق العظيم من قوى مقدرة.. بحسب دوره الذى يؤدیه . . «الَّذِى أُعْطِيَ كُلُّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»^(٦) .

ولما كان الإنسان على تلك الصفة الكريمة التى وصفه الله بها ، وفى تلك المنزلة العالية التى أحلّه فيها بين المخلوقات — فإنه يحمل قوى كثيرة لا يملكها كثير غيره من الكائنات ، وكما وصف القرآن الإله بهذه الصفات ؛ ودفع الإنسان بصفات تليق به ك مخلوق كريم ، له وجوده الذاتى ، وله عقله ، وتفكيره وإرادته، ومفازعه ، وسميه فى الحياة !

فالإنسان فى القرآن ليس مجرد «شئ» مسلوب التفكير ، منزوع الإرادة ، مقيد الخطو ، بل هو «كائن» عظيم ، محلّ برسالة كريمة ، إلى هذا الكوكب الأرضى ، الذى نعيش فيه ، وهو أن يعمّره ، ويوجّه تلك القوى التى أودعها الخالق فى كيانه ، إلى امتلاك ناصية الموجودات التى سخرها الله له ، ووضعها بين يديه :

(٢) سورة المجادلة آية ٧
(٤) سورة الأنعام : آية ٥٩
(٦) سورة طه : آية ٥٠

(١) سورة سبأ : آية ٣
(٣) سورة غافر: آية ١٩
(٥) سورة الأعراف : آية ٥٤

« وَاللّٰهُ جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطَةً ، لِّفَسَلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ^(١) » .

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُزَيِّجُونَ وَحِينَ تُسَرِّحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْفِيءِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنْ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَّحِيمٌ ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ، وَزِينَةً ^(٢) » .

« وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْوُجُوهَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ^(٣) » .

« وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظُلُمَاتٌ ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَّكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَّكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ ^(٤) » .

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ^(٥) » .

فهذا الوجود كله — الوجود الأرضي على الأقل — هو مملكة الإنسان ، وهو المسرح الذي يتحرك فيه ، ويمثّل عليه الدور الذي أعدّ له ، وخلق من أجله ..

فكيف يقال مع هذا — إن الله — في مفهوم الإسلام — لم يدع للناس مجالاً يعملون فيه ، ولم يترك لهم فراغاً نفسياً أو عقلياً يفكرون إليه ؟ .

وكيف يستساغ هذا مع دعوة الإسلام للإنسان : أن يسعى ، وأن يعمل ، وأن يحصل ما يقدر عليه من الخير لنفسه ولمن حوله ، وللناس ، وللحياة كلها ؟ .

« وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ، وَالْمُؤْمِنُونَ ^(٦) » .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ، وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^(٧) » .

« مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ^(٨) » .

(٢) سورة النحل : ٨

(٤) سورة النحل : ٨٠

(٦) سورة التوبة : ١٠٦

(٨) سورة فصلت : ٤٦

(١) سورة نوح : ١٩ ، ٢٠

(٣) سورة الأنعام : ٩٧

(٥) سورة الإسراء : ١١٠

(٧) سورة الزمر : ٨

« كلُّ امرئ بما كسبَ رهين (١) » .

فهذه دعوة بل دعوات إلى العمل والتحصيل ، في مجال الحياة المادية والمعنوية جميعاً . فمن عمل خيراً فقد ربح دنياه وآخرته . . ومن عمل سوءاً فقد خسر الدنيا والآخرة . . ذلك هو الخسران المبين » .

لقد رفع الإسلام عن الإنسان هذه اللعنة التي كانت قائمة على رأسه ، مستولية على وجوده ، كما صورتها بعض الأديان له ، فلم يكن له في ظل هذه اللعنة أن يرفع رأساً ، أو يستشرف بخير ، أو يتشوف إلى أمل . ! فلما جاء الإسلام وضع الإنسان في شريعته في هذا الموضع الكريم ، فهو الذي سجدت له الملائكة ، حين طلع بوجهه في هذا الوجود ، وهو إن أُخرج من الجنة ، فقد قام على ملك رحيب عظيم هو هذه الأرض . . قام عليه ، ليخلق بنفسه جناحين قوين يطير بهما إلى العالم العلوي ، الذي خرج منه !

وإذن فلا محلّ لمثل هذا القول الذي يقول به أولئك الذين ينظرون إلى الإسلام تلك النظرة التي لا تستقيم على حق ، ولا تقوم على واقع — ولكن الذين ينظرون إلى الإسلام بعين رمضاء لا يرون في الإسلام إلا أنه سجن مطبق أغلق على أهله . . فلا يرون شمساً ، ولا ينسمون هواء !

يقول فون جرونباوم : « فقد اهتم الدين الجديد — يعني الإسلام — بأن يؤكد ألا خالق إلا الله ، وأنه مطلق القدرة على كل شيء . . ولم ينس أن ينكر على الإنسان كل قوة تثير فيه القنوط بكفاية ومواهبه ، وتزعزع موقفه في علاقته بالله (٢) » .

وهذا حق في جملة . فالإسلام يجعل لله ما ينبغي له من كمال . . فهو الذي بيده ملكوت كل شيء . . « إليه بُرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ،

وما تحمل من أنثى ، ولا تضع إلا بعلمه»^(١) . وما يُعمر من مُعمرٍ ولا يُنقص من
عمره إلا في كتاب ، إن ذلك على الله يسير .

وفي هذا الإيمان بقدرة الله وعظمته ما يعصم الإنسان من الافتتان بنفسه ،
والاغترار بماله ، أو قوته ، أو سلطانه ، وفي هذا حماية للناس من أن يقوم فيهم
المفرورون المتجبرون ، الذين يقومون فيهم مقام الآلهة ، ويقولون لهم قوله فرعون
لقومه : « أنا ربكم الأعلى » ، وفي هذا أيضاً حماية لمثل هذا الإنسان أن يذهب
به الاغترار هذا المذهب ، فيكون في الناس شراً يُتقى ، وبلاء يُحاذر ؟

هذا حق . . .

ولكن ليس من الحق ما يقوله « جرونيباوم » بمد هذا ، أو تعميقاً على هذا .
إذ يقول :

« ثم إن الدين — يقصد الإسلام — وقف سداً دون الإيمان بقدرة الإنسان
على الخلق ! ، وقد صور القرآن المسيح يخلق من الطين هيئة الطير ، ثم ينفخ فيه
فيكون طيراً بإذن الله .

« فالنفان الذى يخلق الأشكال قد يكون فى إحساس الناس منافساً لله فى
أخص صفاته ، وفى يوم القيامة يسأل صانعو التماثيل أن ينفخوا الحياة فى تهاويلهم
وتماثيلهم فيمجزون ، فيؤمر بهم إلى النار خالدين فيها »^(١)

فأى خلق ، ذلك الذى وقف بالإسلام سداً دون إيمان الإنسان بقدرته عليه ؟
أهو الخلق بمعناه الحقيقي ، أى خلق تلك المخلوقات الحية من إنسان وحيوان ؟
لا نظن ذلك يكون مراد هذا السيد ، لأن هذا ما استأثر به الخالق جل وعلا . .
« بأبيها الناس ضُربَ مَثَلٌ فاستمعوا له .. إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا

ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُف الطالب والمطلوب»^(١).. إن الإنسانية كلها في أجيالها الماضية والآنية لن تخاق ذباباً .. وذلك هو الحق ، وهو الواقع ، لا جدال فيه .. ومع هذا فلم يحجر الإسلام على الناس أن يحاولوا ، وأن يجربوا ، وأن يُعمِلوا قواهم كلها في هذا الاتجاه الذى ينزع بهم إلى الخلق في صورته الحية .. فليحاولوا ، وليجربوا .. فإن التجربة آخذة بهم حتماً إلى الإذعان لقدرة الله ، والاستسلام لسلطانه !!

بقى أن يكون المراد بالخلق « هو المضاهاة لما خلق الله ، بالرسم ، أو النحت . والإسلام لا يقف سداً في وجه الإنسان إذا اتجه لمثل هذا الخلق ، مادام ذلك لا يدخل منه على قلبه شيء من مشاعر الوثنية ..

إذا كان للإسلام وقفة في هذا ، فهي وقفة كانت موقوتة بوقتها ، يوم كان الناس حديثي عهد بعبادة الأصنام .. أما وقد عرف الناس حقيقة هذه المعبودات التى كانوا يتخذونها مما ينحتون أو يصورون ، فإنه لا ضير بعد هذا فى أن يَفْتَنَ الناس فى إخراج ما يُقدِّروهم عليه فنهض من صور وتماثيل .. ولهذا فإن الإسلام لم يكن أبداً ليحول بين الناس وبين ما تنطلق إليه عقولهم ، وما تنزع بهم إليه نوازعهم ، إلا أن يكون فيه إفساد وتضليل .. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ، وذلك فى أول الدعوة الإسلامية ، والناس قريبو عهد بالجاهلية وأوثانها ، وفى المقابر تتراعى صور الأوثان وأشباحها ، فأراد الرسول بهذا الحظر أن يحمى الناس — فى هذا الدور من حياتهم — من أن يحوموا حول هذه الشبهات فيقعوا فيها .. ثم إنه ما كادت العقيدة الإسلامية تستقر فى القلوب ، ويتعرف الناس على وجهها الصحيح ، حتى رفع النبي الكريم هذا الحظر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ألا وقد كنت نهيتكم عن زيارة القبور .. ألا فزوروها ، فإنها تذكركم بالموت ..

ومن ذلك أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم كان قد نهى عن الانتباذ^(١) في بعض الأوعية ، وذلك بعد تحريم الخمر ، ثم بعد أن استقر مفهوم الحكم الإسلامى في الخمر ، في نفوس المسلمين ، وعرفوا موقفهم منها — أباح الرسول الكريم الانتباذ في هذه الأوعية التى تؤثر في الشئ المنبذ فيها .. وهى « الدباء » — أى القرع — « والحنتم » — وهى جِرار مدهونة — « والفَقِير » — وهو أصل الذخلة ، ينقر وسطه — « والمزقت » — أى المطلى بالزفت ..

وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : « ونهيتكم عن الشرب في هذه الأوعية ، فاشربوا ما شئتم إلا من أوكى^(٢) سقاءه على إثم » ،

أما الصور والتماثيل وما إليها فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له نهى عنها، إذ لم يكن العرب ممن يمارسون هذه الأعمال في جاهلية ولا إسلام ، وما عرف لهم شئ من هذا الذى عرف للفرعنة والرومان والفرس وغيرهم، ممن عُنُوا بأعمال الرسم والنحت ، ولو كان للنبى صلى الله عليه وسلم نهى عن هذه الأعمال في أول الإسلام لكان له قول في رفع الحظر عنها ، كما فعل — صلوات الله وسلامه عليه — فى النهى عن زيارة القبور ! وأما هذا الحديث الذى يسوقونه فى هذا الشأن فهو من الأحاديث الموضوعة ، الذى يمكن أن يكون مما استعان به بعض أصحاب الورع المريض ليحجموا حى الإسلام — كما يظنون — أن تدخل عليه هذا البدع الجديد ، حين اتصل المسلمون بفارس والروم ، ورأوا ما عندهم من الصور والتماثيل ، التى تملأ القصور ، وتزين الحاربي ، والتى تعتبر جانباً من جوانب الحياة ، التى يهتم لها الناس ، ويقفون عندها ، ويقيمون الأسواق والمخافل لها .

وإنها لقولة كبيرة تلك التى تقال عن الإسلام من أنه يقف سداً فى وجه قوى الإنسان ومملكاته ، فيما لا يجوز على شئ من دينه أو دنياه !

(١) الانتباذ أى تقع البلع ، والزيب ونحوها ، فى عملية أشبه بعمل « الحشاف »

(٢) أوكى : أى غطى ، أو أغلق ، أو ربط

قول على حديث
عن بعض مشركي
الفرس
نظروا
فيما في بيوتهم

وما غاية الإسلام من مثل هذا الإعانة للناس؟ أهو شهوة تسأط وقهر وتحكم؟ وكيف والله سبحانه وتعالى يقول: «ما جعل عليكم في الدين من حَرَجٍ» .. ويقول سبحانه في صفة نبيه، وفي صفة الدعوة التي بين يديه وعلى فمه: «الذين يتَّبِعُونَ الرِّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ» .. فالإسلام إنما جاء ليفك هذه القيود، ويرفع هذه الآصار، وتلك الأحكام، التي كانت تتحكم في الناس، وتأخذ منهم بالأنواصي والأفهام.

ثم كيف يقف الإسلام في وجه التماثيل — القائمة للفن، لا للعبادة — هذه الوقفة، ويتوعد صانعيها بالخلود في النار؟

كيف والقرآن يذكر لسليمان عليه السلام ما كان من فضل الله عليه — فيما سخر له من شياطين: «يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، وجِفَافٍ كَالْجَوَابِ»^(١)، وقدور راسيات .. ثم ينهبه سبحانه إلى ما ينبغي إزاء هذه النعم من شكر للنعم: «اعملوا آل داود شكرًا، وقليل من عبادي الشكور»؟ أفيصح أن يكون بين يدي نبي كريم كسليمان نعمة هي في حقيقتها منكر يفتكر الإسلام له، وينهى عنه؟ ذلك أمر يقع موقع الاستحالة منطوقًا، وديانة!

ولا يقف «جرونيباوم» عند حد اتهام الإسلام بالوقوف في وجه الملكات الإنسانية بالنسبة للتماثيل والصور ونحوها، مما كان حظره في أول الإسلام، للحكمة التي أشرنا إليها، ولكنه — أي (جرونيباوم) — يتهم الإسلام بالتحكم المطابق في كل ملكات الإنسان ومنازع تفكيره، فلا يسمح لشيء منها بالحركة والعمل ..

يقول « جرونيباوم » :

« والعالم الإسلامي من حيث المبدأ كونه ثابت ، يسيطر عليه الوحي والسنة النبوية . . وبالضرورة يصبح العمل العلمي فيه جمعاً وترتيباً . .

« أما البحث والتفسير التحليلي فيمثلان مرتبة ثانية . .

« ولا يعتبر الدارس لمظاهر الطبيعة — وهو يرقبها منهمكا في استطلاع طلوعها — معرضاً أو تجليات حقيقة مخلوقة متولدة ، إذ أهم من ذلك عنده أن يستكشف الطرق الإلهامية المعجزة ، لا أن يفهم طبيعة الحقائق الطبيعية ، ومدى صحتها .

« وفي مثل هذه النظرة يحل التعجب التقى بحل الدهشة الحافزة ، التي كانت توجه الإغريق وتستثير تفكيرهم ! ! »^(٢)

يا سبحان الله !!

أي أكثر إدراكاً للوجود ، وتعاطفاً مع الموجودات . . وأي أكثر عجباً ودهشاً لما تجن هذه الموجودات من عجائب وأسرار . . أذلك الذي ينظر إلى الوجود وموجوداته على أنها صنعة عليم حكيم خبير . . أم ذلك الذي ينظر إلى هذا الوجود وتلك الموجودات نظرة عنادية مادية باردة . . لا تعطى إلا إذا أخذت ، ولا تعطى على شيء أو تمنعطف عليه إلا إذا كان وراءه نفع عاجل ظاهر ؟

إن الفرق شاسع بعيد ؛ بين من ينظر إلى عمل فني يعلم من صاحبه أنه صانع مبدع ، يخلق الخالدات من بنات الفن — وبين من ينظر إلى هذا العمل في عرض الطريق ، دون أن يعرف له صاحباً ، أو صانعاً ؟

ثم يقول « جرونيباوم » بعد هذا : « ولو قارنا الإسلام بما لدينا من حضارة

— يقصد الحضارة الأوروبية — لوجدناه لا يعتبر معرفة الكون في ذاتها غاية من غايات الثقافة .

ولذلك الدبيب تظل العلوم الطبيعية والتطبيقات لها ، على هامش الدراسة . .
وليس معنى هذا أن ما أداه الأفذاذ العلماء في هذا المجال لم يكن بارزاً ساطعاً . (١)
ونسأل : إذا كان الإسلام قد دعا إلى النظر في هذا الوجود في مجال التعرف على الله . . فهل قابل هذه الدعوة بدعوة أخرى تحظر على الناس أن ينظروا في هذا الوجود لحساب حياتهم ، ومن أجل منفعتهم ؟ وهل كان على الإسلام أن يدعو الناس إلى ما تدعوهم إليه الحياة ، وتلحّ في دعوتهم إليه لتحصيل المنافع من كل وجه من وجوه الحياة ؟ إن ذلك لا يليق بتشريع يخاطب إنسانية عاقلة رشيدة ، لها آمال ، ومطامح في الحياة ، ولها سلطان وقدره عليها . . لقد بلغ الإنسان رشده ، وأصبح في غير حاجة إلى من يأخذ بيده إلى الإيمان بالله ، والثقة به ، والعمل في ظله .

* * *

وبعد ، فهل في هذه الدعوة التي دعا بها الإسلام العقل إلى الله ، وبهذا الأسلوب الاستدلالي الذي حملته تلك الدعوة — يستطيع العقل أن يصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الأمر ، وأن يستدل على الله ، ويتعرف إليه ؟

والجواب يمكن أن يكون « نعم » ، وأن يكون « لا » في وقت معاً . .
« نعم » لأن الواقع يشهد لهذا ، فبين يدي هذا الجواب تلك الملايين التي عرفت الله عن طريق هذه الدعوة ، وآمنت به ، وتعاقبت أجيالها عليه .

« لا » لأن الواقع يشهد لهذا أيضاً . . وبين يدي هذا الجواب ملايين كثيرة سمعت هذه الدعوة فلم تُصنَحْ إليها ، ولم تفتح لها قلبها ولا عقلها ، بل ظلت آخذة طريقها إلى غير الله !

بقى بعد هذا أن نسأل : أين الحق إذن ؟ أمع أولئك الذين أصغفوا إلى العقل ووجهوه على نحو ما وجهته إليه دعوة الإسلام واستجابوا لها ، أم هو إلى جانب أولئك الذين أعطوا هذه الدعوة آذاناً غير واعية ، وصرفوا عقولهم وقلوبهم عنها ؟ وهنا يحتاج الأمر إلى وقفة نُدير فيها النظر بين الحقيقة الدينية التي يعرضها الإسلام ، وبين تلك العقول المتلقية لها ، والناظرة إليها . . . فقد عرفنا أن هناك تركيبات من العقول يفسرها أصحابها قسراً على أن تلتزم - بسود المادة ، ولا تخرج عنها ، كما عرفنا أن هناك عقولا أخرى لا يقف منها أصحابها هذا الموقف ، بل يطلقون لها الزمام ، لتنتقل في كل اتجاه ، وتحلق في كل أفق ! وبين هذه العقول وتلك أنماط من العقول تملأ الفراغ الذي بين هذين الطرفين !!

والحقيقة التي يعرضها الإسلام لمفهوم الألوهية لا تخضع لمنطق المادة ، ولا توزن بميزان الحسوسات . . . وإن العقل مهما دار حولها وأجهد جهده في البحث عنها فلن يستطيع أن يضع يده عليها ، وأن يستيقن وجودها ، هذا الوجود الذي يشهده في واقع الحس ، ويقنأ له بحاسة أو أكثر من حواسه .

فالحقيقة الإلهية أكبر من أن تدركها العقول ، أو تحيط بها الأبصار كما يقول الله تعالى في وصف ذاته سبحانه : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .. ذلك هو أعدل وصف ، وأصدق في صفة الخالق سبحانه وتعالى .. فإنه لو وقع في مجال الإدراك الحسى لسكان محدوداً محصوراً في سلطان الحاسة المتسلطة عليه !

وعلى هذا فالعقل محجوز عن أن يرى شيئاً واضحاً محدوداً عن الذات الإلهية ، ولو وقع « الله » في مجال الإدراك العقلي ، لسكان محدوداً محصوراً في مجال العقل ، الذي لا يخرج عن كونه حاسة في هذا المجال المحدود ، الذي يدور فيه ، فيما بين التراب والسحاب .

وقد أدرك المسلمون هذه الحقيقة إدراكاً واضحاً ، فتلقَّوا ما جاء به القرآن الكريم عن الذات الإلهية بالتسليم ، دون النظر في كقيتها ، أو البحث عن كنيها ، وجعلوا العقل بمنزل عن التطلع إلى شيء من ذلك ، إذ أن هذا التطلع لا يسلمهم إلا إلى الشرود والضلال ..

يقول ابن عربي : « إن من يؤمن بانياً إيمانه على البراهين والاستدلالات لا يمكن الوثوق بإيمانه ، لأنه مستمد من الفكر والنظر ، ولهذا فهو إيمان يتأثر بالاعتراضات »^(١)

ويقول « المطار » :

« عندما تتجلى الحقيقة — يريد الحقيقة الإلهية — يرتد العقل ، لأن العقل هو الأداة التي تستخدم لمعرفة العبودية ، وليس للوقوف على الكنه الحقيقة للربوبية »^(٢) .

ويقول الغزالي : « فاعلم أن الساعى إلى الله لينال قربة ، هو القلب ، دون البدن ، ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس .. بل هو سر من أسرار الله عز وجل .. لا يدركه الحس ! »^(٣)

هذه مقولات لثلاثة من فلاسفة المسلمين ، الذين انتهت بهم الفلسفة إلى التصوف .. بعد أن استقيأسوا من أن يبلغ بهم العقل شيئاً فيما كانوا يريدون أن يبلغوه بفلسفتهم ، من الكشف عن أسرار هذا الوجود ، والتعرف على النظام المسك به .

وإن هذا الحجاز الذى بين العقول وبين الوصول إلى الله قد يظل هكذا

(١) العقيدة والشرعية فى الإسلام لجولد تسيهر ص ١٧٢

(٢) تذكرة الأولياء جزء ٢ ص ٢٧٤ ، لفريد الدين المطار

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي جزء ١ : ٥٤

قائماً أبداً يزداد كثافة وظلاماً كلما مَكَرَ الإنسان بعقله ، أو مكر به عقله ، فأبى أن يقبل أو يتقبل إلا الحقائق التي يبصرها بعينه ، ويلبسها بيده . . على حين أن الحقيقة الدينية الكبرى لا تبدو على هذه الصفة من المعالفة والمجاهرة ، بل هي محجبة وراء ستر ، تبدو رقيقة أو كثيفة ، حسب ما عند الإنسان من ميل ورغبة في الوصول إليها ، أو إباء وعناد في التحدّى لوجودها .

يقول وليم جيمس :

« إن النداء الديني موجّه نحو إرادتنا الفعالة ، وإن أدلته ستُحجب عنا حتى النهاية ، إذا لم نقابلها في منتصف الطريق ^(١) » . ويقول : « إن اعتقادك بوجود الله يبرر وجوده ، ويحقّقه ^(٢) » .

وهذه النظرة العميقة الصادقة إلى حقيقة الدين — أو بمعنى أصح إلى طريق الإيمان بالله — تكشف عن صميم المشكلة فيما بين الإيمان والإلحاد . .

فحيت تحرّكت في الإنسان رغبة إلى الله ، واتجهت نيته للتعرف عليه ، وجد طريقه مأنوساً إليه ، ووجد في كل شيء دليلاً يدلّه عليه . . وهاتفاً بهتف به تجاهه !

أما إذا قطع الإنسان — مقدّماً — بالآلة إلى عقله وحده البحث عنه ، دون أن يزوده بالأشواق النفسية ، ويمدّه بهذه العاطفة المشوقة إلى لقاء الله ؛ فإنه لن يرى الله أبداً ، ولن يرى في آيات الله لمعة من نور تهدي إليه . . وهذا ما أحب أن أفهم عليه الحديث النبوي الكريم ، « من أحب لقاء الله ، أحب لقاء الله لقاءه » ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ! . ستفهم عليه .

إن دلائل الألوهية لا توقظ النيام ، ولا تفتح العيون العمى ، ولا القلوب

الغُلف، وإنها لا تَلُوح إلا لمن استشرف لها ، وتشوف إليها ، وأطمع نفسه في الوصول إلى مواقع الحق منها .

ويقول جيمس أيضاً : « إنه ليخيل إلى أن ذلك الشعور — يقصد الشعور الديني — المفروض علينا من غير أن نعرف كيف ومن أين — هذا الشعور يكون عنصراً حيويًا من جوهر الفروض الدينية ، ^(١)

يريد أن يقرر أن هذا الميل إلى التعرف على الله ، هو طبيعة متأصلة في الإنسان ، وأن من يحاول أن يُخْلِ نفسه من هذا الشعور ، إنما يفالط طبيعة لانفالب إلا بتصدع يصيب كيان الإنسان في صميمه ، وإلا بأنهيار يأتي على وحدته النفسية ، والعقلية ، والشعورية ، ثم لا يجد بعد هذا سبيلاً إلى القرار والاطمئنان .

الاطمئنان العقلي ، والاطمئنان القلبي :

الاطمئنان العقلي ياتمه المرء فيما يختبر من شئون الحياة ، ويحده حين يتأكد له أن الشيء الذي بين يديه يحىء دائماً على صورة واحدة ، كما قامت علته ، وتهيأت أسبابه .. فهو يطمئن اطمئناناً عقلياً كاملاً إلى ما عنده من علم الأجنة مثلاً . سواء ذلك في الإنسان أو الحيوان .. فهو يعلم بالاختبار والتجربة أن الجنين يولد بعد تسعة أشهر من حملته إذا كان إنساناً ، وكذا وكذا إذا هذا الحيوان أو ذك .. وهو بهذا الاطمئنان العقلي القائم على التجربة والاختبار يواجه الحياة ، ويبني حسابته وتقديره .. وهكذا في كل شئون الحياة صغيرها وكبيرها ، بهذا الاطمئنان يعيش الإنسان مع الموجودات ، ويتعامل مع ما بين يديه منها ، فياً كل مطمئناً إلى ما اعتاد أكله ، ويمشي مطمئناً في الأمكنة والطرق التي عهد لها ، ويستخدم في تنقلاته الدواب ، والسفن والقطارات ، والسيارات ، والطائرات .. وربما العواريج مستقبلاً ..

(١) العقل والدين ص ٣٠

وكل هذا ، بعد التجربة ، وتطابق الأسباب والمسببات .. ومن هنا كانت هذه الأشياء وأشباهاها تجري في حياة الإنسان على صورة آلية ، لا تتغير في كيانه مشاعر من سخط أو رضى .

وأما الاطمئنان القلبى فإنه راحة يجدها الإنسان في شعوره ، ورضى يسكن وجدانه ، وسكينة تعمّر كيانه .. وليس لهذا الاطمئنان ضوابط تحكمه ، ولا أسباب وعلل يرجع إليه أمره فيها .. بل إن الإنسان ليستقبل أمراً من الأمور فيرتاح إليه ، ويجد ريح السكينة والرضا من جهته ، دون أن يجد لذلك دليلاً ، بل إنه لو التمس الدليل فلربما جاء بما ينقض اطمئنانه ، ويزعج سكينته .. ولكنه بهذا الشعور الخفى يكذب كل الأدلة ، ويخالف كل الشواهد ، ويمضى على حكم شعوره وما حدث به قلبه .. فإن للقلب حديثاً لا يكذب ، ووعداً لا يخلف ، وإن لم تظاھر شواهد الأحوال ، وملابس الظروف .. وفى ظل هذا الشعور من الاطمئنان نطق الأديب الروسى المعروف ، « دستوفسكى » بقوله : « لو أن أحداً قال لى إن المسيح يخاف الحق ، ولو أن هذا القول كان صحيحاً ، لآثرت البقاء مع المسيح على التزام الحق !! » .

على أنه مما يجب الالتفات إليه هنا هو أن ليس بين العقل والقلب هذه العزلة المحككة ، إذ هما فى واقع الأمر بنوعان من ينابيع العلم والمعرفة ، يصبان فى كيان الإنسان ، فيرى بهما حقائق الأشياء رؤية كاشفة ، أشبه بما يكون بين حاستى البصر واللمس ، إزاء قطعة من النسيج مثلاً ، أو ما بين حاستى البصر والشم لوردة أو ريحانة !

وعلى هذا ، فإن الاطمئنان العقلى من شأنه أن يرفد القلب بروافد قوية صافية من الاطمئنان ، وخاصة إذا كانت طمأنينة العقل منبعثة عن إدراك صحيح ، وتقدير سليم .. وكذلك الشأن فى الاطمئنان القلبى ، فإنه يفتح للعقل منافذ كثيرة تجاه تلك المشاعر والأحاسيس التى دخلت منها الطمأنينة إلى القلب ، فيتجه إليها مستأنساً ، مهتماً لاستقبال الحقيقة ، ملفقة فى هذه المشاعر وتلك الأحاسيس .

وإنه إذا كان من الممكن أن يأخذ كلٌّ من العقل والقلب سبيلَه في مواطن كثيرة من شئون الحياة ، وفي صور متعددة من صور المعرفة ، فإنه ليس من الممكن بحال أبداً ، أن يذهب هذا المذهب في شأن الحقائق الدينية ، التي لا يستطيع أى منهما أن يستقلّ باستقبال هذه الحقائق استقبالا يحقق له طمأنينة ، ذات ثبات ووضوح !

ولقد رأينا قصور العقل إزاء الحقيقة الدينية في مجال التعرف على الله ، وأنه إذا ارتاد هذه المواطن وحده ، مستقلاً بذاته ، فإنه لن يرجع آخر المطاف إلا بالحيرة والشك والارتباب !

ولهذا فإن العقل هنا مفروض عليه فرضاً — إذا أراد أن يمسك بشيء من الحقائق الدينية — أن يصحب القلب معه ، وأن يجعله رائداً له ، وأن يطمئن إلى صحبته ، ويثق في أنبائه وأخباره ، أو على الأقل ألا يكون متهماً عنده .. فإن سوء الظن هنا يفسد الصحة ، ويقطع علائق الألفة ، بل ويقع من الصداقة عداوة ، في موطن تشتد فيه الحاجة إلى من ينصح ويemin .

ولكن العقلين ، الذين يصفون أنفسهم ، أو يحبون أن يصفهم الناس بأنهم أصحاب عقول متحررة ، أو عقليات تقدمية مسنيرة — هؤلاء أصحاب القول بالحررة يرون أن من الإجراء بعقولهم ، والاستخفاف بذكائهم وعبقرياتهم أن يترقبوا على العقل رؤيته ، وأن يدخلوا به في هذا الضباب من الرؤى ، وأن يتخذروه يتخذروا الخدس والتضخيم ، ليحجى إليهم آخر الأمر بمقولة يقول عنها : إنه رأى ؛ فاعتقد ، وعرف ؛ فأمن !!

فهذا الاعتقاد وذلك الإيمان في نظرهم لم يدخل على العقل إلا بعد عملية التخدير هذه ، وبعد أن « ابتلع » كثيراً من الأوهام والظنون ، التي ما كان ليسيتها لو لم تتدسس إليه هذه المشاعر ، وتصيبه بهذا الخدر الذي خدعه عن عقله !

يقول « كليفورڊ » ، [أحد علماء الإنجائيز في الطب والتاريخ الطبيعى
— ١٨٢٥ — ١٨٩٥] .. يقول :

« إن الاعتقاد يتدنّس إذا كانت مسائله غير مبسوطة ، وكانت غير مبرهن
عليها ، وكان — أى الاعتقاد — لا يهدف إلا نحو تهديئة المعتقد ، وإدخال السرور
عليه !! »^(١)

فانظر إلى هذه « الشطحة » العقلية التى تلزم الإنسان ألا يقبل من العقل أى
معتقد ، إذا كان فى هذا المعتقد ما يبعث طمأنينة فى النفس أو روحاً للقلب ..
فذلك هو العسل الذى يحمل السم ، وهو الخدعة التى يُخدع بها العقل عن الحقيقة !!
حتى لكان معيار الحقيقة — عند صاحب هذه الشطحة وأمثاله — هو فى برودها ،
وجودها ، بل ومرارتها .. أما أن تكون مبعث طمأنينة ورضى ففى — عنده —
حقيقة مزيفة بهذا اللطاء الكاذب من المشاعر والمواطف .
ثم يقول كليفورڊ أيضاً :

« كل من يستحق تقديراً من أقرانه فى هذه الفاحية لابد أن يخفّر — أى
يحرّس — طهارة اعتقاده ، ويكون متعصباً ، وعليه غيوراً ، خوف أن يعتمد يوماً
على ما لا يستحق الاعتماد عليه من القضايا ، ويتدنس بما لا يمكن تطهيره منه أبداً !

ثم يقول : « وإذا اعتقد المرء اعتقاداً ناشئاً عما لا يكفى من الأدلة ، ولو كان
الاعتقاد نفسه حقاً ، فإن السرور الناشئ يكون سروراً منصوباً .. إنه خطيئة ،
لأنه مسروق ! ومناقض لما يجب علينا نحن بنى الإنسان .. ذلك الواجب هو أن
نحمى أنفسنا من أمثال هذه الاعتقادات ، كما يجب أن نحصى أنفسنا من الأمراض
الخبیثة ، التى قد تسرى إذا تُركت وشأنها فى الجسم كله ، ثم تنتقل فتنتشر
فى أنحاء المدينة^(٢) ! »

(١) العقل والدين ص ١٠

(٢) العقل والدين ص ١٠

لم يبين « كليفور د » نوع الأدلة والبراهين التي يقوم الاعتقاد الديني عليها ، وطبيعي أنه يريد أدلة وبراهين علمية رياضية ، أشبه ببراهين النظريات الهندسية ، وأدلة الحقائق العلمية العملية .

وهذا التحكم للزيم ، من شأنه أن يحرم الإنسان من أن يكون يوماً صاحب معتقد ديني — إذ كانت حقائق الدين ، كما قلنا ، لا تخضع لمثل هذه البرهنة ، ولا تنزل على حكم مثل هذه الأدلة !

وإذا كان من الختم اللازم على الإنسان ألا يفتح عينيه إلا على أشعة الشمس فإنه يقضى الجانب الأكبر من حياته أعمى أو شبه أعمى . . إن هناك أضواء كثيرة قد تكون خافته ، أو خائية يمكن أن يفتح الإنسان عينيه فيها ، فيرى كثيراً من وجوه الحياة ومشاكلها ، بل إن الظلام نفسه لا يحول بين الإنسان وبين أن يفتح عينيه ، وأن يرى طريقه بالقدر الذي تسمح به الرؤية ، فذلك -- أيا كان -- خير من أن يغمض المرء عينيه ، وأن يتلمس طريقه بيديه أو قدميه !

إن الشك مرحلة من المراحل الموصلة إلى اليقين ، إذا قام من وراء ذلك عقل يستجيب لداعى الحق ، ويقبل عليه . .

والإسلام لا يفكر هذا الموقف من الإنسان ، لأن ذلك طبيعة من طبيعة العقل ، وطريق من طرقه في اكتساب المعرفة . . يتحدث جولد تسيهر عن المعتزلة ، وعن نظرتهم إلى العقل وثقتهم به في اكتساب المعارف . . يقول :

« وقد ذهب بعض رجالاتهم وممثلهم الأكثر شهرة إلى القول : بأن الشرط الأول للمعرفة هو «الشك» !!

ومن مقولاتهم الماثورة في هذا : إن خمسين شكاً خير من يقين واحد^(١) ! »

وطبيعى أن الشك الذى يصطنعه للمعتزلة فى تفكيرهم هو الشك المنتج ، الذى يحرك العقل إلى البحث الجاد ، والنظر الفاحص ، فلا يسكن العقل حتى يكشف جليلة الأمر الذى شك فيه ، بقبوله أو رفضه ، وفى كلا الحالين وجه جديد من وجوه المعرفة القائمة على يقين أو ما يقرب من اليقين . . أما الشك العميق ، وهو الشك الذى يكون وسواساً وهذياناً ، فهو مرض يقيم صاحبه فى سجن من الأوهام والخيالات ، لا يملك معها أن يتحرك إلى الحق ، ولا أن يصل إليه ، بل يظل هكذا حزيناً يتخبط كما يتخبط الغريق فى ملتطم الأمواج . .

والإسلام — كما قلنا — يزكى هذا الشك المنتج الذى أثمرنا إليه ، وهو من أصول التفكير عند المعتزلة ، الذين استوحوا وحيه من القرآن الكريم فى دعوته إلى الإيمان بالله ، وبكتابه ، وبرسوله ، وذلك ليقوم هذا الإيمان على أصول ثابتة مستقرة فى ضمير الإنسان .. وفى هذا يقول الله تعالى : « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ^(١) » . . فلا يرضى الإسلام من أتباعه إلا أن يكونوا على بيينة واضحة من دينهم ، وعلى معرفة مدروسة محققة ، لما يأخذون أو يدعون ، مما يأمرهم به الدين ، أو ينهاهم عنه !

هذا ، وإن الذين يحجزون عقولهم عن النظر فى الحقائق الدينية إلا إذا كانت بحيث تواجه العقل مواجهة الشمس للعين — هؤلاء يجرمون أنفسهم خيراً كثيراً ، إذ يظلمون هكذا فى عمى ، وفى ظلام عقلى .. فلا تكتحل عقولهم أبداً بذرور من نور الإيمان .

يقول جيمس ستيفن : « فى كل عملية مهمة من عمليات الحياة لابد لنا أن نقفز قفزة فى الظلام ، وعلى غير هدى ^(٢) !! » .. يريد جيمس أن يقول : إن كثيراً من المواقف تحتم على الإنسان أن يتخذ قراره فيها دون أن يكون معه أدلة قاطعة على

(١) سورة الأنفال آية ٤٢ .

(٢) العقل والدين ص ٣٢ .

النتائج التي تنتجها ، بل كل ما بين يديه مجرد احتمالات يتظنّها ، ولا يتحقّقها . .
ولو انتظر الإنسان اتخاذ قراره في مثل هذه الأحوال حتى تأتية الأدلة القاطعة ،
لا ينتظر طويلاً ، بل ربما قضى عمره كله دون أن تأتية هذه الأدلة !

والإسلام لا يطلب من أتباعه أن يقفزوا هذه القفزة ، كي يصلوا إلى حقيقة
عن طريق تلك المخاطرة التي قد تندقّ فيها الأعناق ، وتناف النفوس ، ولكنه إذ
يدعوهم إليه فإنما يُسمّهم صوتاً هادياً ، ويرسل بين أيديهم شعاعات أشبه بشعاعات
الفجر الوليد ، فلا يكادون يخطون خطوات معدودات حتى يغمرهم الفجر ، ويملأ
عيونهم ضوء الشمس ؛ الذي يغمر الأكوان في ضحوة نهار مشرق وضيء !

إن الذين تغلب على عقولهم نزعة الشك والارتياب ، فلا يتعاملون مع الأشياء ،
ولا يتعاطفون معها إلا إذا جاءتهم عارية تسمى بين أيديهم — هؤلاء — كما قلنا —
يميشون دائماً في حرمان من كل خير يحصل عليه أولئك الذين لا ينظرون
في الأشياء هذا النظر القائم على التخوف والتوجس ، وعلى الاتهام والإدانة سلفاً .

والشك إذا كان في قصد واعتدال ، وإذا كان للتثبت واليقين فهو طريق
من طرق المعرفة الصحيحة . وداعية من دواعيها ، ولكنه حين يكون وسواساً
دائماً ، وحين يكون همّاً مقبياً ، فهو داء يعطل كل مراكات التفكير ، ويوصد
كل باب إلى المعرفة !

ويفرق ولیم جیمس بين الحالات التي يكون فيها الشك محموداً ، بل ومطلوباً ،
وبين الحالات التي يكون الشك فيها مذموماً مفوّناً لاخير . . فيقول :

« كلما كان التخيير بين إدراك الصواب وعدمه تخييراً غير خطير الشأن كان لنا
أن نضيق فرصة إدراكه ، وننجى بذلك أنفسنا من احتمال الاعتقاد فيما هو خاطيء ،
ولا نعتقد حتى نمثر على الأدلة الموضوعية اليقينية ، وذلك هو الشأن الغالب
في المسائل العملية . . وليست الحاجة إلى الفصل في كثير من المسائل الإنسانية

العامة شديد المساس دائماً ، بحيث نجعل الاعتقاد ولو في الكاذب خيراً من عدم الاعتقاد ، ومن انتظار الأدلة الموضوعية .

نم يقول : « وإننى أتحدث هنا طبعاً من وجهة الحكم العقلى الحض ، وأما وجهة الاكتشاف العلمى فإنها لا توحى بذلك الحياد ، إذ لا مرء في أن العلم كان يكون أقل مما هو عليه الآن لو لم تلعب رغبات الأفراد وميولهم دوراً مهماً في محاولة البرهنة على عقائدهم . » (١)

الذى يريد أن يقرره « وليم جيمس » هنا فيما يمكن أن نرفضه من المعارف ، أو الحقائق إذا وقعت موقع الشك منا — هو تلك الأمور التى لا يترتب على فواتها أضرار أصلاً ، أو يترتب على فواتها أضرار يمكن تلافيها — هذه الأمور لا تستحق أن نقبلها بما تلبس فيها من شك ، إذ لا بأس من أن ندعها حتى تنجلي عنها غواشى الشك ، وتصفو من أكداره . . . وذلك هو موقف العقل من المسائل العلمية ، حيث لا نقبلها إلا مع براهينها القاطعة ، وأدلتها المستيقنة . . . وحتى هذه المسائل العلمية لا تخضع لهذا الحكم إلا من الوجهة النظرية ، أما من الناحية العملية فإن العقل لا يقف إزاء أية مسألة علمية مجرداً من الرغبات والمشاعر التى تدعو صاحبه إلى النظر في هذه المسألة أو تلك . . . إذ لا بد — كما يقول جيمس — من ملاحظة أن كل القوى الموجودة فيما تعمل متضامنة بالضرورة حينما نكون آراءنا الفلسفية . . . فيتضامن العقل والإرادة والذوق والشهوة ، في المسائل النظرية ، كما تتضامن في المسائل العملية . » (٢)

إن اليقين العلمى ، أو الاطمئنان العقلى — كما قلنا — ليس مطلوباً ، تحققه في مجال الاعتقاد الدينى ، إذ أن هذا الاعتقاد يقف إزاء حقيقة لا يحيط بها عقل ، ولا يستوعبها فكر . . . ومن هنا تظل العقيدة الدينية في حركة وتماوج ، واضطراب

(١) العقل والدين ص ٢٣

(٢) العقل والدين ص ٦٢

حالا بعد حال ، وهذا هو الذى يمدّها بالحرارة ، والحياة . . ولو أنها قامت على يقين ثابت ، وعلى اطمئنان مستقر لركدت وبردت ثم جمدت ، ولصارت قضية من تلك القضايا العلمية المسامّة؛ التى لا يلقاها الإنسان بعد أن يعرف وجهها إلا مرة واحدة ، ثم إذا هي تمر به ، فلا يلتفت إليها ، ولا يأبه لها .

وحتى الأنبياء والرسل ، وهم من هم فى القرب من الله ، وفى الاطلاع على مالا يطلع عليه غيرهم من البشر من دلائل قدرته وآيات علمه وحكمته — لا يخلو إيمانهم من هذه الموجات ، ولا تسلم عقيدتهم من القلق والاضطراب أحيانا . . وما اليأس والاستيناس الذى يقع فى نفوسهم فى ساعات الضيق والكرب إلا أثرُ هذا الاعتقاد اليقظ المتنبه، المتفاعل مع مهبّ الرياح والأعاصير التى تطلع على الإنسان فى أوقات كثيرة.. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ^(١) » فالرسل — وهم من هم ، فى قوة المعتقد ، ووثاقة الإيمان تعرض لهم ساعات حرجة يهتز فيها إيمانهم ، ويتدسس اليأس إليهم . وفى موقف إبراهيم عليه السلام من ربه ، وطلب الاطمئنان القلبى لإيمانه ، مايدل على أن أقوى درجة تبلغها العقيدة من الإنسان لا تبلغ حدّ الاستمرار الثابت والسكون الخامد : « وإذ قال إبراهيم ربّ أرنى كيف تحيى الموتى ، قال : أَوَلَمْ تَكُنْ تَؤْمِنُ ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئنّ قلبي ! ^(٢) » .. وكذلك كان شأن موسى إذ قال : « ربّ أرنى أنظر إليك ! ^(٣) » فما طأب هذه الرؤبة إلا ليزداد يقيناً وثباتاً !

والرياضات الروحية، أو العقلية، أو الجسدية التى يعانيتها بعض الناس، وخاصة المتصوفة — ليست إلا وسيلة يُراد بها الاستعانة على بلوغ هذا الاطمئنان ، الذى ينشده القلب ولا يكاد يحصل عليه إلا بين الحين والحين، وفى لحظات من الإشراق والصفاء ، ثم لا يلبث طويلا حتى يتزحزح عن موضعه .. قليلا أو كثيراً .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٩

(١) سورة يوسف : آية ١٠٩

(٣) سورة الأعراف : ١٤٢.

يقول وليم جيمس : « ويميل بعض العقول المتصوفة إلى محاولات معتدلة ،
ويبحث عن الهدوء العقلي في حالة الجذب والوجد حينما يُحقق المنطق . . فلا شك
أن هناك لحظات يظهر فيها العالم للأفراد المتدينين من جميع الأديان والمعتقدات غاية
من الانسجام والاتساق الإلهي ، وعلا ذلك المعنى قلوبهم ، فلا يبقى فيها محل
لسؤال ، ولا يجدون شيئاً شاذاً يمكن أن يُسأل عنه ويقال : لماذا هو هذا دون
ذاك ؟ وفي هذه الحالة تكون القوة العاقلة هادئة نائمة ، لأن الشعور قد ربت عليها
فهدأ ما . . والإسلام يصل باتباعه إلى هذا الهدوء العقلي عن طريق العقل نفسه . .
العقل الحي اليقظ ، الذي تستوفزه مجالي هذا الوجود ، ويستجيشه هذا النظام المسك به ،
وهذه الحكمة المندسة في كل ذرة فيه . . وليس العقل ، المادى الذى لا يستثيره جمال ،
ولا يروعه جلال ، ولا يحركه ما يحرك الهامدات ! ويوم يتلفت الإنسان ، فلا يجد
في كيانه غير هذا العقل الذى يعمل على إجلاء البسمة من فمه ، وقتل الفرحة في
كيانه — يومها ينكر نفسه ، ويتنكر لوجوده ، وينشدم مع أبى الطيب :

أصخرة أنا ؟ مالى لا تحركى هذى المدام ولا تلك الأغاريد ؟

وإذ يبلغ الإنسان إلى هذه الحال لا يهنؤه طعام ، ولا يسوغ له شراب ،
ولا يرى إلا الموت شفاء وراحة من هذا العذاب الأليم ، الذى يتقلب على جمراته .
إن استصحب القلب في كثير من الأمور يُعين العقل على الرؤية . . رؤية كانت
متمذرة ، لو لم يكن القلب هو الذى أذاب بحرارته ضبابها المتكاثف ، ودفع
بقوته سحبها المنمقدة من حولها .

والإله الذى بُرى من خلال القلب يُشيع في النفس رضى ، وراحة ، وطمأنينة ،
حيث يجد الإنسان ذاته ووجوده في حماية قوة قادرة ، عالمة ، رحيمة ، محيطة بهذا
الوجود ، آخذة بفاصية كل شيء فيه . .

فلماذا يحرم الإنسان نفسه هذا الشعور ، ويجردّه دمه ؟ وما حظه من هذا

الموقف الذى ينعزل به عن تلك المشاعر ، ويخلو فيه إلى معنويات عقله المجردة، التى لا تعطى إلا أرقاماً حسابية ، ومعادلات جبرية ، دون أن يرى هذا الوجود ، وما فيه من آيات الجمال والجلال ! التى تُفيض عليه السعادة والرضا ؟

إن الإله الذى يتعرف إليه الإنسان من خلال التعاليم الإسلامية إله يملأ قلب الإنسان ونفسه راحة وطمأنينة ورضى ، الأمر الذى لا تستطيع أروع آيات الفنون الجميلة كلها أن تثيرها فيه . . ولهذا خلقت هذه النظرة المريحة المسعدة فى كثير من النفوس مشاعر الحب الإلهى ، الذى سكر به كثير من المتألهين وانتشوا ، وقطعوا العمر فى هيام ، وأشواق ومواجد . . ووجدوا فى هذا الحب سعادة غامرة، استخفوا إزاءها بكل ما فى هذا الوجود من مُتَعٍ ولذاتٍ ، بتهالك الناس عليها ، ويةتتلون فى سبيلها . .

فَلِمَ يعدل الماديون عن هذا الطريق المأنوس الأمين ؟ ولم يحرمون أنفسهم هذا التفكير الذى يُشيع فيهم البهجة والرضا ؟ إن ذلك ظلم للعقل نفسه ، وحرمان له من خير كثير ! .

يقول وليم جيمس : « إذا كان هناك نظريتان تُرضيان بالتساوى كل المطالب المنطقية ، فإن ما يثير الدوافع الفعالة منهما ، أو يرضى الميول الوجدانية والذوقية منهما أكثر من الأخرى ، فإنها تكون أكثر منطقاً وأقرب للعقل ، وتكون لها السيادة فى النهاية » .

وهو يعنى بهذا أن السكون يمكن أن يُرى بأكثر من عين ، وأن ينظر إليه من أكثر من جهة ، وكلها تمثل الواقع فى جانب من جوانبه .
وفى هذا يقول :

« أو لَيْسَتْ أنشودة أوتار « يتهوفن » فى الحقيقة — كما قال أحد الناس —
إلا توقيعاً بشعرات من ذنب الفرس على قطع من أمعاء القبط ؟ نعم قد توصف وصفاً

شاملاً بهذا ، ولكن انطباق هذا الوصف عليها ، لا ينفى انطباق وصف آخر مبين لذاك الوصف في نفس الوقت ! »^(١)

وقضية الألوهية هي أولى قضايا الإسلام الكبرى ، دعا إليها العقل والقلب ، بل دعا إليها السكيمان الإنساني كله ، بما فيه من قوى التفكير ، وما يقوم عليه التفكير السديد من تذوق الجمال ، ومطالعة وجوه الحُسْن ، والتحليق فوق هذا العالم الأرضي ، إلى حيث مطالع الحق والنور .

فمن أراد بعد هذا أن يصحب الحياة بلا إله يؤمن به ، ويتوكل عليه ، ورضي لنفسه أن يعيش في هذه العزلة الباردة ، فليس لأحد عليه من سلطان : « لا إكراه في الدين » . . « فمن كفر فعليه كفره ، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً »^(٢)

إنه ليس في هذه الحياة شقاء وراء هذا الشقاء الذي يكابده من حُرْم الإيمان بالله ، فعاش محروماً من كل بارقة من بارقات الأمل ، ومن كل نسمة من أنسام الرجاء ... « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ، فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ »^(٣)

* * *

الآخرة ، والبعث ، والثواب والعقاب :

ويتبع الإيمان بالله الإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، والبعث ، والحساب ، والجنة والنار ، فهذه كلها من الغيبيات أو السمعيات ، التي تحدث بها الشرائع السماوية .

وإنه ليس من العسير على من آمن بالله أن يجد طريقه واضحاً مستقيماً إلى الإيمان

(١) العقل والدين ص ٤٦

(٢) سورة فاطر ٣٩

(٣) سورة الحج: آية ٣١

بهذه القضايا الجزئية ! فجميعها قائمة على الإيمان بالله ، إذ كلها من واردات ما وراء
الحس ، وهي مبلّغة إلى الناس في محاميل رسالات سماوية ، وكتب منزلة ، اصطفى
الله سبحانه بعض خلقه ليكونوا رسله بتلك الرسالات إلى الناس . !

وأول ما يدعو إليه الرسول في مفتتح رسالته هو الإيمان بالله ، إيماناً خالصاً من
أية شائبة من شك أو ارتياب . !

وبهذا الإيمان يتلقى المؤمنون ما يبلغه الرسول من تشريعات ، وما يُخبر به
من غيبيات . . وعلى هذا ، فإننا لن نتحدث في هذا البحث عن الإيمان بالرسول ،
والملائكة ، والبعث والجنة والنار ، وما يتصل بهذه المفاهيم جميعها . . إذ أن من
يؤمن بالله سينتهى به هذا الإيمان إلى الإيمان بها على الوجه الذي تحدثت به
رسالات السماء .

* * *

الحياة الآخرة في الإسلام :

ولا نريد أن ندع هذا البحث في الإيمان بالغيبيات ، ومنهج الإسلام في الدعوة
إلى الإيمان بها — دون أن نقف وقفة قصيرة مع نظرة الإسلام إلى الحياة الآخرة ،
وما يريد أن يقع منها في نفوس المؤمنين . . فلتداتهم المستشرقون الإسلام بأنه
يقم أتباعه على حياة يفلب عليها شعور الموت ، والبعث والحساب ، والجنة ،
والنار . . وأن هذا الشعور لا يدع للمسلم فرصة للتفكير في الحياة ، والعمل لها ،
إذا هو صدق دينه ، والتزم أوامره . . وإلى هذا الشعور يرجع السبب في تأخر
المسلمين ، وفي إفلات ما في الحياة من طيبات من أيديهم ، إذ أذهلهم هذا الشعور
المزعج الذي يهب عليهم من عالم الآخرة — أذهلهم عن الدنيا ، فعزلوا أنفسهم عن
الواقع ، وأسلموا وجودهم للموت وما بعد الموت !!

وهذا زعم باطل ، فالإسلام إنما جعل دعوته الملقنة إلى الحياة الآخرة في مقابل

الأدواء الحيوانية التي طغت ونطفت على الناس دائماً، من تكالب على الدنيا، وما يتبع هذا التكالب من شح، وبخل، وقسوة، وظلم، وعدوان، وحروب.. كل ذلك في سبيل الاستكثار من جمع المال، والإقبال على الدنيا، والعمل لها، دون أن يفكر الإنسان في شيء وراءها، حتى إنه ليذهل في كثير من الأحيان عن نفسه، و عما ينبغي لها من الراحة بعد الجهد والإرهاق، فتفسد صحته، ويذبل شبابه، ويكون ذلك، من قبيل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، والله سبحانه وتعالى يقول: «ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» ويقول: «ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ.. إن الله كان بكم رحيماً».

فالتذكير بالحياة الآخرة يقضى على كثير مما يعانى الناس من أدواء، تنفص عليهم حياتهم، وتلقى بينهم العداوة والبغضاء..

سأل سائل السيدة عائشة رضى الله عنها فقال: يا أم المؤمنين.. إن لى دائماً فهل عندك دواؤه؟ قالت: وما داؤك؟ قال: القسوة! قالت: بئس الداء داؤك.. عُدِ المرضى، واشهد الجفاثر، وتوقع الموت!

نعم، فإن هذه المشاهد أنجع ما يعالج به كل شر تحدث به النفس، وأفضل ما يقضى على كل وسواس سوء يُلِمُّ بها.

الفصل الثاني

العبادات

بين الخالق والمخلوق :

إذا تعرف الإنسان إلى تلك القوة التي يقع في تقديره أنها أكل وأقوى وأعظم مافي الوجود، فإنه — تلقائياً وبغير تفكير — يرى وجوده منجذباً إلى تلك القوة، معجباً بها، مستغرقاً فيها، مفتوناً بجلالها وعظمتها.. ثم لا تلبث هذه المشاعر أن تعبر عن وجودها في صور محسوسة، هي ذُوب ما كان يُمْتَل في كيان الإنسان من مشاعر، ووجدانات، وخلاجات.. هي في الواقع خمائر القنون الجميلة، وبذورها التي ألفت بها ليد الحياة، فتمت وترعرعت، وبلغت ما بلغت من نضج وكمال..

فالرقص، والغناء، والموسيقى والنحت، والتصوير، كلها كانت تعبيرات هاذجة عبر بها الإنسان الأول عن مشاعره، في مواجهة القوى التي ههرته، وسحرتة! وهكذا قامت بين الناس وبين ما يعبدون من معبودات — ظاهرة أو خفية — قامت علاقات مادية، هي ترجمة محسوسة لتلك العلاقات الوجدانية التي أشرنا إليها.. ثم أخذت هذه العلاقات المادية تصعد شيئاً فشيئاً في سلم التهذيب والنظام، حتى أصبحت أعمالاً مكتملة، ذات طقوس، تؤدي في هياكل ومعابد، على نحو خاص، لا يجوز للمتدين أن يخرج عليه!

يقول المستشرق « جب » : « إن بواعث الناس ومثلهم العليا في حياتهم اليومية إنما تصدر عن عقائدهم المتغلغلة في نفوسهم ^(١) » .

(١) وجهة الإسلام لجب — ترجمة أبو زيد . . ص ٨

وهذا يعنى أن العقائد الدينية ، بل وكل ما يدخل فى كيان الإنسان من آراء ومذاهب وتقاليد . . هى التى توجه الإنسان ، وتحدد اتجاهاته ، وتضبط سلوكه !

ولهذا عنى الإسلام غفاية خاصة بتصحيح العقيدة ، وتصفيتهما من كل شائبة تشويها ، حتى يضمن للإنسان فى ظلها حياة سليمة ، نظيفة ، كريمة ، تنزع عن رأى سليم ، ووجدان يقظ ، وإرادة مستبصرة !

ولم يقف الإسلام عند حدّ المعتقدات ، والآراء يحملها ، ويكشف عن وجهها ، بل امتد تدبيره إلى أبعد من هذا . . فتراه مثلاً يلتفت إلتهافاً قوياً إلى الكلمة الحاملة ، لأى معنى . ولو كان جزئياً . . لأن الكلمة فى نظر الإسلام ، وكما هى فى حقيقتها — ليست مجرد حروف ، وأصوات . . وإنما هى رسالة موجهة ، تحمل إلى سامعها آراء ، وأفكاراً ، وصوراً ، ومثلاً . !

إن مافى العقل من مدرّكات ، وتصورات ، ومافى كيان الإنسان من نوازع واتجاهات ، إنما هو من عمل الكلمات ، وإنه بقدر ما يتلقى العقل من كلمات يكون حظّه من العلم والمعرفة ، وإنه بقدر مافى هذه الكلمات من معانى الخير والشر يكون اتجاه الإنسان إلى الخير أو الشر . . فالإنسان لا يعطى إلا بما عنده . .

والكلمات هى الرصيد الذى يملكه الإنسان ، ويُنفق منه !

يقول الرسول الكريم : « لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ خَبِثْتُ نَفْسِي ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِسْتُ نَفْسِي » واللفظان معناهما واحد ، وهو غشيان النفس ، ولكن النبىّ الكريم أخذ المسلمين بأدب الكلمة فحى ألسنتهم من أن تعلق بها الكلمات السيئة ، فتتخاقل منها مشاعر خبيثة !

فإل هذا الحدّ من التقدير المؤثرات الخارجية التى تطارق وجود الإنسان من الداخل — إلى هذا الحدّ يبلغ تدبير الإسلام ، فيعمل حسابه لكل شئ يمسّ

تفكير الإنسان، حتى ولو كان مجرد كلمة عابرة، وذلك كله من عمل الفطرة الإنسانية، ومن تفكيرها؛ وتقديرها بما اختلط فيه من ضلالات، وسفاهات، وحماقات !
السماء تتدخل :

وحين بلغت الإنسانية قدراً مناسباً من الإدراك والتمييز، جاءت السماء إليها بصورة عاقلة مهذبة من العبادات التي ترضى مشاعرها، وتعمّر قلبها بالسكينة والرضا !
وطبيعي أن تتخذ هذه العبادات التي توصي بها السماء على لسان الأنبياء والرسول — صوراً متعددة، تختلف باختلاف الجماعات الإنسانية، وبالفكرة التي استطاع عقلاها أن يتصور الإله عايتها !

ويكفي أن نذكر هنا أن بعض العبادات أو القرّبات كان يصل إلى حدّ تقديم الإنسان نفسه قرباناً على المذبح ! كما حكم الله سبحانه بهذا الحكم على بني إسرائيل، حين خرجوا عن عقولهم، وعن إنسانيتهم، فتركوا عبادة الله، واتخذوا العجل إلهاً معبوداً . . فكان عقابهم على الجرم الغليظ، عقاباً غليظاً، إذ أمرهم الله سبحانه بقتل أنفسهم بأيديهم !

وفي هذا يقول الله سبحانه : « وإذ قال موسى لقومه، يا قوم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم ^(١) » .

فهذه عقوبة مقابلة لهذا الجرم الغليظ الذي لا يكفره إلا هذا الدم المباح . . فلقد ذكر المفسرون لهذه الآية أن بني إسرائيل حين أمروا بهذا أقبلوا على السيوف والخفاجر يضرب بها بعضهم بعضاً . . حتى قتل منهم سبعون ألفاً !

فهذه صور من صور العبادات والقرّبات التي فرضها الله سبحانه وتعالى على بعض الأقوام . . تطهيراً لهم من الإثم، وتكفيراً للمعصية التي كانت منهم !

(١) سورة البقرة آية ٤٤

العبادات في الإسلام:

وَيَعْنِينَا هَذَا أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَعْبُدُ بِهَا الْإِسْلَامُ عِبَادَ اللَّهِ ، الَّذِينَ يَرْضَوْنَ هَذَا الدِّينَ دِينًا ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ عَلَيْهِ .

وهذه العبادات هي :

الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .

وهي جميعها مقدورة بطاقة الإنسان وباحتماله . . فليس فيها شيء ، يجاوز قدرة الإنسان . . من أوساط الناس !

ثم هي جميعها مشفوعة برخص تُعفى الإنسان منها إعفاء كلياً أو جزئياً ، موقتاً أو دائماً ، إذا لم تتوافر الشروط الموجبة لها . .

ثم هي أيضاً ليست أعمالاً آلية ، تؤدي مجرد القيام بواجب الطاعة والامتثال ! وإنما هي رياضة تربوية ، تظهر الإنسان وتزكّيه ، وتقيم وجهه على الطريق القويم ، فإن لم يكن من ورائها هذا الثمر الطيب ، كانت رداً على صاحبها ، غير نازلة منازل القبول من الله رب العالمين .

وملاك الأمر في هذه العبادات هو الإقبال عليها في نية خالصة ، ورغبة صادقة ، وأن تلقاها النفس حقيّة بها ، مشوقة إليها .

وهذا ما يجعل لهذه العبادات أثراً قوياً طيباً ، كلما تلبّس بها الناس ، وكلما اتصلت بينهم وبينها الأسباب . .

أما إذا خلت العبادة — أي عبادة ، بل أي عمل — من هذه المشاعر ، فإنها لن تترك في كيان الإنسان شيئاً ينتفع به . . إذ مرّت به دون أن يلتفت إليها ، أو يفعل بها !

فإذا بلغ الأمر إلى أن تُهمل هذه العبادات ، أو تؤدي في تكسّر ، وفي

استنقال — كان في ذلك الخُسران والوبال .. إذ أنه يقيم الإنسان على شعور
الجرأة على الله ، وإعلان المحاذة والقطيعة له .

ولهذا توعّد الله هؤلاء المستخفين بالعبادات ، وعدّم فيمن كفروا به
وبشريته .. فيقول سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه في شأن هؤلاء الذين قالوا : آمنا
بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم : « وما منهم أن تُقبَلَ منهم نفقاتهم ، إلا أنهم
كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا يُنفقون إلا وهم
كارهون » (١) ..

* * *

ولسنا نريد أن نقف هنا على العبادات التي فرضها الإسلام .. ولا أن نكشف
عن وجه الحكمة فيها . ولا عن ملاءمتها للحياة الإنسانية في مختلف أحوالها
وأزمانها — لا نريد أن نقف هنا هذه الوقفة ، حيث يتجلى ذلك بوضوح في
« مبحث » : « سمات بارزة في الإسلام » الذي سلفناه بمد قليل !

ولكن لا نريد أن نترك هذا البحث في شأن العبادات ، دون أن نلفت النظر
إلى ما قد يقع لأول وهلة في تفكير من يأخذون الأمور على ظاهرها ، من غير
أن يجاوزوا هذا السطح الظاهر منها ؛ إلى ما وراءه من أعماق بعيدة الغور .

فالذي يبدو للناظر في المجتمعات الإسلامية من ضعف ، وتخاذل ، قد يؤهم
أن ذلك أثر من آثار الدين ، وثمره من ثمراته ! وبذلك يكون الحكم على
الإسلام — نتيجة لهذه — النظرة — حكماً ظالماً ، إذ لم ينظر إلى الدين من
حيث هو مبادئ وأحكام ، وإلى المتدينين من حيث هم متفاعلون أو غير متفاعلين
مع هذه المبادئ وتلك الأحكام !

والحق أن الأمر يختلف جداً بين الدين الإسلامي ، وبين كثير من المسلمين الذين ينتسبون إلى هذا الدين ، والذين يراهم الناس على تلك الحال السيئة في الحياة ..

إن المسلمين اليوم في وادٍ ، والإسلام ، وتعاليمه ، ومبادئه ، في وادٍ آخر . المسلمون صور ممسوخة مشوهة للإنسان الكريم العظيم الذي عرفته الحياة لرجال الإسلام في مطلع الإسلام ، الذين خلقهم هذا الدين الخلاق ! وطلع بهم على الحياة من أفقر مكان ، وأجذب بقعة !

ونعم .. الإسلام شيء ، والمسلمون شيء آخر .. إذ بينما يقف المرء وقفة الإجلال والتقدير لمبادئ الشريعة الإسلامية وتعاليمها السامية ، وبينما يقوم في يقينه أن الشريعة لا بد أن تبلغ من نفس أتباعها مبلغاً يرفع شأنهم ، ويعلو قدرهم ومنزلتهم في الحياة ، ويجعلهم « شامة » في الناس ، كما يقول النبي الكريم في حديث شريف له — بينما يقدر الإنسان في نفسه هذا التقدير إذ تفجأه مرارة الواقع ، وقسوة الحقيقة فيما يرى في المجتمع الإسلامي ، من تخلف وتخاذل ، واضطراب ، واختلال ، في موازين الدين والدنيا معاً !

فحيث التفت المرء في محيط المسلمين وجد عواراً ، ورأى مجتمعا تخلى عن كل مقومات الحياة الكريمة العزيزة ، وقنع من دنياه بالقليل الخسيس ، الذي يباقر إليه في أية صورة ، وعلى أي وجه ، ولو كان بيد الذلة والمهانة !

هذا حق واقع ، يجب أن نقره ، ونعترف به ، فإن من الحق أن نفض أعيننا عما يفتك بنا من أدواء ، وإن من الجبن والخيانة معاً أن نفر من الواقع ، ونشقى من ملاقاته ، على ما يكون فيه من مرارة وقسوة .. وإن من خور العزيمة ، وسقوط الهمة ألا تنزع بنا نفوسنا إلى التحول عن هذه الحال التي طال مقامنا فيها .. وإنه لمن الجراة على الحق أن يقول قائلنا : أحسنوا الظن ! فإن المسلمين

بخير ، وإنهم أحسن حالاً من المجتمعات الأخرى ! ! وإنه لمن الضلال في الرأي أن يقول قائلنا : إن هذه النظرات المقتضاة من شأنها أن تبعث اليأس في النفوس ، وتسوق الفتور إلى الهم ، فتزداد ضعفاً إلى ضعف . . ولا . . فليس المسلمون بخير ماداموا على حالهم تلك ، ومادامت حياتهم قائمة على هذه التصورات المريضة التي يعيشون فيها ، وما دامت فلسفتهم في الحياة قائمة على هذا الفهم السقيم للدين وأحكام الدين ، ومادام حظهم من الدنيا هذا الحظ التمس البخس !

من الحق والخير معاً أن نقرر هذا ، وإلا ظلمنا أنفسنا بما نخدعها به من أوهام كاذبة . . وإلا ظلمنا الإسلام ، وظلمنا مبادئه ، وألقينا عليه من حياتنا المظلمة ما يسيء الظنون به ، ويَزيوِ الوجوه عنه ! وبهذا نشارك — من غير قصد — في عملية صدّ الناس عن هذا الدين ، وحرمانهم الخير الكثير الذي كانوا سيحصلون عليه منه ، لو أنهم عرفوه ، وتعاملوا به .

إن المبادئ إنما ترى على حقيقتها فيمن يؤمنون بها ، ويعيشون على وحيها ، ويأخذون الحياة بأسلوبها ، وعلى قدر ما يرى الناس في أتباع مبدأ من المبادئ من آثار بقدر ما يكون من إقبال المقبلين منهم عليه ، أو إعراض المعارضين منهم عنه !

* * *

ننظر في هذا الصراع القائم اليوم بين المذاهب المختلفة في العالم، من ديمقراطية واشتراكية وشيوعية . . نجد هذا الصراع يستند في كل مذهب إلى ما حققه لأتباعه من خير في هذه الحياة ، وما مكّن لهم من أسباب العيش الكريم فيها ، ونجد ألوان الدعاية لأي مذهب منها ، لا تلجأ إلى عرض حقائق المذهب في صور كلامية ، وقضايا منطقية ، أو جدل فلسفي ، وإنما تلجأ إلى مظاهر الحياة المادية التي حققها المذهب في محيط أتباعه، ومكّن لهم منها فتفرضها على الملأ ، وتواجه بها عين

الناس ، من أولياء وأعداء . فإنها هي وحدها البرهان القاطع ، والدلائل العملى الذى يُفهم كل منطق . . . وهى الصورة التى يراها الناس رأى العين ، ويعملون حسابهم عليها فى التقدير والموازنة بين أمة وأمة ، ونظام ونظام .. ثم مذهب ومذهب !

ولو أننا ذهبنا فى التبشير بالدعوة الإسلامية هذا المذهب العملى — وهو الأسلوب المقتنع من غير جدال — فعرضنا أنفسنا على العالم غير الإسلامى ، ودعونا الناس هناك إلى الدخول فى الإسلام ، والمشاركة فى مجتمعه — لو أننا فعلنا ذلك ، وقتلنا للناس : هذا هو المجتمع الإسلامى ، فادخلوا فى الإسلام ، لتكونوا جزءاً من هذا المجتمع — أفنظن عاقلاً من العقلاء يستجيب لهذه الدعوة ، ويرضى أن يدخل فى جماعة المسلمين ، ويشارك فى الحياة التى يحياها ؟ لا أظن ذلك أبداً .. فالنفوس دائماً متعلقة بتقليد من هو أحسن منها ، أو من تراه فى مكان لا تصل إليه ..

ومجتمعنا اليوم أقل من أن تتجه إليه الأبصار ، وتهفو إليه القلوب .. فقد تأخرنا كثيراً ، وتقدم غيرنا كثيراً .. ومن العبث أن نهتف بالتقدمين المشرفين على أصفى موارد الحياة ، ليشربوا معنا كدراً ومراً ، ولينزلوا إلى هذا المستوى الدون من الحياة التى تضطرب فيها المجتمعات الإسلامية اضطراب الديدان فى بركة راكدة !!

إن أحداً من العقلاء لا يرضى أن يلتقى بالإسلام ، وأن يدخل إليه عن طريق أتباعه .. وإن هذه الأعداد الوفيرة التى نراها تدخل فى الإسلام كل يوم إنما تجيء إليه من وراء ظهور المسلمين ، ومن غير التفات إليهم .. وإنما هم نظروا إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه نظراً مجرداً ، بعيداً عن أتباعه والمتسبين إليه ، فرأوا فيه ما رأوا من حق وصدق ، وهدى وخير .

* * *

وإن فى الأمر شيئاً !!

إن خلا واقفاً في صَلَاتنا ، وصيامنا ، وعباداتنا جميعاً .. وإلا لكان لهذه العبادات ما لها من آثار محقة .. في تقويم الأخلاق ، وتهذيب النفوس ، واعتدال السلوك !

والخلل الذى وقع في عبادتنا هو أننا نؤديها في صورة آلية جامدة ، بعيدة عن مشاعرنا وأحاسيسنا .. فلا يخفق لها قلب ، ولا يفعل بها وجدان ، ولو أن هذه العبادات جاءت عن هذا الطريق الذى يملأ النفوس جلالاً وخشية ويصل القلوب بالملأ الأعلى عن يقين ومعرفة — لكان لها فينا شأن غير هذا الشأن ، ولكان لنا في الحياة مكان غير هذا المكان ، ولعرف الناس للدين فضله ، وحميدوا له أثره !

وكيف لا يكون للدين هذا الأثر ، والله سبحانه وتعالى يقول في الصلاة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . » . يقول سبحانه وتعالى هذا بلفظ التوكيد ، ليباغ الاطمئنان غايته من تلك الحقيقة إلى قلوب المصلين .. فإن الصلاة على وجهها الصحيح من شأنها أن تفعل فعلاها في النفوس ، فتنبه عن الفحشاء والمنكر .. ذلك حق لا مرية فيه . . وهل في كلام الحق سبحانه ، موضع لريبة أو شك ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ولكن أين هي الصلاة التي أمر الله بها ؟ وأين تقع من نفوسنا ؟ وكيف تلتقي بمشاعرنا ، وتلامس وجداننا ؟

وأين هو الصوم الذى يسلك في نفوسنا هذا المسلك . ويقع من قلوبنا هذا الموقع ؟

وأين الزكاة التي تؤديها — إن أديناها — بلا وعى ، ولا تقدير ، ولا نظر نافذ ، أو مشاعر متدسدة إلى مواضع الحاجة والعوز في المجتمع الإسلامى ؟

وَأَيْنَ . . وَأَيْنَ . . كل ما يأمر به الإسلام ، وينهى عنه ؟ وأين آثار هذا كله في حياتنا ، وفيما نأخذ أو ندع من هذه الحياة ؟
لا شيء !

لأننا لا نمسك من الدين — إذا نحن أمسكنا بشيء منه — إلا بالشكل دون المضمون ، وبالصورة دون الجوهر المضر فيها ، ويوم تتحول الأعمال والعبادات إلى صور وأشكال يؤديها المرء في آلية عمياء فإنه هيهات أن يحصل العامل أو العابد على ثمرة ينتفع بها في ماديته أو معنوياته جميعاً . .

من أجل هذا كانت « النية » وراء كل عمل في الإسلام ، ومِلَّاكَ كل أمر من أموره . . وليست النية التي عنها الإسلام ، وجعلها مناط الرضا والقبول لكل عمل ، كما يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » — ليست هذه النية كلمة تردد ، ولفظاً يقال بين يدي كل عمل ، وإنما هي قبل كل هذا عقد موثق بين الإنسان وبين من يُرفع إليه هذا العمل ، أو يُودى لحسابه ، ومن شأن العقد الذي يقوم على تلك الصفة أن يستحضر له الإنسان وجوده كله ، وأن يربط به تفكيره ووجدانه !

فإذا وقع العمل — أى عمل — في صحبة هذه النية الموثقة كان من شأنه أن يترك آثاراً واضحة فيمن عمله ، سواء أكانت تلك الآثار طيبة أم خبيثة ، على حسب العمل ذاته ، وما فيه من طيب أو خبيث .

ونخلص من هذا إلى القول بأن العبادات التي تعبد الإسلام بها أتباعه تحمل في طبيعتها من معطيات الخير ما من شأنه أن يزكى النفس ؛ وبطهر القلب ، وقيم الإنسان على طريق الحق ، والخير . . وذلك لا يكون إلا إذا خلط المرء وجوده كله بهذه العبادات حتى تنضح عليه من طيبها طيباً ، ومن حسناتها حسناً ! وإلا كان حظه منها إذا هو أداها هذا الأداء الرتيب الآلى حظاً من يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو بباله !

الفصل الثالث

المعاملات

والمراد بالمعاملات هنا ما يقع بين الناس من ضروب تبادل المنافع ، في مجالات الحياة . . من أخذ وعطاء ، وبيع وشراء ، ورهن ، وهبة ، وقرض ، وتأجير ، وتوريث ، وغير ذلك ، مما تنتقل به الأشياء والمنافع ، من يد إلى يد .

العمل ونظرة الإسلام إليه :

والعمل هو المصدر الطبيعي لحصول الإنسان على ما يصلح أن يكون شيئاً يتعامل به ، ويجرى في الحياة مجرى النفع والتبادل .

ولم يكتف الإسلام بالدوافع الطبيعية التي تدفع الإنسان إلى العمل والضرب في وجوه الأرض ، ليحصل حاجاته ، ويحقق مطامحه وآماله — لم يكتف الإسلام بهذه الدوافع الطبيعية ، بل عمل على إيقاظها ، وحمايتها من آفات التواكل ، التي قد تنسلط على بعض النفوس الضعيفة ، فتمسك بها عن السعي والجد ، وتقيمها في ظل الدعة والسكون الذي هو أشبه بسكون أهل انقبور — فدعا الإسلام إلى العمل ، وأهاب بأتباعه أن يعملوا ، ثم لم يكتف بهذا ، بل رفع مكانة العمل والعاملين إلى مقام العبادة والعابدين . . وبهذا لا يجد المسلم فرصة يتحلل فيها من هذا الأمر الملزم . . إن لم يكن عن داعية الدنيا ، فإنه من دواعي الدين !

فالعمل — في الشريعة الإسلامية — ضرب من العبادة ، يقترب به إلى الله ، وتُكفر به السيئات ، وتُغفر الذنوب !

العمل في شريعة الإسلام عبادة ، والعبادة عمل !

فالصلاة ، وهي رأس العبادات ، والركن الثاني من أركان الإسلام ، أظهر ما فيها

العمل والحركة .. من وضوء تتكرر فيه عمليات الغسل للوجه ، واليدين والقدمين .. إلى قيام ، وركوع ، وسجود ..

إن في هذه الحركات دلالة على ما ينبغي أن يأخذه الإنسان نفسه من ممارسة عمل من الأعمال ، حتى في مقام العبادة !

يقول الله سبحانه وتعالى في الدعوة إلى قراءة القرآن الكريم ، وتَدَبُّر معانيه :
« فاقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ .. عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى ، وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ، يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وآخَرُونَ يقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. فاقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ^(١) » .

فالضَرْبُ في الأرض معناه السعى ، والسعى بقوة حتى يزلزل الأرض ، ويوقظ نيامها .. وهذا السعى القوي يرفع الحرج عن المسلم الذي لا يكف على قراءة القرآن ، وإنه ليجزئه حينئذ قراءة ما تيسر منه . !

فالمسلم على جهاد ، مادام في سعى وعمل ، وقد أقام له العمل عذراً كعذر المجاهدين في سبيل الله ، بل لقد قدّم عذر العامل على عذر المجاهد ، وليس بعد هذا تنويه بشأن العمل ، وتكريم للعاملين !

عن رفاعه بن رافع رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل :
« أَى الكسب أطيب ؟ » فقال : « عَمَلُ الرجل بيده ، وكلُّ بَيْعٍ مَبْرُور ^(٢) » .

وجوه العمل في الإسلام :

وإذا كان العمل فطرة مركوزة في الإنسان ، فإن الإسلام لم يشأ أن يعترض

(١) سورة الزمل : ٢٠

(٢) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ١٣٢

هذه الفطرة ، أو يحجر عليها . . بل ترك أبواب العمل ومجالاته كلها مفتوحة للإنسان ، يدخل من أى باب ، ويسلك أى مسلك ، فكل عمل يبلغ بالإنسان غاية ، ويحقق له نفعاً من غير أن يؤذيه ، أو يؤذى الناس معه ، هو عمل مبرور . . يركبه الإسلام ، ويجزى عليه الجزاء الحسن .

يقول ابن تيمية :

« وأما العادات فهي ما اعتاده الناس ، والأصل فيها عدم الحظر . . ويقول : . . والعادات . . الأصل فيها العفو ، فلا يحظر منها إلا ما حرّمه الله تعالى ، وإلا دخلنا في معنى قوله تعالى : « قل أرايتُم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً ، وحلالاً » ^(١) . . ولهذا ذمّ الله للمشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله . . وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فاجتاتهم الشياطين ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » .

ومعنى هذا أن ما يجري في حياة الناس من مألوف عاداتهم هو وضع يحترمه الإسلام ، ويقر الناس عليه ، ولا يحرم عليهم من هذا شيئاً إلا ما خفيت عليهم أضراره ، أو اشتبه عليهم أمره . . كالخمر ، والخنزير . .

أما ما عدا هذا فهو بين أيدي الناس ، ما ارتضوه لصالحهم أخذوا به ، وما بان لهم ضرره ابتعدوا عنه وتجنبوه . .

ويقول ابن تيمية أيضاً :

« البيع ، والهبة ، والإجارة ، وغيرها . . من العادات التي يحتاج إليها الناس في معاشهم ، كالأكل ، والشرب ، واللباس . .

« فإن الشريعة قد جاءت في هذه العادات بالآداب الحسنة ، فخرمت منها ما فيه ضرر ، وأوجبت ما لا بد منه ، واستحبت ما فيه مصلحة راجحة في أنواع هذه العادات ، ومقاديرها ، وصفاتها »^(١) .

فإن « تيمية » يسمي المعاملات باسمها الصحيح الذي تعرفه الشريعة لها . . إنها عادات اعتادها الناس ، وفرضتها عليهم الحياة ، كما فرضت عادات أخرى . . كالأكل والشرب ، واللباس ، والسكن . . اهتدى إليها الناس بفطرتهم ، ووقعوا عليها بفريزتهم .

وحين نستعرض موقف الإسلام من أعمال الناس في شئون الحياة نراه لا يتدخل فيها إلا بقدر ، وفي أضيق الحدود . . يضع مبادئ عامة يسير الناس على هديها ، ويبصرون بها معائر الطريق ، ثم هم بعد هذا وشأنهم ، يذهبون كل مذهب يرون فيه مصلحتهم !

يقول الله سبحانه وتعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا »^(٢) . . ويقول سبحانه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدأوا بها إلى الحُكَّام لئن أكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون »^(٣) . . ويقول : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً »^(٤) . .

هذه بعض المبادئ العامة التي وضعها الإسلام لتقوم حدوداً فاصلة بين الناس وبين بنى بعضهم على بعض ، وعدوان بعضهم على بعض !

فلْيبيع الناس ما شاءوا ، وليشتروا ما أرادوا ، وليعملوا في كل ميدان ،

(١) القواعد النورانية الفقهية . لابن تيمية ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٥

(٣) سورة البقرة : آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء : آية ١٠ .

وايغرسوا في كل مكان .. على حسب ما اهدت إليه فطرتهم ، وما اطمأنت به حياتهم ..

فالم يحىء التصرف بعدوان على أحد فهو حلّ مباح .. أما إذا نجم عنه ما يضر بأحد من الناس فإنه يكون قد خرج عن الطريق الطبيعي الذي يقيم ميزان العدل بين الناس . كالغش والتدليس مثلاً ، فإنهما عمالان منسكران في البيع والشراء ، حيث يلحق ضرراً محققاً بأحد الطرفين ، وإذن يكون هذا البيع قد تلبس بالظلم والعدوان ، وخرج على مبدأ عام من مبادئ الإسلام .

وهكذا كل عمل يجري بين الناس ، في صورة معاملة من المعاملات ، لا نجد الإسلام قد تدخل في جزئياته ، ولا نظر إلى صورته وأشكاله ، وإنما ترك للناس فيه الحرية المطلقة ما داموا على طريق الحق والعدل !

* * *

وكأجلنا النظر في حكمة العبادات ، وموافقتها للطبيعة الإنسانية على امتداد أجيالها -

- كأجلنا هذا إلى المبحث الذي سنقدمه بعد هذا تحت عنوان: « سمات بارزة في الإسلام » - فإننا نحيل إلى هذا المبحث نظرة الإسلام إلى المعاملات ، حيث تتجلى هناك سماحة الإسلام وبسره !

* * *

الفصل الرابع

الخلقيات

الفراس والنمر :

تنفظم الشرائع السماوية صوراً ممتددة من الأحكام والتعاليم ، هي في مجملها منهج متكامل ، للتربية الروحية والعقلية ، وضعت يد الحكمة والعلم والقدرة ، في إحكام وتقدير ، بحيث يؤدي بالمستقيم عليه ، والعامل به ، والسائر على هذاه — إلى غايات الخير ، وإلى حياة طيبة ، تتوازن فيها مطالب الإنسان المادية والمعنوية .. الجسدية ، والروحية جميعاً .

وإذا كانت تلك هي رسالة الرسالات السماوية في الناس ، وغايتها التي تنفياها من وراء بعث الرسل بها ، ودعوة الناس إليها ، وإلى الأخذ بأحكامها وتعاليمها — إذا كان ذلك كذلك فإن حساب الدين في المتدينين لا يقف عند الصور والأشكال التي يأخذ بها المتدينون من الدين ، وإنما حسابه فيما يترك الدين من آثار في نفوس أصحابه ، وفي منازع تفكيرهم ، واتجاهات سلوكهم في وجوه الحياة ، مع أنفسهم ومع الناس !

وقد أشار نبي الإسلام لإشارة بليغة إلى حقيقة الدين ، وما يراد بالتعاليم والأحكام التي يحملها إلى الناس .. حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » ..

الإسلام والتربية الخلقية :

الجانب الخلقى في الشريعة الإسلامية هو الجانب الإيجابى منها ، وهو غاية

أحكامها ، ومرعى تعاليمها التي تدور حول تهذيب النفوس وتقويمها ، وتوجيه الناس إلى مقاصد الخير ومسالك النفع .

وبهذا كانت دعوة الرسول الكريم ، وكانت أوامر الشريعة ونواهيها ، وبمثل هذا يتحقق قول الله تعالى في نبيه الكريم : « وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين » إذ لا شك أن أهم مظاهر الرحمة الإلهية ، وأبرز آثارها في الإنسان ، هو أن يُحمَد خلقه ، وتُحَسِّن سيرته ، وتستقر حياته ، ويستقيم مع الناس خطوه .. وهذا بعض ما تشير إليه الآية البكرية : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .. والمحسنون هم الذين فتح الله قلوبهم للخير ، وسلك بهم مسالك الهدى ، فحسن قولهم ، وصلاح عملهم ، وطاب في الناس ذكرهم .

تلك هي غاية الرسالة الإسلامية .. خالق الإنسان الصالح ، في المجتمع الصالح .. ولن يكون الإنسان صالحاً إلا إذا توازنت قواه المادية والمعنوية جميعاً ، وتلاقى بعضها مع بعض على دواعي الخير ، وغايات الإحسان .. ولن يكون الإنسان إنساناً صالحاً إلا إذا كانت له شخصيته ومكانته وآثاره في المجتمع الذي يعيش فيه ، وذلك لا يتحقق إلا بسيرة طيبة ، وعمل نافع ، وآثار حسنة بارزة .. في ماديات الحياة ومعنوياتها جميعاً .

فرسالة الدين ، ومهمة رجال الدين أن يمشوا في الناس مشاعر الخير ، وأن يرسموا لهم صور السكال ، ويغروهم به ، وأن يدفعوا بهم إلى العمل لتحقيق هذه المعاني السكرية ، والصور الجميلة ، التي تترامى لهم من خلال مشاعرهم ، التي يهزها الدين ، وتثيرها تعاليمه العالية الرفيعة .

والعادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأخلاق ، التي رسمتها الشريعة الإسلامية إنما غايتها تخريج نماذج طيبة للإنسانية ، في صورة المسلم الذي تظهر عليه آثار الإسلام ، فتكسوه رواءا يبهز العين ، وجلا لا يملأ القلب ، ويثير عواطف الحب والإجلال ، التي يجدها الإنسان في نفسه ، حين يلتقي بمثل هذا النموذج الكريم من

الناس .. ولذلك يقول الرسول الكريم : « إنما بُعثت لأتّمم مكارم الأخلاق » ..
ومن تمام مكارم الأخلاق في الإنسان أن يَشْفَ ويصفو ، وأن ترتفع إنسانيته
إلى المدى الذي تنتهى عنده غايات الإنسانية ، في أسمى مدارجها ، وأعلى مواطن
كلها .. هنالك تجد الإنسان الذي نعرفه الآن في أرقى المجتمعات ، والذي يمدّونه
مثلاً للإنسان الكامل ، ويطلقون عليه لفظ « الجنتلمان » ..

وليس « الجنتلمان » إلا هذا الإنسان الذكي القلب ، الوضئ النفس ، التين
الخلق .. النظيف في هيئته ، المتجمل في زيه ، الملحوظ بتقدير الناس واحترامهم ،
أين كان !

والذي لاشك فيه أن هذه الصورة الإنسانية قد امتلأ بها العصر الإسلامي
الأول ، وعرف التاريخ في ذلك العصر نماذج كثيرة منها ، في المجتمع الإسلامي ..
بل نستطيع أن نقول : إن المجتمع الإسلامي الأول يكاد يكون كله ذلك
« السوبرمان » الذي يتخيله الفلاسفة ، وينتظرون ميلاد الحياة له ! فذلك هو حلم
الإنسانية ، يراود خيال الفلاسفة والحكماء في ظهور هذا الإنسان الفاضل ، كما
كانوا يحلمون بالمدن الفاضلة ، التي تضم مثل هذا الإنسان !

وبهذه التربية الحكيمة التي أخذ بها الإسلام المسلمين ، والتي استجابت لها
المقول والقلوب — استطاع المسلمون أن يدخلوا الحياة من أوسع أبوابها ، وأن
يقيموا دولة ملكت أطراف العالم ، وزخرت بألوان المجد والمظمة ، وأرست
قواعدها على أكرام للبائى وأسمى الفضائل .

نعم ، قام المسلمون الأولون على ركب الحياة ، يوجهونها ، ويدفعون بها إلى
الغايات النبيلة ، والمثل الفاضلة ، وقيمون في الناس موازين الحق والعدل ، بمأمل
الإسلام قلوبهم به من مشاعر الخير ، وعواطف المودة والإخاء .. وهذا شرح
عملي ، وشهادة واقعة لقول الرسول الكريم : « إن المرء ليدرك بحسن خلقه

مالا يدركه الصائم القائم » ! والمشار إلى إدراكه هنا ، إنما هو مما ترغب فيه النفوس الطيبة ، والمهم العالية من خير الدنيا والآخرة جميعاً . .

وإذا كان هذا في واقع الإنسان الواحد ، فإنه في واقع الجماعة أكثر حظاً ، وأبلغ أثراً ، فإن الأمة ، أو الجماعة ، تدرك بحسن الخلق في أبنائها مالا تدركه بالصائمين القائمين فيها ، إذا لم يتحقق للصائمين القائمين ما من شأن الصيام والصلاة أن يبعثاه في النفوس .. من الخلق الكريم ، والسلوك المستقيم !

وقد يدخل في وهمٍ واهم أن حسن الخلق يحىء بغير تربية وتوجيه . . كلا ، فإن الخلق الكريم يحتاج رياضة نفسية ، وتربية روحية ، أساسها العبادات الخالصة لله ، والاتجاه إلى الخالق العظيم ، إتجاهاً يفتح القلب ، ويجمع أشتات النفس ، ويصل الكيان الإنساني كلمةً بالملأ الأعلى .. وتلك هي العبادة التي تقوم المعوج ، وتصلح الفاسد ، وتستأصل أدواء النفوس ، وتفصل أدران القلوب ، وتنقى الإنسان من شوائب الضعف والصفار ! . . تلك العبادة التي يقول الله جلّ شأنه في واحدة منها وهي الصلاة : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، والتي يقول الرسول الكريم في واحدة أخرى منها ، وهي الصوم : « الصوم جنة » .. ويقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » .. ويقول : « ربّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » !

فاهذه العبادات المفروضة إلا منهج ربّاني ، للتربية الأخلاقية العالية ، التي من شأنها أن تخرج النماذج العالية ، والقمم الشاخنة من الناس . . فإن هي لم تثمر ثمرتها تلك في تهذيب النفوس ، وتقويم الأخلاق ، وتعديل السلوك : فهي عناء وجهد . . بلا ثمر ، وتعالى حكمة الله عن ذلك علواً كبيراً .

البَابُ السَّابِعُ

سمات بارزة في الإسلام

الفصل الأول

إنسانية الشريعة الإسلامية

الإنسان في ذاته وفي مجتمعه :

نريد بإنسانية الشريعة هنا أمرين :

أولهما : نظرة الشريعة إلى الإنسان في ذاته، من حيث هو كائن حي ، له وجود ذاتي ، وله مكان في هذا الوجود .

وثانيهما: نظرة الشريعة إلى هذا الإنسان ، باعتباره وحدة من وحدات المجتمع الذي يعيش فيه ، ويتعامل معه .

وقد تحدثنا في باب سابق عن الإنسان في ذاته ، باعتباره عالماً ، مستقلاً بحياة ، ومنفرداً بوجود .. كما تحدثنا كذلك عن نظرة الشريعة الإسلامية إليه ، في هذه الحدود ، وبذلك الاعتبارات . : وقد رأينا كيف وضع الإسلام الإنسان في هذا الموضع الكريم من الوجود ، وزوّده بالقوى العقلية ، والنفسية ، والروحية ، ليؤدي دور القيادة ، والسياسة ، والبناء ، والإصلاح .. في كل جانب من جوانب الحياة ، وفي كل مكسب من مكسبها .

وتتحدث هنا عن الإنسان في صلته بالإنسان ، وعن التربية التي تأخذ بها الشريعة الإسلامية ، لتقوم هذه الصلة على التعاون ، والتآزر ، ولتجمل من الإنسانية كلها قوة مجتمعة ، لتتغلب على قوى الطبيعة ، ثم إخضاعها لخير الناس جميعاً .

العراع بين الإنسان والإنسان :

والإسلام ينظر إلى الإنسان من هذا الجانب الجماعي ، من خلال حقيقتين ، أو غريزتين في الإنسان .. هما :

أولاً: حاجة الإنسان إلى الجماعة .. تلك الحاجة التي تدعوه في قوة، وفي إلزام إلى أن يعيش في مجتمع ، حيث لا يتوقع في حياة العزلة إلا الضمور ، والجفاف ، والمهلك !

وثانياً : أن الانسان حين يجتمع إلى الإنسان تقوم بينهما دواعي التنافس ، والحسد ، والعداوة ، والبغى ، والعدوان .. إلى جانب ما يقوم بينهما من تعاون وتساند!

وبهذا التقدير يضع الإسلام أحكامه ، ومبادئه ، ومليزماته التي يدعو الناس إلى التزامها .. في أنفسهم ، ومع غيرهم !

وكما اتضحَت إنسانية الإسلام في هذه الألفاظ والنعم ، التي كشف للإنسان عنها .. من أنه مخلوق كريم ، خلق ليكرم ويمجد ، لا ليهان ، ويشقى .. ومن أن هذه الموجودات التي في واقع حسّه ، هي مما سخّر الله له ، ليحيا معها وبها حياة كريمة طيبة — كما اتضحَت إنسانية الإسلام في هذه النظرة الكريمة إلى الإنسان ، فإنها تتضح كذلك في هذه الرعاية التي يرعى بها الإنسان ، بما تحمل إليه شريعته من وصايا وأحكام ، غايتها جميعها حماية هذا الإنسان من كل ما من شأنه أن يفسد عليه وجوده ، وينقص عليه حياته في الحياة ، أو يقيمه فيها مقاماً قلقاً مضطرباً !

الشريعة والمدعوون إليها :

وأول ما يبدو للناظر في الشريعة الإسلامية ، أن كل ما حملت إلى الإنسان ، من وصايا وأحكام ، ومن أوامر وزواجر ، وما رصدت من ثواب وعقاب ، وما وضعت من قيود وحدود — إنما كان ذلك كله لصالح الإنسان خاصة ، ولنفعه خالصاً ، غير مراد بشيء من ذلك إعنائه ، ولا إرهاقه ، ولا الانتقام منه ، أو التلبي به ، كما تحدث بذلك بعض الفلاسفات — الحديثة — وكما أشرنا إلى ذلك من قبل . وكيف يفهم عاقل ، أن الخالق جلّ وعلا ، يخلق خلقاً للعبث والتلبي ؟

فمن فهمَ هذا الفهم الخاطيء فليستمع إلى قوله تعالى : « وما خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
والْأَرْضَ ، وما بينهما .. لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحقِّ ، ولكن أَكْثَرُهم
لا يعلمون » (١)

وليفكر مرة ومرة قبل أن يلتقي بنفسه في هذا الضلال الآثم ، ويفرق في هذا
البهتان العظيم !

وإذا لم يكن في هذه الآية الكريمة ما يفتح لتلك العقول المغلفة طريقاً إلى
الهدى ، ومدخلا إلى الحق ، فليوجِّهها أصحابها إلى قوله تعالى : « أخسبتم أنما
خلقناكم عِبَادًا وأنكم إلینا لا تُرجعون » (٢) . . . وإلى قوله سبحانه : « وردُّوا
إلى الله مولا لهم الحق » (٣) وإلى قوله : « إنَّ إلى ربِّك الرجعى » (٤) !
ولينظروا :

أيجرِّصُ مَنْ عَبَّثَ بشيءٍ وحطَّمه ، ورمى به في « المزبلة » — أيجرِّصُ على
أن يجمعه من جديد ، ثم يضمه إليه ؟
« مالكم ؟ كيف تحكون ؟ »

وهل عرف الناس عاملاً يعمل عملاً ثم يدمره بيده ، ويفسده عن عمدٍ
وإصرار ؟ أليكون ذلك الإنسان معدوداً في الناس ، أو في عقلاء الناس ؟
وهل عرف الناس فتناً مهدداً خلق آية من آيات فتنه ، ثم لم يحطه برعايته ،
ويضمه إلى كيانه ، حتى يصبح بضعة منه ، وبضعة منه ؟

أفيكون الخلاق العظيم في سياسته مع ما خلق ، دون الإنسان المخلوق مع ما ينشئ
ويصور ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ؟

(٢) سورة المؤمنون ١١٥
(٤) سورة العلق آية ٨

(١) سورة الفخا آيتا ٣٨ ، ٣٩
(٣) سورة يونس آية ٣٠

فكيف إذن يُتصور هذا الفهم السقيم، الذى تقوم عليه الفلسفات المتشائمة، التى ترى الوجود « مزبلة »، يسبح فيها القاس كاتسبح الديدان فى الجيف ؟ !

لقد صحح الإسلام هذه النظرة السقيمة التى تنظر بها بعض الديانات والمعتقدات إلى الوجود عامة، وإلى الإنسان خاصة — فجعل الوجود كلّ نعمة من النعم، إذ الوجود — أياً كان، وعلى أية درجة كان — خير من العدم .. وبعملية الخلق والإيجاد هذه كان لله سبحانه الحجة على عباده .. إذ يقول سبحانه . « أفمن يَخْلُقُ كمن لا يَخْلُقُ أفلا تَدَّ كُرون .. وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها إن الله لغفور رحيم ^(١) »

وحيث يقول جل شأنه : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ^(٢) »

ثم كان خلق الإنسان على تلك الصورة الكريمة ، وعلى ما أودع فيه الخالق المبدع من قوى الإدراك والإرادة — كان هذا تكريماً آخر ، ونعمة فوق نعمة ..

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ! ..

« خلق الإنسان من علق ..

« اقرأ وربك الأكرم ..

« الذى علّم بالقلم .. علم الإنسان ما لم يعلم . »

فهذا أول ما أفتتحت به الرسالة الإسلامية من كلام الله سبحانه .. وفيها تمجيد الله جل شأنه بهذه الصفة ، صفة « الخلق » ، التى هى اسم من أسمائه الحسنى ، وصفة من صفاته الكريمة .. حيث سُمى سبحانه وتعالى نفسه « الخالق » و « البارئ » ، و « المصور » .. فقال تعالى : « هو الله الخالق ، البارئ ، المصور .. له الأسماء

(١) سورة النحل : آيتا ١٧ ، ١٨

(٢) سورة الشورى : آية ٢٩

الحسنى، يسبح له ما فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم^(١)، وهذا التسبيح إنما هو عبادة المخلوقين، وملاّتهم لله رب العالمين ..

نقول: إن الإسلام إنما جاء بأحكامه والتزاماته ليرعى هذا المخلوق الكريم - الإنسان - ويحفظ عليه نعم الله التى حباه بها .. فإن الإنسان إنما فُضِّل وكرِّم بهذه الفطرة السليمة التى فطره الله عليها، فإذا لم يستقم مع هذه الفطرة، وإذا هو لم يحمها من هذه الآفات المعارضة - ارتكس، وهوى إلى أسفل درجات المخلوقات، إذ ليس كالإنسان سموا وإشراقاً حين يصفو، وليس مثله إسفافاً وخموداً، حين يخبو، وتنطفئ جذوة إنسانيته .. والله سبحانه وتعالى يقول: «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»^(٢)

فالإيمان بالله أولاً، ثم العمل الصالح ثانياً - هما اللذان يحفظان على الإنسان إنسانيته، ويصفيانها أولاً، فأولاً من الأكداد التى تملقُ بها فى صراع الحياة ! ونسأل:

ماذا حملت شريعة الإسلام فى كيائها من قوى تستطيع بها أن تؤدى هذه الغاية التى جاءت لها .. من رعاية الإنسان، وصيانة فطرته، والسمو بإنسانيته ؟ والجواب يقتضينا أن نستعرض الشريعة الإسلامية كلها، فى أصولها وفروعها .. وأن نقف عند كل مقررات مبادئها وأحكامها .

وهذا مالا يَحْتَمِلُه هذا البحث الذى نريد أن نذهب به . مذهب الإيجاز، وحصر المسائل، التى إذا تشعبت فقد تَمَلَّ القارىء، وخاصة جماعة الماديين، الذين لا يبصرون طويلاً على مثل هذه المباحث !

(١) سورة الحشر: آية ٧٤ .

(٢) سورة التين: آيتا ٤ ، ٥ .

والذى نودّ أن نعرضه هنا، هو ما يكشف عن المبادئ العامة فى الشريعة..
وليس كلّ هذه المبادئ، بل سنكتفى ببعضها، . فى أى مبدأ من تلك المبادئ
تتجلى الروح العامة للتشريع الإسلامى، ويُعرف بها وجه الإسلام، فى وضائه
وإشراقه ! .

وفى هذا التقدير الذى قدرناه سنكتفى بعرض هاتين الحقيقتين فى إيجاز، وهما :

* عموم الشريعة .

* ويسرها .

الفصل الثاني

مجمع الشريعة الإسلامية

من أبرز ما تميزت به شريعة الإسلام — دون الشرائع السماوية كلها — أنها جاءت عامة للناس جميعاً . . ليست لقرية ، أو شعب ، أو جنس . . كما كان ذلك الشأن في رسالات المرسلين السابقين . . وإنما هي رسالة عامة شاملة ، للناس جميعاً ، في مختلف الأزمان ، والأوطان . .

ولأنه لكي يكون للرسالة الإسلامية الحق في أن تخاطب الناس جميعاً ، وتدعوهم إليها — كان لا بد أن تخرج بنفسها من أول يوم عن حدود الوطن ، والجنس ، واللغة . . إلى حيث الإنسانية جميعها ، في أزمانها وأوطانها ، وهذا ما كان ! فقد كان أول مفتتح الرسالة الإسلامية هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق » . . فالإنسان هنا ، هو الجنس الإنساني كله . . حيث كان ، وحيث كان جنسه ، ولونه ، وموطنه .

وهذا الخطاب الكريم هو نبأ عظيم عن الإنسان ، وأنه مخلوق بقدرة الخالق العظيم وحكمته ! ، وأن خلقه آية من آيات الله ، ينبغي أن يلتفت إليها العاقلون . ثم تجيء آيات القرآن الكريم شارحة هذه الحقيقة ، مؤكدة لها ، مثل قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر ، وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١)

ومثل قوله سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (٢) .

(١) سورة المؤمنون : ١٢

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣

وقوله : « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ^(١) » إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تحدث عن أصل الإنسان .. وأن الناس جميعاً لأب وأم .. فهم أخوة ، وأنهم من ماء وطين .. فهم همزة ضعاف ، لا ينبغي أن يعلو ضعيف على ضعيف ، ولا أن يستبدّ عاجز بعاجز !

هذه العمومية التي جعلتها الشريعة الإسلامية عنواناً لها، ليست واقفة عند حد التسوية بين الناس في الدعوة إلى مائدتها ، ثم يكون عند ذلك التفاضل والتمايز بين الناس ، فيما يتفاضلون فيه ويتمايزون من لون ، وجنس ، ومال ، وجاه ، وسلطان .. كلا .. فالناس على مائدة الإسلام سواء .. من جدّ وسبق ، نزل منزلة المقرّبين المكرّمين ، بسبقه ، وعمله ، وجده .. ومن أهمل وقصّر نزل حيث وصل به خطوه !

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يُجزّاه الجزاء الأوفى . »
هذا هو ميزان التفاضل والتمايز بين الناس .. الاستقامة على الشريعة والعمل بها !

ومن أجل هذا جاءت أحكام الشريعة عامة .. في أوامرها وزواجرها ، وفي ثوابها وعقابها ، وفي عباداتها ومعاملاتها ، في رخصها وعزائنها ..
فليس لأحد ، ولا لطائفة ، ولا لشعب ، أى امتياز ، يُخلّيه عن واجب ، أو أية حصانة تسقط عنه الحدود والتكاليف !

فقد فرض الإسلام العبادات على المسلمين بأمر واحد عام ..
« وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ^(٢) » .. « وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْحُمْرةَ لِلَّهِ ^(٣) » ..
« فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ^(٤) » ..

(٢) سورة البقرة ٤٣

(٤) سورة البقرة ١٨٥

(١) سورة نوح آية ١٧

(٣) سورة البقرة ١٩٦

« والسَّارِق والسَّارِقَة فاقطعوا أيديهما ^(١) » « الزَّانِيَة والزَّانِي فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ^(٢) » .

وهذه — كما ترى — أحكام عامة مطلقة ، تضع الناس جميعاً على وضع واحد منها . .

وحسبنا من قولة الرسول الكريم : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . . حسبنا من هذه القولة شرحاً عملياً لمومية التشريع الإسلامى . إذ تناول هذا الحدّ أعلى ذروة ، فلن يقصُر عن تناول التلال ، والسفوح ، والوديان ، والقيعان !

ومن عمومية الشريعة الإسلامية أنها تتولى الإنسان بحياطتها ورعايتها ، وتأخذ بأحكامها وتعاليمها . . منذ أن يولد ، بل منذ أن يكون علقه في بطن أمه . . إلى أن يكون رجلاً ، وإلى أن يصير رب أسرة ، وإلى أن يصبح عضواً في المجتمع ، ثم إلى أن يموت ، وبعد أن يموت !

فأولاً : فرض الإسلام على المجتمع حرمة دم الإنسان ، ودينه ، وعرضه ، وماله . . فأى عدوان يقع على أى فرد من أفراد المجتمع ، كان على الجماعة ، أو على من تختاره من بينها إقامة حدود الله على من تمدّى هذه الحدود !

وثانياً : أوجب الإسلام على الفرد الانضواء إلى المجتمع الإنسانى ، بعد أن كفل له الحماية فى داخل هذا المجتمع ، وبعد أن أبقى على رجوده الذاتى فيه ، فلم يضع معالمة ، ولم يمتع شخصيته ، أو يذيبها فى المجتمع .

إن الحياة تتعامل على الإنسان بوجهيه مما : الفردى والاجتماعى . . تستقبله فرداً ، فتعطيه وتأخذ منه ، وتستقبله مع المجتمع أو المجتمعات فى جميع مستوياتها ،

(١) سورة المائدة : آية ٣٨

(٢) سورة النور : آية ٢

فتمطيه ، وتأخذ منه أيضاً . . . وهى فى كلا الحالين ترى بكل مشخصاته ، تراه مرة كما يبدو من « عدسة » المصورة إذا كان بمفرده فى مجال العدسة ، وتراه فى الحالة الأخرى كما يبدو من خلال « عدسة » المصورة هذه ، وقد وقف فى مجالها مع ملايين الملايين من الناس .

كذلك شأن الإنسان مع الحياة ، ومع الناس . .

إنه يرى نفسه من خلال هاتين النظرتين . .

نظرة لا يرى فيها إلا نفسه هو ، ووجوده هو . .

ونظرة يرى منها نفسه عضواً — كبيراً أو صغيراً — فى المجتمع . .

فهو حين يكون فى مجتمع أمرته يبدو له كيانه واضحاً محدداً .

وكما كبر المجتمع الذى ينظر إلى نفسه فيه من خلاله وجد وجوده يتضاءل ويهت شيئاً فشيئاً ، ولكنه ان يضع هذا الوجود أبداً ، ولن يكتفى عن نظره ! وعلى هذا التقدير ، وتلك النظرة — بجانبها وعلى وجهها معاً — كان تقدير الإسلام للإنسان ، وكانت نظرتة إليه ، فى دعوته إلى شريعة هذا الدين ، وفى التعامل معه بهذه الشريعة .

إنه يلقاه بكل كيانه هذا الذى يعيش فيه . . فرداً ومجموعاً معاً .

إن تعاليم الإسلام — مع عموميتها — تعترف اعترافاً كاملاً واضحاً بذاتية الإنسان ، وبفرديته . . . وأنها إنما تعمل — فى الواقع — من أجل الإنسان من حيث هو إنسان له مفهومه الذاتى . . إذ هو فى نظر الإسلام عالم صغير ، له فلسفه الذى يدور فيه ، وله مشاعره التى يحيا بها ، وعواطفه التى يعيش فيها ، وضميره الذى يحكم إليه .

وإن الذى يضمن للإنسان حياة طيبة مباركة ، هو أن يصحح وجوده فى الحياة

وأن يصل مشاعره وأفكاره ونزعاته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ثم بالحياة كلها ،
وبالوجود كله ،

من أجل هذا جعل الإسلام للإنسان أكثر من مجال يتحرك فيه ، وأكثر
من لحن ينسجم معه ، على حسب طاقته وقدرته ، واستعداداته .

فهو مع أسرته .. من زوج وولد .. نعم فى لحن .

وهو مع أهله وعشيرته ، وذوى قرابته الأدين والأبعدين .. نعم فى لحن
أكبر ..

ثم هو مع المجتمع الذى يدين بدينه ، ويعتقد معتقده .. نعم فى لحن .

وهو مع الإنسانية التى يلتقى معها فى أصله الأول .. نعم فى لحن أكبر .

ثم هو مع الوجود كله فى أرضه وسمائه .. نعم فى لحن أكبر .. من هذا
اللعن .. نعم يصدق بتمجيد الخالق العظيم جل وعلا ، فيمن يمجده من عوالم
وأكوان !

فى هذه المجتمعات جميعها يجد الإنسان وجوده ، ويمجد الشريعة الإسلامية
تحتفظ له بمكانه فيه ، وتدعوه إليه ، مزوداً بالزاد الذى يحفظه سليماً سعيداً .

فى مجتمع الأسرة حددت الشريعة مكان كل فرد فيه .. الزوج والزوجة ،
والآباء ، والأبناء ، وحددت الحقوق والواجبات لكل عضو من أعضاء هذا
المجتمع .

وفى مجتمع الأهل والمشير دعت الشريعة إلى صلة الأرحام ، وبر الأقربين ،
ورعاية الجوار .

وفى المجتمع الإسلامى جاءت دعوة الإسلام بالأخوة ، والترام ، والتواد
والتعاون على البر والتقوى ، والدعوة إلى سبيل الله .

وفي المجتمع الإنساني رفع الإسلام الحواجز المصطنعة الكاذبة القائمة بين الجماعات على مدعيات باطلة، من الاعتزاز بالدم، واللون، والمال، والجاه، والسلطان .. تلك المدعيات التي أغرت الناس بعضهم ببعض ، وقطعت أواصر الأخوة بينهم .. فأرجع الإسلام الناس إلى معدنهم الذي خلقوا منه، ووردهم إلى أصلهم الذي تفرعوا عنه ، ودعاهم إلى أبيهم الذي ولدوا منه : « إنا خلقناهم من طينٍ لازبٍ ^(١) »

وفي المجتمع الكوني دعا الإسلام الإنسان إلى الخضوع والولاء لله ، فيمن خضع له سبحانه من كائنات الوجود كله ... إن كلُّ من في السموات والأرض إلا آتٍ الرحمن عبداً ^(٢) »

فمسئولية الفرد في الإسلام مسئولية بارزة واضحة .. ومن هنا كان اندماجه في المجتمع، قائماً — في شريعة الإسلام — على أساس الاحتفاظ الكامل بذاتيته ، حتى يستطيع أن يحمل المسئولية التي حُمِّلها في كل مجتمع يعيش فيه ..

والحقيقة البارزة التي يعلمها الإسلام في جميع أحكامه ، وتشريعاته وتعاليمه — هي أن المجتمع إنما قام أو يقوم لصالح الفرد ، وللبلوغ به إلى غايات الخير ، والأمن والسلام .. وأن الفرد مقصود لذاته في الخلق والتشريع ، وأن المجتمع ليس إلا عملاً من أعمال الفرد ، وتنظيماً من تنظيماته .. وما كان لعمل يعمل به الفرد بيده أن يفل هذه اليد ، ويأخذ عليها !

وإذن فعمومية التشريع الإسلامي ، وسبك الإنسانية كلها بل والوجود كله في بوتقة هذه الشريعة لا يذهب بشيء من ذاتية الإنسان، ولا يعطل شيئاً من قواه ولا يمسك مَلَكة من مَلَكاته !

فالإنسان هو الإنسانية كلها مجتمعة في شخصه .. في صورة مكبرة .

والإنسانية كلها هي هذا الإنسان .. مصوراً فيها .. في صورة مصغرة !

الفصل الثالث

بِسْمِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

البسر والسماحة .. أوضح سمات الشريعة الإسلامية .. بل ذلك هو عنوانها الواضح ، الذي تُعرف به ، ووجهها المشرق ، الذي تطلع على الناس بجلاها وعظمتها فيه !

فأى أمرٍ يحىء إلى الناس باسم هذه الشريعة ، إن افتقدوا فيه تلك الصفات فهو دخيل على تلك الشريعة ، مفهوم على غير وجهه الذى تريده .

وليس هذا القول عن فرض وادعاء ، بل هو حقيقة من حقائق الإسلام ، تأخذ مكانها واضحاً بارزاً فى نصوص شريعته ، حتى لكانها حكم ملزم من أحكامها التى يجب اتباعها والعمل بها !

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فى التشريع لفريضة الطهارة : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى السكبين ، وإن كنتم جنباً فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه .. ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون » (١) ..

ويقول سبحانه ، فى الكشف عن حقيقة هذا الدين كله :

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج . ملةً أبىكم إبراهيم ، هو سماًكم

(١) سورة المائدة : آية ٦ .

المسلمين من قبل^(١).. وتقرر هذه الآية أن الحرج منفيّ في مسائل الدين كلها . .
ويقول سبحانه : « يريد الله أن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وِجْيَارَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا^(٢) » . .
والإسلام هنا ينظر إلى الجانب الضعيف من الإنسان ، ولا يلتفت إلى ما فيه من
غرور وادعاء . . وهذا الضعف هو داعية الرحمة ، والرفق ، والتخفيف عن هذا
الإنسان ، الذي يغلب عليه الضعف ، وتتجسم فيه الضرورة ! وفي هذا يقول
الرسول الكريم : « سِيرُوا بِسِيرِ أَوْعَافِكُمْ » !

وهذا المبدأ من مبادئ الإسلام يكشف عن وجه الشريعة الإسلامية كلّها !
فوكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء في ماديّات الحياة
ومعنويّاتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالأقدام ، ولا يتخطاهم الرّكب !

وهذا — بلا جدال — إعلان من نور ، وصفحة مشرقة ، مسطورة بيد
الرحمة والحكمة ، تنبئ عن مكانة الإنسان ، وتحدث عن عناية الله به !

فالإنسان شيء عظيم عند الله . . ينبغي أن يُصان ، وألا يضيع بحال أبداً !
مهما يكن أمره من الضعف ، فإن على الجماعة الإنسانية أن تتقيّد به ، لا أن يتقيّد
هو بها . . ومن حق الإنسان الفرد على الجماعة أن يحيا فيها ، وأن يُفَسَّحَ له مكان
طيب منها .. أياً كان حظه من القوة ، أو الذكاء ، أو العلم !

فأين من هذا ما تدور عليه حياة كثير من الجماعات ، التي تصف نفسها بالرقىّ
والحضارة ، في عصر الرقىّ والحضارة ؟

إن الإنسان في كثير من هذه المجتمعات لا يعدو أن يكون أداة من أدوات
الإنتاج ، سواء أكان هذا الإنسان في مجتمع الشيوعية ، أو المجتمع الرأسمالي !
فالشيوعية فرضت الآلية على الإنسان فرضاً ، وجعلته ترساً في عجلة الحياة ، يدور

مع هذه العجلة، ويتحرك بحركتها، بلا إرادة ! على حين قامت الحياة المادية في المجتمع الرأسمالى على هذه الآلية ، فجعلت الإنسان آلة متحركة لجمع الأموال ، وتثميرها ، وعبادتها .. إنه عبد مسخر لنفسه ، لا يختلف كثيراً عن هذا العبد المسخر للجماعة !

إن إنسان هذا العصر المادى إنسان ضائع ، يعيش فى نفسه ، ولنفسه .. فى عزلة باردة ، لا تعطفه عاطفة على أحد ، ولا تتجه إليه هو عاطفة من أحد . !

وإن المجتمع الإنسانى المتحضر اليوم ، قد انحلت فيه كل رابطة تقوم على العاطفة ، أو تفيض من الوجدان .. فن هفل عن نفسه فى هذا المجتمع أكله الناس ، كما تأكل الذئاب جرحاها !

واستمع مرة أخرى إلى هذه الكلمات، أو القذائف المدمرة، التى تنطلق من قواعد الفلاسفة المادية ، فتهلك الحرث والنسل ، وتحرق كل عاطفة إنسانية كريمة فى الناس .. يقول « نيتشه » فيلسوف للمادية وحكيمها :

« إن الرحمة ، والتعاون ، والحب ، وكافة الفضائل المسيحية — يقصد مسيحية المسيح التى بشر بها — هى مجموعة من الدجل والخرافات ، تستهدف رعاية الغوغاء والدعماء والقطعان !

« وهؤلاء جميعاً — من فقراء ، ومرضى ، ورضعفاء — يموتون التطور الإنسانى ! ! فى حين أننا يجب أن نُخلص لنوعنا البشرى ، بأن نبقى على الأقوياء فى الذهن ، والجسم ، والروح ، ونعمل على إفناء الآخرين .. حتى نحصل فى النهاية على السوبرمان »^(١)

هذا هو دين الفلسفة المادية ، يبشر به نيتشه ، ويعيش به الناس فى القرن العشرين . !

(١) حرية العقل فى مصر .. لسلامة موسى .

وقد اعتنق هذا الدين كثيرون ، بل ودانت به شعوب . ! إذ شهدت الحياة دعوة « هتلر » التي تقوم على أساس هذا المبدأ ، الذي يجعل للعنصر الجرمانى السيادة والامتياز على الجنس البشرى كله . ثم يعود إلى العنصر الجرمانى نفسه فيقتل من فيه الحشائش الضعيفة ، والنباتات المريضة ، حتى يستولد « السوبرمان » من هذا الشعب القوى ، المصفى من المرضى والضعفاء !

أرأيت إلى هذا الوجود الذى يعيش فيه الإنسان اليوم ؟ ثم أرأيت إلى هذا الضياع الذى يعيش فيه الأقوياء والضعفاء على السواء ؟

إذن فاستمع إلى دعوة الإسلام ، التي يقيم عليها مجتمعه . . استمع إلى قول نبي الإسلام : « سيروا بسير أضعفكم » ، ثم قف خاشعاً بين يدي هذه الروعة ، وهذا الجلال !

وضع هذا الهدى النبوى الكريم فى ميزان الحياة الغربية الذى اختل واضطرب — يعدُّ إليه اعتداله وتوازنه ، وتنضبط فيه خطوات الجماعة والأفراد على الخير والعدل ، ويخفت فيه صوت هذه الدعوات الجنونية ، التي تعوى عواء تستعدى به الأقوياء على الضعفاء ، ليتخففوا من أعبائهم ، وليسرع خطوهم فى الحياة ! وقد يسأل سائل :

كيف تمضى الحياة بهذا الركب الذى يدعو الإسلام الناس إليه ، ويلزمهم فيه أن يسيروا بسير أضعفهم ؟

وهل يستطيع مثل هذا الركب السلحفائى أن يبلغ غاية ، أو يحقق مقصداً ؟ ثم أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامى ، وسبب ضعفه ، وتخذه بين المجتمعات الإنسانية — بما شاع فى تفكيره ، وتسرب إلى وجدانه من مثل هذه الدعوة ؟

ثم ماذا يُرجى لسائر يسير بهذه الخطأ الواهية الواهية ، بينما الناس يحرون ،

ويعُدُّون ؟ ماذا يُرجى لهذا الإنسان ويتوقع منه غير التخلف والمعجز عن أن يفشل شيئاً من طيبات الحياة ، التي تمتلئ بها أبدى الجادِّين المنطلقين ؟

ونقول إن هذا الذى يدعو إليه الإسلام من أن يسير المجتمع الإسلامى بسير الضعيف — ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المشتعلة فى كياناتهم ، بقدر ما هى حثُّ للضعفاء على إطلاق القوى الكامنة فيهم ، وبعثها من رقدتها ، عن طريق الغيرة والتنافس ، والعدوى ، التي تهبَّ عليهم من جهة الأقوياء !

إن من تدبير الإسلام فى هذه الدعوة هو أن يحمل من طاقات الأقوياء ، ومن حرارة العزم والحماس الذى يملأ صدورهم — دفناً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطردهم عن كياناتهم ضباب اليأس الذى يلفهم كما يلف الميت فى كنفه !

إن الذى يريده الإسلام بهذا التدبير الحكيم هو استنفاد هذا المدد العديد من ضعفاء النفوس ، أصحاب الهمم الفاترة ، والعزائم الخائرة ، حين يضمهم الركب القوى إليه ويهتف بهم إلى السير معه .

ولاشك أن فى هذا كسباً للجماعة ، وزيادة كبيرة فى رصيدها من القوى العاملة فى الحياة ، بهذا العدد الكبير الذى يضاف إليها من الضعفاء ، الذين كانوا — لولا هذا التدبير الحكيم — فى عالم الضياع والموات !

وانظر :

إن انطلاق الأقوياء انطلاقاً لا التفات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس فى قلوب المتخلفين ، فيظلون حيث هم ، دون أن يتحركوا . . . إذ لا فائدة من الحركة ، ولا أمل فى اللحاق بالركب المنطلق !

وربما بدا لبعض القائلين أن يقول : ولم لا يقع عكس هذا ، وهو أن تجميء العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى « سلحفاة » لا تتحرك إلا فى مدار محدود . . فى تناقل وتباطىء ؟ ألم لا يقع هذا ؟

ونقول :

إن هذا القول مردود لأمر .. منها :

أولاً : أن الإنسان مدعوٌ من جانب ذاته ، ومن غريزة حب تحصيل الخير لشخصه أن يسعى ، ويعمل ، وأنه إذا وَجَدَ الجادين العاملين استولى عليه دافع التنافس ، فدفع به إلى مساهمة السابقين واللاحق بهم . . وخاصة إذا استشعر أنه لن يidas تحت أقدام الركب الذى يسير فيه إذا خارت قواه ، وخذلته قدماه . . إنه سيجد أيدياً كثيرة رحيمة تحنو عليه ، وتدفعه ، ولا تدعه وشأنه ، يلتقى مصيره المحتوم !!

إن إلزام الجماعة بأن تسير بسير الضعفاء ، يعطى الضعفاء إحساناً بأنهم لو اندفعوا وانطلقوا ، ثم أدركهم الجهد والإعياء فلن يُتركوا فى عرض الطريق ، ولن يرمى بهم على جانبيه . . وبهذا لا يتردد ضعيف فى الانضواء إلى الركب ، وفى الإقدام ، والمغامرة .

وثانياً : أن الإنسان فى الركب الإسلامى مدعوٌ إلى العمل والكفاح ، وذلك إلى ما فى الإنسان ذاته من دوافع العمل والكفاح ، حفظاً لكيانه ، ومناصفة لأقرانه — وأنه إذا قصر فى ذلك عُدَّ مخالفاً لشرعية دينه التى تجعل العمل عبادة وقربةً ، يتقرب به إلى الله . . كما أشرنا إلى ذلك فى أكثر من موقف فى هذا البحث . هذا ، وليست دعوة الإسلام هذه ، التى تأخذ على الأقوياء طريقهم ، فى الانطلاق إلى غايةٍ ما تحتل طاقاتهم . . فإن كل فرد — فى ظل هذه الدعوة — مطالب بأن يبذل كل جهده ، ويطلق كل طاقاته فى مجال عمله ، وأن يتحرك فى كل اتجاه ، مادام آخذاً طريقاً مستقيماً ، لا يعتدى فيه على أحد ، ولا يظلم أحداً !

فالتباس فى مفهوم هذه الدعوة فى حرية مطلقة فى ميدان الأعمال ، حسب طاقاتهم واستعداداتهم . . ولكن الذى تقصد إليه تلك الدعوة هو أن تتسقى

حركات الجماعة ، حين تدعوها غاية ، ويجمعها عمل . . سواء أكان ذلك في شئون الدنيا ، أم في أمور الدين !

ففي السير إلى الجهاد ، وملاقاة العدو . . ينبغي أن تسير الجماعة في ركب واحد ، وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ما عند الأقوياء من قوة . . فإذا كان لقاء العدو فينبغي أن يعطى كل واحد من الجماعة ما عنده من قوة ، وأن يُبلىّ بلاه في المعركة ، فلا يقع -- مثلاً -- أن يسير على بن أبي طالب في محاربة العدو على حذر من هم دونه قوة ، وشجاعة ، وصبرا !

وفي الصلاة — صلاة الجماعة — مطلوب فيها شرعاً التخفيف ، وأن يراعى فيها حال الضعفاء والمرضى ، وأن تقدّر بالقدر الذي لا مشقة عليهم فيه . . فإذا كان الإنسان وحده في صلاته أقام صلاته على ما يحتمل !

* * *

ومن جهة أخرى . . .

فإن في دعوة الإسلام هذه رحمة بالأقوياء أنفسهم أن يحرقوا كل طاقاتهم في سكرة الانطلاق ، حيث التزاحم والتدافع والتنافس ، وحيث يذهل الإنسان — في مثل هذا الموقف — عن نفسه ، وينسى ما ينبغي أن يكون لبدنه ، وعقله من حق في الدعة والراحة ، بعد العناء والتعب . . إذ كثيراً ما يقع الإنسان فريسة هذا الانطلاق المجنون ، فتبطل قواه ، وتفسد صحته ، ويصبح غير صالح للعمل القليل ، فضلاً عن الكثير !

ولعل فيما يرى في المجتمعات الأوروبية والأمريكية التي جرقها تيارات الحياة المادية ، وألمبتها سياط التنافس — لعل فيما يرى من تلك الآثار السيئة التي أصيب بها كثير من الناس هناك ، من انحلال في القوى الجسدية ، والعقلية ، فوق ما أصيبوا به في حياتهم الروحية — لعل في هذا شاهداً بشهد عن عيان ، لصدق دعوة الإسلام

هذه ، وما وراءها من خير وفير ، في محيط الفرد والجماعة ، وفي جانب الأقوياء والضعفاء جميعاً .

* * *

وهذه الدعوة التي يدعو إليها الرسول الكريم : « سيروا بسير أضعفكم » ليست مجرد دعوة على سبيل الاستحباب أو الندب ، وإنما هي عن أصل من أصول الشريعة ، بل عن الأصل الذي تقوم عليه جميع أصولها ، وهو « الوسط » الذي انفرد به التشريع الإسلامي من بين الشرائع السماوية كلها . . . وهو سمة الإسلام ، وسمة أهله . . . قال الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً »^(١)

والوسط من كل شيء هو مركز الاعتدال ، منه ، ونقطة التوازن فيه . وطبيعي أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس غاية السكال . . . ولكنه مع هذا خير — في مجموعه — مما فوقه ، لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب إلى متناول الناس . . . إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعمّ منهم .

إن الاعتدال في أي شيء وفي كل شيء ، هو مما يحتمله الناس ، ويقدرّون على الوفاء به ، ويصبرون على ما يكره منه . . . أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه . . . وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل ، فيختلّ توازنه ويسقط . . . ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث الاعتدال ، الذي يجد الإنسان في مجاله القدرة على التحرك إلى فوق وإلى تحت . . . وهو في تلك الحركة لا يخرج عن القام الكريم اللائق به ، حيث يظل بالوضع الذي يشرف منه على الأرض ، ويستشرف للسماء !

(١) سورة البقرة : ١٤٣

وقد يقول بعض القائلين : إن الوسط لا طعم له ، ولا ذاتية لوجوده .. إنه أشبه شيء بالخيط الوهمي .. إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شيء ! .
إن القسمة في الأمور هي : الشيء وما يقابله : الخير والشر .. الأبيض والأسود .. الحلو والمر .. الجميل والقبيح ! .

والوسط الذي يفصل بين هذه المتقابلات ليس إلا خطأ وهمياً !
ثم كيف يكون الوسط هو الطريق المحمود ، والله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق في مجال الخير ، فيقول سبحانه : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدَّت للمتقين .. الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ^(١) » .. لقد فتح الله المجال للتنافس بين المتنافسين في الخير والإحسان على مصراعيه ، بلا حدود ، ولا قيود ! « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ^(٢) »

فما تأويل هذا ؟

ونقول : إننا لا ننكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها ، بل إن ذلك مندوب ، محمود .. فالطريق إلى السكال مفتوح للناس جميعاً .. ليس عليه حارس .. فكل من وجد في نفسه القدرة ، وأنس منها الاستعداد على مجاوزة حد الوسط إلى ما فوقه — فله أن يسير إلى حيث يبلغ به جهده ، وتُسعفه قدرته .

ولكن هذا شيء .. والتشريع العام شيء آخر !

التشريع إلزام لا انفكاك منه .. وهذا عن تطوع واختيار .. التشريع عقد بين صاحب الشريعة ، وأتباع هذه الشريعة .. فهم مطالبون بالوفاء به ، إذا قَصَرُوا حوسبوا على تقصيرهم ، وأخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار .. إذ يستطيع الإنسان أن يَمْضِيَه ، أو يُعْفَى نفسه منه . ولا لوم عليه !

والتشريع حين يكون عاماً، تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائماً على معيار يسمع الناس جميعاً . . الأقوياء والضعفاء . . فى جميع الأزمان والأوطان !

كذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده فى دعوتهم إلى الإسلام ، الذى أريد له أن يكون دين الإنسانية ومُخْتَمَ رسالات السماء — اقتضت هذه الرحمة الراحة أن يكون التشريع فى شريعة هذا الدين مقدراً على ما يحتمل الضعفاء والأقوياء . . وأن يكون ما فى الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم ، يزدادون به كما لافوق السكال الذى بلغوه بأداء ما كُلفُوه . . فإنه ما على المحسنين من سبيل !

وهنا يتضح معنى الآية الكريمة : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) . . إذ أن أى نفس — فى مفهوم هذه الآية — لا تضيق بالتشريع الذى قدَّ على قَدْر الضعفاء ، وفضل على مدى احتمالهم ، وما تسع نفوسهم . . حيث تنسع له نفوس الضعفاء ، وتنسع له ولأكثر منه نفوس الأقوياء !

هذا ، ويتجلى سر الشريعة ، وسماحتها فى جانبها النظرى والعملى معاً . .

فى الجانب النظرى ، نجد هذا الوضع والعديد لضبط مسائلها ، وعرضها فى أسلوب سمح مشرق ، تتكشف للناس منه حقائق الشريعة ، دون أن يكونوا تحت سيطرة الكهان والأخبار ، الذين يستبدون بالرأى فى حقائق الشريعة ، ولا يدعون لأحدهم رأياً أو نظراً . . !

وقد كشفنا عن هذا الوجه فى بحث مضى . . وسنزيده هنا كشفاً . . بعد قليل . .

أما الجانب العملى الذى يظهر فيه يسر الشريعة فيبدو فيه فى وجوه كثيرة . . منها :

أولا : التكاليف المفروضة .

وهى نوعان :

١ — عبادات : من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج .

٢ — ومعاملات . . من بيع وشراء ، وأخذ وعطاء . . وغيرها .

والعبادات التى فرضها الإسلام على أتباعه ليس فيها ما يخرج عن طاقة أو اسط الناس جهداً ، بل إنها فى مستطاع من هم دون المتوسط قدرة وقوة .

ثم إن هذه الفروض تخفف ، أو تؤجل ، أو تسقط . . حسب الظروف والأحوال .
فالصلاة مثلاً . . تُقصر فى السفر . .

ويأتىها المصلّى قائماً ، أو قاعداً ، أو مضطجعا ، أو نائماً ، بحركة أو إشارة . .
على حسب حاله الصحية ، أو على حسب الظروف المتلبسة به .

والزكاة . . تسقط إذا لم يملك المسلم نصيباً معيناً من المال .

والصوم . . رُخص فيه الإفطار للمسافر ، والمريض ، والحامل ، والمرضع
والشيخ الهرم . . على حسب التفصيل المعروف فى كتب الفقه .

والحج يسقط عن لا يستطيع إليه سبيلاً . . وهكذا .

ومن جهة أخرى . . فإن الرفق هو دعوة الإسلام التى تسبق كل عمل من
هذه الأعمال ، التى يدعو إليها ، ويأمر بها .

ووصايا الرسول ، وسنته القولية والعملية فى هذا الباب تشرق بوجهها المشرق ،
لترد كل شارد عن القصد والاعتدال ، ولتمسك كل مُحال فى صلاة أو صوم ،
أو زكاة ، أو أية قرينة يقترب بها إلى الله . .

يقول النبیّ الکریم لصاحبین من صحابته بعث بهما إلى الیمین : « یسرّا ولا تعسرّا » ویقول : « بعثت بالحنیفة السمحاء » ویقول : « إن هذا الدین متین ، فأوغل فیہ برفق . . وإنه لن یشاد الدین أحد إلاّ غلبه » . . ویقول : « إن هذا الدین ذلّول لا یرکب إلاّ ذلّولا » .

ومما یدخل فی هذا الباب ، ویحسب علیه فی یسر الشریعة وسماحتها — هذا الوضوح المشرق الذی صیغت فیہ أحكام هذه الشریعة ، وحُملت إلى الناس به . . وحسب هذه الأحکام وضاعة ، بإشرافنا أن یحملها کلام الله ، وأن یتلقاها رسول الله فی هذا الکلام الکریم ، الذی أصبح قرآن المسلمین ، یتعبدون بتلاوته ، وترتیل آیاته !

وإنه لکی یکون للتشریع — أی تشریع سماوی أو أرضی — الأمر المرجوّ منه فی مجتمعه ، المدعوّ إلى التزامه ، والتعامل به — ینبغی أن یکون واضح العبارة ، محدّد المعنی ، بعيداً عن الرمز والتفصیة ، مجانباً المسالك الوعرة ، والطرق المعوجة ، أخذاً الناس إلیه من أقرب طریق وأعدله ، وأيسره . . وإلاًّ تاه الناس فی دروبه ، وضلّوا فی مسالکهم ، وتقطّعت بهم الأسباب ، دون أن یقعوا على حقائق التشریع ، وأن یدرکوا مقاصده ومرامیه . . الأمر الذی لا یجعل لهذا التشریع أثراً فی نزعات الناس وفی سلوکهم ، وإن یکن له من أثر ، فهو الحيرة ، والبلبلة ، والاضطراب .
والتشریع الإسلامی الذی یحمل نصوصه القرآن الکریم والسنة المطهرة ، یمثل أکمل وأدق تشریع عرفته الحياة . . فی وضوح المعنی ، وضبطه ، وإحکامه .

وقد أشرنا من قبل إلى تلك الخاصیة التي انفرد بها التشریع الإسلامی من النصّ العریج فی صلب هذا التشریع ، على أنه « بلسان عربی مبین ، كما أنه وصفّ الکتاب الکریم الذی حمل هذا التشریع بأنه جاء « قرآناً عربیاً غیر ذی عوج » (١) .

وقد أخذ أتباع هذه الشريعة أنفسهم من يومهم الأول معها على هذه الصفة ،
وأنها عربية اللسان ، مَبِينَةٌ عما تحمل إلى الناس من أحكام وتشريعات . . وأنه
ليس فيها رمز ولا تعمية ، وليس لكلامها ظاهر وباطن . . بل هي اللسان العربي
السليم ، المبين ، الذى يتعامل به العرب فى حياتهم العامة ، فى الجاهلية
والإسلام . . فمن عرف هذا اللسان ، وتعامل به عرف وجه الشريعة ، وفقه دعوتها !
وبهذا وقف المسلمون إزاء الشريعة الإسلامية على قدم المساواة ، ليس
لأحد أن يقول فى الشريعة قولاً لا يقوم له شاهد من دلالات اللغة ومفاهيمها .

وحادثة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه ، والمرأة العجوز تغنى عن كل قول
يقال فى هذا المقام !

فقد دعا عمر فى إحدى خطبه ، وهو على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم —
دعا إلى عدم المغالاة فى المهر ! وجماعة النساء فى أقصى المسجد يسمعن هذا القول ،
فقامت عجوز من بينهن تردّ على عمر دعوته تلك ، وتواجه بكتاب الله ، وتقول :
كيف هذا يا عمر ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوج
مَكَانَ زوجٍ ، وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً . . »^(١) ؟

وهذا تنبّه عمر إلى ما كان منه . . فقال : « أصابت العجوز ، وأخطأ عمر » !
يقول عمر هذا على المنبر ، وعلى رموس الأشراف . . وهو أمير المؤمنين . ! ويقف
مع العجوز أمام الشريعة الإسلامية على حد سواء ، بل إنه ليعطى العجوز هنا حق
السبق والتقدم عليه !

ومن أجل هذا ، فقد تَرَمَّ الله سبحانه وتعالى القرآن من أن يدخل فى نظمه
شئ من أساليب الشعراء ، أو سجع الكهان ، كما حى نبية وحفظه من أن يكون
فى الشعراء أو الكهان . . فقال تعالى . « وما هو بقول شاعر . . قليلاً ما يؤمنون ،

ولا بقول كاهنٍ . . قليلا ما تذكرون . . تنزيل من رب العالمين » ^(١) وقال :
« وما علمناه الشعر وما ينبغي له . . إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » ^(٢) . . وذلك
أن أساليب الشعر والسكاهنة أساليب غميلة بكثير من الغموض ، والخيال . . الأمر
الذى يسمح للناظر فيها بأن يخلطها بمشاعره ، وأخيلته وأوهامه . . قال تعالى :
« والشعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وأنهم
يقولون ما لا يفعلون » ^(٣) !

ولم تكن هذه الحماية التى فرضها الله سبحانه وتعالى على لسان الشريعة
وعلى الرسول الذى بلفها — إلا ليقم هذه الشريعة على وجه واحد مفهوم للناس
جميعاً ، ليس لأحد أن يخرج مقولاتها كأتخرج مقولات الشعراء ، والكهان !
وقد يسأل بعض السائلين :

إذا كانت نصوص الشريعة الإسلامية على هذه الصفة من الوضوح والضيطة ،
فكيف حدث هذا الخلاف الشديد البعيد بين علماء الشريعة وفقهائها فى
استخلاص الأحكام منها ، وفى الوقوف على المفهوم المراد من عباراتها وألفاظها ؟
كيف يتفق هذا مع هذه المذاهب المختلفة ، وتلك الفِرَق المتعددة التى تدين كلها
بالإسلام ، وتدعى كلها أنها هى التى تقول قولة الحق فى النصّ الشرعى ؟

وجوابنا على هذا من وجوه :

أولاً : لا ننكر أن هناك خلافاً كثيرة وقعت حول فهم النصوص الشرعية
من قرآن وسنة .

ولكن ينبغى أن نفرّق فى هذا بين نوعين من الخلاف .

فهناك خلاف يقع عن نظر واجتهاد مجرّدين من الهوى ، خالصين من الغرض ،

(١) سورة الحاقة : آية ٤١ — ٤٣

(٢) سورة يس : آية ٦٩

(٣) سورة الشعراء آية ٢٢٤ — ٢٣٦

وإنما يُبْتَنَى بهما وجه الحق ، والحق وحده ، دون أن يكون من وراء ذلك دوافع شخصية أو طائفية ، أو حزبية .

والخلاف الذى يقع فى هذا المجال ، ليس فى الحقيقة خلافاً بفيض الوجه، مكروه الصورة ، بل هو خلاف مبارك الطلعة ، ميمون النقيبة ، إذ كان من شأن هذا الخلاف الواقع فى دائرة الحق ، أن يوسع من تلك الدائرة ، وأن يسع طاقات الناس ، ويحملهم بظروفهم وأحوالهم ، من غير أن يفتنهم أو يمحرجهم ، ومن غير أن يحملهم جميعاً على خيط أحد من السيف، وأرق من الشعرة — كما يقولون .

كان من روعة التشريع الإسلامى ودقته ، وإحكامه ، وبسره — أن جاء فى هذا الأسلوب المعجز ، الذى يتسع منطوقه لمفاهيم متعددة ، متقاربة أو متباعدة ، دون أن يكون فى أى منها خروج على دلالات الألفاظ ومفاهيمها ، كما استعملها العرب فى شعرهم ونثرهم . وهذه خصيصة من خصائص اللغة العربية ، التى تخيرها الإسلام من بين اللغات جميعها، لجل رسالته . وهى إعجاز من إعجاز القرآن، بل هى وجه بارز من وجوه إعجازه !

والخلاف الذى وقع بين المذاهب الأربعة هو خلاف من هذا القبيل ، الذى يحتمل فيه النص أكثر من مفهوم . . دون أن يكون فى أى مفهوم فهم عليه؛ خروج على أصل من أصول الشريعة ، أو مصادمة لنص صريح من نصوصها .

وهذا الخلاف فيه توسعة على الناس ، ولهذا عدّه المسلمون باباً من أبواب الرحمة ، التى هى أصل من أصول دينهم ، ولم يروه سبب فرقة أو عداوة .. فكل وجه من وجوه الرأى المختلفة ، هو طريق مستقيم إلى الحق ، ومنهج قاصد إليه .

ومن أجل هذا ، لم يكن بين أتباع المذاهب الأربعة من مباغضة أو مباحدة، إلا حين يخيم الجهل على الناس ، أو تستغلظ نفوسهم نوازع التعصب الأعمى، الذى يملك عليهم أمرهم فى كل مجال . . فى السياسة والعقيدة .. على السواء .

ولهذا أيضاً كان كثير من كبار العلماء والفقهاء يتمذهب بأكثر من مذهب ..
بل كان بعضهم يتمذهب بالمذاهب الأربعة جميعاً ..

يقول المستشرق « جولد تسيهر » في كتابه : « العقيدة والشريعة في الإسلام » ،
في صدد هذا الخلاف المذهبي بين المجتهدين : « وقد اقتنع هؤلاء الرجال العمليون
من أول الأمر بأنهم جميعاً على الحق ، وأنهم يخدمون مبدءاً واحداً ، وعلى هذا
الأساس كانوا يتبادلون الاحترام الواجب .

« وفي الغادر أن يقع بين هؤلاء المغلوبين المبالغين في الغيرة لهذه المذاهب
أحكام قاسية .

« ولم يظهر التعصب للمذهبي إلا عندما ازداد العُجب عند الفقهاء ، الأمر الذي
كان موضع لوم أهل الجِدِّ منهم ..

ثم يقول :

« وعلى العموم فقد طَبَّع بالتسامح بين الجميع هذا الحديث : « اختلاف أمتي
رحمة » .. وببينا من الأدلة ما يؤيد أن هذا المبدأ ، إنما يمثل وجهة التوفيق ضد
الهجمات ، التي وجهها العدو في الداخل والخارج ، لهذه الأعمال الفقهية المختلفة في
أشكالها غير القاطعة .

ثم يقول أيضاً :

« وقد بقي إلى يومنا هذا الاعتقاد السائد بأن الأعمال المتخالفة للمذاهب
الفقهية يجب الاعتراف بأنها كلها مستحقة للتصديق على التساوي ، مادامت ترجع
إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم ، أولئك الذين أجمع المسلمون على الاعتراف بإمامتهم
وحدها ، حتى كان الانتقال من مذهب إلى آخر في سبيل أغراض تراعى — أمراً
سهل الحصول ، ولا يستدعى تفسيراً في الأعمال الدينية ، ولا يرتبط بشكل معين
من الأشكال » .

ونقول مع هذا : إنه ليس ، صحيحاً أن تسليم المسلمين للمذاهب الفقهية بأنها مسحقة التصديق على التساوى ، لأنها ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم ، وإنما كان التسليم لهذه المذاهب لأنها جميعها ترجع إلى السكتاب والسنة ، وإلى ما عند المجتهدين من نظر إليها ، وفهم لها .

ويتابع « جولد تسيهر » الحديث فيقول : « ويستطيع أن يتمذهب الشخص في نفس الوقت بمذاهب مختلفة . . . وكان « محمد بن خلف » أحد علماء القرن الخامس الهجرى (١١٣٥ م) يلقب بلقب : « حنفى » لأنه غير مذهبه ثلاث مرات في وقت قصير ، فكان « حنبلياً » ، ثم « حنفياً » ، ثم « شافعيّاً » ، وقد اختصرت في لقبه أسماء هؤلاء الأئمة ! !

ثم يتحدث عن « أحمد بن عبد الحلیم المنهورى » (١١٩٢ م) بأنه كان يفتى على المذاهب الأربعة ، وقد كتب على بعض كتبه إلى جوار اسمه : الحنفى ، المالكي ، الشافعى ، الحنبلى . . ولم يجد أحد أن فى ذلك غشاضة ، أو أنه مخالف للقواعد ووجه الصواب .

هذا ، وننبه إلى أن هذه الخلافات التى وقعت بين أصحاب المذاهب الأربعة لم تقع بحال أبداً فى مجال الأصول العامة للشريعة ، وإنما فى الفروع ، والجزئيات ، التى لا يمكن للتشريع العام ضبطها وحصرها .

وننبه أيضاً إلى أن تأويلات النصوص الشرعية وتفسيراتها — مع احتكامها إلى الوضع اللغوى — تستند أولاً وقبل كل شىء إلى النية ، التى يمدّها الإسلام ملائكة كل قول أو عمل ، وفى هذا يقول النبىء الكريم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

فإذا خلصت النية لطلب الحق ، وجانب الهوى والغرض ، كان كل ما يرد من صاحبها طيباً مقبولاً ، ولو جانب الصواب !

فمن صحب تلك النية الطيبة السليمة في فهم نص من نصوص الشريعة ، وكان من أهل العلم والنظر — ثم أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران .. سواء هذا في فهم النص ، أو في تطبيقه !

ثانياً : أن الخلافات الدينية التي قامت على الأهواء والأغراض تحت ظروف سياسية ، أو اجتماعية ، أو عقائدية — لا يمكن أن تحسب على الإسلام ، ولا ينبغي أبداً أن تضاف إليه ، وإنما هي لحساب أصحابها ، ولحساب ما يعملون له ، وليس للإسلام ، ولا لشريعة الإسلام شيء منها .

فكل مذهب ، أو نخلة ، أو عقيدة ، خرجت على مفاهيم النصوص الشرعية كما يعطيها اللسان العربي ، وكلما يفهمها عليه أهل هذا اللسان ، هي مذاهب باطلة تحمكت بالإسلام ، لتحتمي به ، ولتضلل وتخدع تحت رايته ، وما هي من الإسلام ، ولا شريعة الإسلام في قليل أو كثير ..

فإذا أسقطنا هذه النزعات المنحرفة ، وتلك المعتقدات الفاسدة من حساب الإسلام ، وجدنا اختلاف الذي وقع بين علمائه وقمائه خلافاً عن اجتهاد ، كاجتهاد كل ذي عقل ، في مواجهة أى قول أو عمل ، لحسابه وخاصة نفسه .

نستطيع بعد هذا أن نقرر أن النصوص التي حملت شريعة الإسلام ، سواء ما كان منها في القرآن الكريم ، أو في الأحاديث النبوية — هذه النصوص تحسب من خصائص الشريعة الإسلامية ، ومن سماتها البارزة في اليسر والرفق والرحمة ، حيث حفظت أحكام الشريعة من أن يعيث بها ذور الأهواء ، ويتجر بها المحترفون ، للتسلط على الناس وقهرهم ، وحيث أعطت الناس جميعاً وجهاً واحداً للدين الذي يدينون به .. يرونه بأعينهم ، ويصافونه بأيديهم .. ليس بينه وبينهم حاجب ، أو سلطان !

وفي الإسلام كلمة رائمة ، غفل عنها كثير من الباحثين في الإسلام ، من أتباعه وغير أتباعه .. وهي كلمة « العهارة » أو « التطهير » وما يرادفها .. كالزكاة ، والتزكى !

فلقد رصد الإسلام عبادات وأعمالاً وظيفتها تطهير الإنسان ، وتزكيته ، وإزالة ما علق به من آثام ، انزعج بها ضميره ، أو غامت فيها نفسه ، أو تبلدت منها مشاعره !

فما أكثر ما يواقع الإنسان الشر ، أو يقترب الإنم ، ثم يصحو ضميره ، وتستيقظ روحه .. ثم يحاول أن يخلص نفسه من هذا الوحل الذي تلتخ به ، ويعود إلى السلامة التي كان عليها من قبل ، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً ، وحينئذ يستسلم لما هو فيه ، ويسلم وجوده لهذا الطين ، يفوص فيه إلى أن يخنق !

وفي الإسلام يجد المسلم قوارب الفجاة تخفّ إليه ، وأطواق الإنقاذ بين يديه ، كلما وقع في الإنم ، أو غرق فيه !

فالصلاة .. طهارة روحية ، وغسل داخلي .. على حين أن ما يسبقها من اغتسال ، ووضوء ، هو طهارة جسدية ظاهرية .. تمهد لهذا التطهير الداخلي ..

وبهذا التطهير الروحي ، والجسدي ، تقوم عملية ترقية كاملة للكيان الإنساني كله .. وفي هذا يقول الله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ، وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ .. إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ^(١) » .. ويقول سبحانه : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ^(٢) » .

ويقول النبي الكريم : « مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرِ غَمْرٍ ^(٣) جَارٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ » عن صحيح مسلم .. وفي البخاري

(٢) سورة النكبات : آية ٥ :

(١) سورة هود : آية ٤٤

(٣) نهر غمر : كثير الماء

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بَابُ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ . . هل يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا : لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ! قَالَ : فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ ؛ يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا » . . وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ فَيَحْسِنُ وُضْوءَهَا وَرُخْشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كِفَارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ تُؤْتِ كَبِيرَةً ، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلَّهُ ^(١) » .

هذه هي الصلاة في الإسلام ، وتلك هي آثارها في تطهير الخطايا ، وغفر الذنوب .
والزكاة . . لفظها الشرعى مَبْقُولٌ عن اللفظ اللغوى ، ومدلولها واحد ، وهو « التطهير » ^(٢) وفي هذا يقول الله تعالى : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ، وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ^(٣) » . . ويقول سبحانه : « وَسَيَجْزِيهِمُ الْآتِقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ^(٤) » .

والصوم . . وقاية وتحصين ضد الموبقات والمهلكات . . وفي هذا يقول النبي الكريم « الصَّوْمُ جُنَّةٌ » ، أى وقاية وحماية ، ويقول : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزَّوْرِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » .
وفي الحج . . يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه . . « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ » .

فهذه المطهرات التى يضعها الإسلام بين يدي المسلم ، هي رَحِمَاتٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وهي كَلِمَاتٌ فِي مَقَانِلِ النَّاسِ جَمِيعًا . . لَا يَعْجِزُ أَحَدٌ عَنِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا ، وَالتَّمَرُّسِ بِهَا ، وَالْحَصُولِ عَلَى ثَمَرَاتِهَا . . لِأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ قَوَامَةٌ عَلَيْهَا ، أَوْ تَصَرُّفٌ فِيهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ حِظٌّ مَشَاعٍ وَمَتَاعٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ . . مِنْ أَبْرَارٍ وَأَشْرَارٍ ، وَأَتْقِيَاءٍ وَأَشْقِيَاءٍ . .

(١) صحيح مسلم

(٢) يقال : زَكَا الشَّيْءُ يَزْكُو إِذَا طَابَ ، وَرَائِحَةُ زَكِيَّةٍ : أَيْ طَيِّبَةٍ .

(٣) سورة التوبة آية ١٧ ، ١٨

(٤) سورة التوبة آية ١٠٣

نم هي مع هذا كله ميسورة مقدورة .. يأتي الإنسان منها ما استطاع ..
« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .. » ..

انظر .. التطهر بالزكاة مثلاً ..

ما أبسره ، وما أقربه ، وما أفل الإنفاق وأعظم الكسب ! ..

يقول النبي الكريم : « تصدقوا ، ولو بشقِّ تمر » .. ! (الحجرات حرس)

فن ذا الذي لا يجد شقَّ التمرة هذه ؟

ومع هذا فقد عرف الإسلام من الناس مالا يعرفون من أنفسهم ..

فلقد يجد الإنسان قبايطير مقنطرة من الذهب والفضة .. ولكنه يرضى ،

حتى بشق التمرة !

أفيوصد باب التطهير في وجه من تغلبه شهوة الشح والحرص ؟

كلا ..

فإن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأحد !

« الكلمة الطيبة صدقة » ! هكذا يقول من لا ينطق عن الهوى .

وهكذا يفتح الإسلام أبواب التطهير على مصاريدها .. فيدخل المرء إلى رحمة

الله من أي باب شاء . !

ثم ماذا ؟

أوراء هذا شيء ؟

نعم .. وأشياء .. فللإسلام خزائن لا توصد أبوابها ، ولا تفقد خيراتها ..

وللإسلام عينٌ تنفذ إلى الصميم من مداخل النفس الإنسانية .. وتستولى

على أعماقها ..

وانظر ..

الكلمة الطيبة .. قد تضمن بها بعض النفوس ، وتأتى أن تتعامل بها في سوق الحياة .. تماماً كما لا يحلو لبعض الأشقياء إلا التعامل بالنقد الزائف !
ولهذا جاءت رحمة الله الواسعة لتشمل هؤلاء الذين يضيئون على أنفسهم أن ينالوا هذه الرحمة بكلمة واحدة . !

استمع إلى نداء الحق سبحانه .. لهؤلاء الشاردين ، السَّادِرِينَ في غيهم ..
« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله .. إن الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً .. إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وَأَسْلِمُوا لَهُ (١) » .

رضيتُ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً !
« وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ، وَأَسْلِمُوا لَهُ .. من قبل أن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ » .

فالإيمان بالله ، والإنابة إليه ، والإسلام له ، هو رأس هذه الأعمال الصالحة كلها ، وهو الذي يرفعها إلى منازل القبول والرضا .. لا يصحّ منها شيء إذا لم تصدر عن قلب مؤمن بالله ، إيماناً يفرد بالوحدانية ، ويخصّه بالكمال المطلق !

ذلك أن الإيمان بالله شهادة قائمة للإنسان — عند نفسه ، وعند المجتمع الذي يعيش فيه — أنه ذو عقل ، يميزُ الخير من الشر ، ويفرّقُ بين الحق والباطل ..
فهو بهذا العقل عرف الله ، ومن ثمّ عرف الأعمال الصالحة وأداها .. وإذن فهو أهل لأن يُجزى عليها الجزاء الأوفى ! ..

أما من لم يفتح له عقله طريقاً إلى الله ؛ فهو أعمى .. لا عقل له .. أو لا اعتداد للعقل الذي معه .. لأنه عمى عن الحقيقة الكبرى ، وضل الطريق إليها .. فكيف

يُمكن أن يهتدى إلى حق بعد هذا ؛ وكيف يتعرف إلى خير بعد أن حاد عن الطريق المتجه إلى الخير ؟

« فإذا بعد الكفر إلا الضلال » ؟

إن الذى لا يعرف الله ، ولا يهتدى إليه قد أقام على نفسه شهادة بأنه ليس هذا الإنسان الذى اختصه الله بالعقل والبصيرة ..

ولهذا أهدر الإسلام آدمية هؤلاء الذين عميت بصائرهم ، وذهبت عقولهم فأنكروا الله ، وكفروا به .. وقد ألحقهم الله سبحانه بالأنعام ، وجعلهم فصيلة من فصائلها .. يقول سبحانه : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ^(١) .. ويقول جل شأنه : « أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بها ، أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبِطِّشُونَ بها ، أَمْ لَمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بها .. أَمْ لَمْ آذَانَ يَسْمَعُونَ بها » ^(٢) .

نعم . إنهم أضل من الأنعام ، لأن الأنعام لها فطرة تستهدى بها ، إذ حُرمت هذا العقل الذى يستهدى به الإنسان .. أما هؤلاء وقد حُرِموا العقل فقد حرموا كل شئ .. حتى فطرة الأنعام !

ولهذا أيضاً أسقط الإسلام كل عمل يقع من هؤلاء الكافرين بالله .. حتى ولو كان ما يحسب فى الأعمال الصالحة .. لأنه صادر عن غير قصد ، ولا نية ، ولا فهم . !

يقول الله سبحانه : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظالمون ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .. » ^(٣) ويقول سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم

(١) سررة الفرقان : آية ٤٤

(٢) سورة الأعراف : آية ١٩٥

(٣) سورة النور : آية ٣٩

أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ ، لا يَقْدِرُونَ على شيءٍ مما كَسَبُوا^(١) .
فهذا إهدار لكل عملٍ يعملهُ الكافر بالله .. ما عمل من خيرٍ أو سوء ..
وذلك ما تنطق به الآية الكريمة : « وَقَدْ مَفَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فِجْعَلَنَاهُ هَبَاءً
مُنثُوراً »^(٢)

فكما يَحْبُبُ الإسلام ما قبله ، كذلك يحبط الكفر كل ما يُبْنَى على أرضه !!
أما الجريمة التي يُدان بها الكافرون يوم القيامة فهي « الكفر » .. وليس
يعد الكفر ذنباً

ولا نحسب أن الإسلام قد باعد بين المسلمين والكافرين هذا البعد ، فحرم
على المسلم طعام الكافر ، ونكاح الكافرة .. وما إلى هذا ، على حين أحل
للمسلم طعام أهل الكتاب ، كما أحل لأهل الكتاب طعام المسلم ، وكذلك أحل
للمسلم نكاح الكتابية — ما نحسب أن الإسلام فعل هذا إلا لأنه يرى أن
الكافر بكفره قد شهد على نفسه أنه غير عاقل ، كما شهدت الدنيا كلها عليه بأنه
على غير عقل .. وإذن فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، وما كان للإنسان
أن يتعامل مع الحيوان معاملة مخالطة ، ومزاوجة ، تأنس فيه النفس إلى النفس ،
وترتبط المشاعر بالمشاعر ، ويفسق العقل مع العقل .

* * *

ومما يدخل في باب التطهير والتزكية ، ويحسب من الوجوه البارزة في يسر
الشريعة الإسلامية وسماحتها ، وإنسانيتها — « التوبة » ، التي غفل عنها أيضاً كثير
من الدارسين للشريعة الإسلامية ، والناظرين أحكامها .
ولأهمية هذا الموضوع ، ولإوفاء بحقه من النظر والتجانية ، فإننا نفرد له مبحثاً خاصاً به .

(١) سورة إبراهيم : آية ١٨

(٢) سورة الفرقان : آية ٢٣

الفصل الرابع

التوبة في الإسلام

« والتوبة » — فيما نقدر — أمر فريد ، انفرد به الإسلام بين التشريعات السماوية والوضعية جميعاً ، حيث جاء بها الإسلام على تلك الصورة التي أقامها عليها ، والتي مكنّ للمسلم منها : فما عرفت الديانات — أرضية أو سماوية — أسلوباً كهذا الأسلوب ، الذي جاء به الإسلام ، لتطهير المذنبين ، ورفع الإصر والخرج عن الآثمين !

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان نظرة واقعية ، بعيدة عن أحلام المآليات التي يعيش فيها الفلاسفة والشعراء ، وأصحاب المدن الفاضلة . . بل إنه يرى الإنسان كما هو ، بخيره وشره ، وهده ، وضلاله ، وإحسانه وإساءته . . بل إنه يقدر أن جوانب الشر والاضلال ، والإساءة ، أقوى في الإنسان من جوانب الخير والهدى والإحسان .

فإذا لم يكن إلى جانب هذا الإنسان — وذلك حاله — قوة تسنده إذا سقط ، وترده إذا شرد ، وتهديه إذا ضل — ما استقام له حال ، ولا انتظم له شمل ، ولا صح له وجود ، ولكانت أية عثرة يعثرها داعية إلى أن تلقى به في هاوية لا قرار لها .

نظرة في مواجهة الديانات الأخرى :

يقرر الإسلام أن الإنسان يولد طاهراً نقياً . . إنه صفحة بيضاء ، لم يُخط عليها

شيء بعد !

والإنسان في سيره مع الحياة وفي تمرسه بها ، هو الذى يعطى هذه الصحيفة البيضاء صفحتها بعد ذلك .. فقد يخط عليها خطوطاً من نور ، أو بسود وجهها بالوحل والطين .. !

يقول النبي الكريم : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه .. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء .. هل تجدون فيها من جدعاء ؟ ^(١) »

فالفطرة التى فطر الله الناس عليها ، يولد بها كل مولود .. ومن شأنها أن تحتفظ للإنسان بإنسانيته الكريمة الطاهرة إلى أن يبلغ سن الرشد ، . وهنا يتولى قيادة نفسه ، فإما أن يستقيم مع الفطرة ، ويمجى على وحيها ، وإما أن ينحرف بها ، ويفسدها ..

أما الكنيسة المسيحية فإنها ترى فى الإنسان عكس هذا تماماً . ترى الإنسان يولد والخطيئة ملء إهابه ، ومسلك عروقه .. إن الناس كلهم - فى نظر الكنيسة - هم أبناء الخطيئة الكبرى ، وبذرة الثمرة المحرمة التى أكل منها الأب الأكبر آدم ، عاصياً بذلك أمر ربه ، خارجاً عن طاعته !

التعميد :

وإذا ولدت الكنيسة الإنسان هذا الميلاذ المعطوب ، ودمفته بهذا الحكم القاسى ، فإنها جاءت إليه عن طريق آخر ، تدعوه إلى باب فسيح من المغفرة وتطهير الذنوب . !

فقد فتحت الكنيسة أبوابها لتعرض على الناس وسائل التطهير لأرواحهم ، والخروج من آثامهم ..

(١) الجماء : التامة الخلق .. والجدعاء : الناقصة الخلق .

وأول ما يجب على من يدخل في الكنيسة ، ويصبح من أتباعها أن « يعمد » في أيام ميلاده الأولى ، وأن يغسل بماء المعمودية . . وهذا الماء قادر على أن يرفع عنه وضر الخطيئة التي ولد بها ، وأن يطهره منها . . فلقد أصبح الأمر حيناً بعد أن قدم المسيح دمه قرباناً لله ، ليمحو عن أبناء آدم ميراث الخطيئة الذي أقتسموه بينهم . . وغسلة واحدة بماء المعمودية تكفي لمحو الآثار الباقية من تلك الخطيئة !

صكوك الغفران :

وهذه الصكوك التي تعطىها الكنيسة للخطاة والمذنبين ، تقابل « التوبة » المعروفة في الإسلام ، والتي سنعرض لها بعد قليل !
وعملية صكوك الغفران هذه ترجع إلى نص ورد في الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام . .

فقد ورد في إنجيل « متى » أن المسيح غفر الخطايا ، وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها على تكفير الذنوب وغفرانها . .

يقول السيد المسيح مخاطباً « بطرس » الرسول : « وأنا أقول لك أيضاً : أنت بطرس » ، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي . . وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات »^(١) .

وتقول الكنيسة شرحاً لهذا النص : « إن القدرة على غفران الخطايا قد انحدرت بالتوارث : من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ..

(١) إنجيل متى الأصحاح السادس عشر : ١٩ ، ٢٠

ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين في القرن الثامن . . واستبدلت بطريقة الاعتراف
العلني التي جرت عليها العادة في أيام الكنيسة الأولى طريقة الاعتراف السري
الفردى . . حتى لا تُمسَّ كرامة بعض الكبار ، ولا تجرح كبرياؤهم !

« وتشجيعاً لمن يريدون التوبة ، وحمايةً لهم من القصاص المذنب ، وضع خاتم
على كل توبة بمفردها ، وكان معنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقَسّ أن يفشي
ما اعترف له به .

« ونُشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدّد الكفارة القانونية لكل مذهب ،
وأهمّها الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ! »^(١) .

واعتراف المذنب بذنبه إلى جهة يطمئن إلى عطفها عليه ، وحفظها سرّه —
هذا الاعتراف لا شك يخفف كثيراً من وخزات الضمير ، التي يجدها المذنب في
أعقاب فعلته ، لما فيه من معنى العقوبة التي يعاقب بها المرء نفسه ، بكشف
سرّها ، وفضح المستور منها .

ولكن هناك عواقب وخيمة تترتب على مثل هذا الاعتراف ، على الرغم
مما يبدو في ظاهره من آثار حسنة ؟

ذلك أنه كثيراً ما يصبح مثل هذا الاعتراف — مع تكراره — عادة وعملاً
آلياً ، ياجأ إليه المذنب ليُلقي بكل خطاياهِ عن كاهله ، كما يلقي حُزمة من حطب . .
ثم ينطلق خفيف الخطأ إلى مواطن الخطيئة ، ليحمل منها ما يحمل ثم يلقي ما حمل . .
وهكذا تصبح الخطيئة مادة يدمن عليها الخطاة ، كما يدمن شارب الخمر على الخمر ،
أو كما يألف المجرمون وجه السجان وجدران السجون !

ثم انظر من جهة أخرى إلى من بيدهم غفران الذنوب . . إنهم بشر ! !

ولهذا ، فإن لك أن تسأل : كم من رجل فيهم لم ينحرف عن الجادة ، ولم يتخذ من هذا السلطان الذى يقف فيه موقف الإله — مسرحاً لأهوائه وشهواته ؟
يقول ستيوارت ميل فى كتابه قصة الحضارة :

« وقد بذات الكفيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوىء — يقصد مساوىء الاعتراف والغفران — منها :

١ — حرّمت على رؤساء الأديرة حق إصدار صكوك الغفران .

٢ — فرضت بعض القيود على المطارنة فى إصدارها .

٣ — ندد مجلس « ينز » الدينى فى عام ١٢٦٨ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار . . يساومون على التطهير بأكثر ما يستطيعون الحصول عليه من المال ، وأقل ما يقدمون من الأدعية والصلوات ! »^(١)

الحرمان :

وكما جعلت الكنيسة إليها غفران الخطايا جعلت إليها كذلك تجريد الناس من الفضائل ، ونهزم بالمرء فى وحشة مذلة قاتلة . . لا يلقاهم أحد إلا بالازدراء والاحتقار .

وحق الحرمان هذا اعتداء صارخ على حرمة الإنسان ، وتضييع لذاتيته ، وإهدار لوجوده . إنه قتلٌ عن عمد ، بل هو قتل بطيء ، يموت فيه الإنسان كل يوم مرات . . وهو أشد أنواع القتل ، وأقسى ما يقع على الإنسان من شرٍّ فى هذه الدنيا . .

ولقد أساء أصحاب هذا الحق من رجال الدين استعماله ، — وهذا أمر متوقع

لا بد منه في مجال كل سلطة بشرية — فلم يجرموا المفسدين ، والمبطلين ، وأصحاب البدع ، بل صار سلاحاً يشهره البابوات في وجوه الملوك والأمراء ، وأصحاب السلطان . . ينصرون به فريقاً على فريق ، أو جبهة على جبهة ، دون أن يكون للسلوك الديني اعتبار في إصدار هذا الحكم في أغلب المواقف .

هذا وفي الشريعة الموسوية شيء من هذا ، في مجال الغفران والحرمان معاً^(١) .

الغفران والحرمان . . في الشريعة الإسلامية :

والشريعة الإسلامية — من بين الشرائع السماوية الثلاث — هي التي لم تجعل الغفران ، والحرمان إلى يد أحد من الناس . حتى النبي صلوات الله وسلامه عليه . . وهو مبعوث السماء برسالة الإسلام !

إن نبي الإسلام لا يملك تطهير نفسه ، ولا غفران ذنوبه ، وإنما هو شأنه شأن عباد الله جميعاً ، معرض لرحمة الله ومغفرته ، وإن كان أقرب الناس جميعاً إلى رحمة الله ومغفرته . . وفي ذلك يقول الله تعالى : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . . ويقول : « ليفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . . « فمغفرة الذنوب لله وحده . . و « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . . فمن كان أكثر إحساناً كان أقرب إلى مواقع رحمة الله ، وأدنى إلى الإصابة منها . . والرسول صلوات الله وسلامه عليه سيد المحسنين ، وإمام المتقين . .

قالناس كلهم — في شريعة الإسلام — سواء أمام الخالق جل وعلا — أقربهم إليه ، وأولاهم فضله ومغفرته أكثرهم إحساناً وتقوى . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكيف يكون مفهوم الشريعة الإسلامية في هذا الأمر على غير هذا ؟ كيف ونبي الإسلام ينطق بما أوحى إليه من ربه : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا .

(١) انظر في هذا كتابنا : قضية الألوهية — الجزء الثاني ص ٣٩٧

إلا ما شاء الله^(١) .. ويتحدث إلى أصحابه فيقول: « لا يدخل الجنة أحد بعمله » ..
قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؛ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » ..
ويتحدث إلى ابنته فاطمة ، وإلى عمته صفية ، وإلى عمه العباس ، فيقول : « يا فاطمة
بنت محمد ، يا صفية عمه رسول الله ، يا عباس عم النبي : لا أملك لكم من الله شيئاً .. »
نقول : ذلك هو موقف الشريعة الإسلامية من الناس جميعاً ، أخياراً وأشراراً ..
باب التوبة مفتوح لهم جميعاً .. لا يُردّ عنه أحد ، ولو كانت ذنوبه ملء الأرض ..
« ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ! »

وليست التوبة — في الإسلام — عملاً يتكلف له الإنسان مالا أو جهداً ،
أو يقدم بين يديه طقوساً ومراسم معينة ، وإنما هي كلمة خاشعة ضارعة ، تتحرك
من ضمير متكرّهِ الإثم ، وتنبعث من قلب خافق بالخشية والندم ، يتجه بها
الإنسان بكيانه كله إلى الله ، فيما بينه وبين خالقه .. لا رقيب ولا حسيب ،
إلا القية المنعمدة على الندم ، وإلا العزم الموثق على هجر الإثم ، وترك معاودته مرة
أخرى .. فإن ضعف وعاد ، رجع إلى ربه من قريب فتاب وأُتاب .. ليتطهر من
جديد ..

« إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » .

* * *

الباب الخامس

مفاهيم خاطئة

نحاول في هذا الباب أن نعرض القضايا الإسلامية التي كثر حولها لفظ الإغطين ، وهذر الهاذرين ، في مجال الاستخفاف بالإسلام ، والتشويش عليه ، حتى تقوم من ذلك حجة لأولئك الذين يزهدون في الدين ، ويمطونه ظهورهم ! ولأصحاب تلك النظرات المنحرفة عن الإسلام مقولات كثيرة يبررون بها لأنفسهم ، أو لمن يدعونهم إلى الرجوع إلى الدين — هذا الموقف المحاذ له ، أو المنعزل عنه . !

وتكاد هذه المقولات جميعها تنحصر في دعوى واحدة ، يدعونها على الإسلام ، ويرجعون إليها قصور تعاليمه وعجزها عن الاستجابة للحياة الإنسانية المتطورة . .

وهذه الدعوى هي أن الإسلام — إن يكن ديناً — فهو دينٌ نبت في بيئة خاصة ، طامعها البداوة الجافية ، والجذب الممسك بكل شيء هناك . ! وطبيعي — في هذا الفهم — ألا تجيء أية دعوة إصلاحية في هذه البيئة إلا مقدورة بقدرها ، محسوبة بحسابها . . وإلا انقطع بينها وبين المدعويين إليها كل سبب من شأنه أن يصلهم بها ، أو يجمعهم عليها . !

وعلى هذا . . فإن النجاح الذي صادفته الدعوة الإسلامية في أول أمرها ، إنما كان بسبب ملاءمتها للحياة التي التقت بها ، في الجزيرة العربية ، وتجاوبها معها ، ووقوفها عند حدودها .

هكذا ، وبكلمات محفوظة مرددة ، يقايس القوم بين تعاليم الإسلام وبين حياة البادية ، في جفافها وجفائها وجدها ، وخشونتها ، وجهلها ، وبدائيتها ، التي لا تبعد الإنسانية فيها كثيراً عن عالم الحيوان الذي يعيش معها . .

فالقرآن . . في أساليبه ، وأخيلته ، وأخباره ، وقصصه ، صورة لحياة البادية ،

وما يدور في أخيلة القوم ، وما يجري في تفكيرهم ، وما يداعب أحلامهم !
والتعاليم ، والأحكام ، والآداب ، والأخلاق . . التي حملها القرآن إلى
القوم هي مما دعت إليه ضرورات الحياة هناك ، وأوجبته ظروفها وأحوالها . . !

وقد كان للمستشرقين دور كبير في إذاعة هذه المقولات ، والترويج لها بين
المسلمين ، والتسلط بها على عقول كثير من الشبان الذين تلقوا دراساتهم في
الجامعات الأوروبية ، والذين خدعتهم الحياة هناك بهرجما وأضواؤها الكاذبة ، عن
أن يأخذوا هذه المقولات مأخذ الشك والحذر ، وأن يراجعوها على حقائق
الإسلام . ويعرضوها على تعاليمه وأحكامه . . ولكن أعجلهم حبّ الأحاق بموكب
المدنية الغربية عن النظر في شيء من هذا ، وقصّروا نظرهم على واقع الحال ، بين
المجتمع الإسلامي ، والمجتمع الأوروبي ، وما بين المجتمعين من بُعد بعيد ، في مظاهر
الحياة المادية ، وما يملك القوم هناك من أسبابها ، التي مكنت لهم من إقامة هذه
الحياة ، وما يحفّ بها من ألوان المدنية والحضارة ! وقد وجدوا في هذه المظاهر
للشاهد الذي لا يرد . . فقبلوا شهادته على الإسلام ، وعلى المسلمين جميعاً .

وقد قلنا من قبل في حديثنا عن : « الرسالة الخالدة » بعض مقولات أحد
للمستشرقين ، وهو المستشرق النرويجي « جولدنسيهر » ، وإنه لا بأس من أن نعيد
عرض بعض آخر من هذه المقولات هنا ، لنكشف فيها وجوهاً أخرى من النظرات الزائفة
التي ينظر بها المستشرقون إلى القرآن .

يقول « جولدنسيهر » في حديثه عن القرآن ، وفي التعريف به ، كدستور يحكم
مجتمعاً يدين به :

« ومن الخطأ الخطير أن يُنسب إلى القرآن أكبر القيم في بيان طابع الإسلام

بوجه عام

كما أننا من باب أولى، لا نستطيع أن نؤسس حكمنا على الإسلام مستندين إلى هذا الكتاب وحده لدى الأمة الإسلامية!!»^(١).

والذى يريد أن يقرره «جولدتسيهر» هنا هو أن القرآن ليس هو الذى حكم المسلمين ، وأنه لم يستطع بأحكامه التى جاء بها أن يواجه الحياة الإسلامية كلها ، وأن يملأ الجوانب التى فيها ، وأن يسد الحاجات التى جذت فى المجتمع الإسلامى . . وأن المسلمين قد اضطروا إلى أن يخرجوا نصوص الكتاب تخرجاً قائماً على التمسك ، ليأخذوا منه الأحكام التى تواجه متطلبات الحياة !

وإذن — فهذا الفقه الذى أسست عليه المذاهب الأربعة ، والتى ارتضاها المسلمون وأخذوا بها — ليست كلها من معطيات القرآن الكريم ، وإنما يرجع معظمها إلى مفاهيم خاصة للفقهاء والمجتهدين ، أضافوا إلى القرآن ، وخرجوها عليه.. هكذا يريد «جولدتسيهر» أن يقول فى شأن القرآن ، وأن يفتح أبواباً للتشكيك فى الدين الذى يدين به المسلمون ، وأنه ليس جميعه ، أو معظمه من معطيات الكتاب الكريم ، وإن ما يدين به المسلمون إنما هو من صنع الفقهاء والمجتهدين !!

ومن مقولات جولدتسيهر فى هذا أيضاً، قوله :

« وهكذا يظهر غير صحيح ما يقال من أن الإسلام فى كل العلاقات : « جاء إلى العالم طريقةً كاملة » . . بل على العكس . . فإن الإسلام والقرآن لم يتما كل شيء ، وكان الإكمال نتيجة لعمل الأجيال اللاحقة . ! »^(٢)

ويتدرج من هذا التلميح إلى التصريح . . فيقول :

« والقرآن نفسه لم يعط من الأحكام إلا القليل ، ولا يمكن أن تكون

(١) العقيدة والشرعية لجولدتسيهر : ٤٤

(٢) المصدر السابق ص ٤

وأحكامه شاملة لهذه العلاقات غير المتفتزة كلها .. مما جاء من الفتوح . !
« فقد كان — بمعنى القرآن — مقصوراً على حالات العرب الساذجة ،
ومعنيّاً بها ، بحيث لا يكفي لهذا الوضع الجديد !! » .
هذا هو بيت القصيد !

القرآن ، أو بمعنى آخر — الإسلام ، حال من أحوال البادية ، ونسج من نسجها ،
لا يصلح إلا لحياة البادية ، ولا يصلح عليه إلا من يعيش فيها !
يقول جولد تسيهر في صراحة :

« والواقع أن هذا الكتاب — بمعنى القرآن — لم يحكم المسلمين إلا في خلال
العشرين سنة الأولى من نموه !

ففي خلال حياة الإسلام التاريخية كلها ، ظل القرآن في رأى أتباع دين محمد ،
عملاً أساسياً محترماً ، باعتباره موحى به .. كما ظل كذلك موضع إعجاب عظيم إلى
حد لم يظفر به أى عمل من الأعمال الأدبية العالمية !!
ثم يقول :

« ولكن بالرغم من أن الإسلام في أطوار نموه التالية قد اتخذ القرآن أساساً
— وهو أمر طبيعي — وبالرغم من أنه كان يوزن به جميع منتجات العصور المتأخرة ،
وبالرغم من أن كل شيء قد تصوّر على أنه متفق معه ، أو حوّل تصور ذلك —
بالرغم من هذا كله ، فإنه لا يمكن أن نقنأسى أن القرآن بعيد كل البعد عن أن
يكفى وحده لمواجهة عقلية الإسلام التاريخية ! »

وهذا كلام واضح صريح ، لا يحتاج إلى تعليق ..

القرآن ، لا يحمل معطيات الشريعة التي جاء بها ، ولا يقدم للمعدين متطلبات
الحياة التي يريدون أن يحيوها مع صحبتهم له ..

ثم يضرب الكاتب لهذا مثلاً ، فيقول :

« إن الرسول نفسه قد اضطر ، لتطوره الداخلي (كذا) ، وبحكم الظروف التي أحاطت به ، إلى تجاوز بعض الوحي القرآني إلى وحي جديد في الحقيقة ، وإلى أن يعترف ، أنه ينسخ بأمر الله ، ما سبق أن أوحاه الله إليه !!

« فإذا كان الأمر كذلك في عصر النبي ، فمن الأولى أن يكون كذلك — بل أكثر من ذلك — عندما تجاوز الإسلام حدود البلاد العربية ، وتأهب لكي يكون قوة دولية !! » (١)

والشاهد الذي يقيمه الكاتب دليلاً على ما يريد أن يلتقي به في رُوع الناس ، من أن الرسول نفسه قد اضطر تحت وطأة الظروف ، وتطور الأحوال إلى أن يبدّل ويغير في الأحكام التي أخذ المسلمين بها — هذا الشاهد ليس هنا مقام شهادته ، ولا الموقف الذي يُطلب فيه . ! وذلك :

أولاً : أن النبي عليه الصلاة والسلام كان الرسول بين الله وبين عباده ، يبلغ ما ينزل إليه من كلمات الله إلى الناس .. فلا يتحرك حركة — في مجال الرسالة — ولا ينطق بكلمة — في محيطها — إلا عن وحي ، وعن أمر من رب العالمين .. « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » (٢)

ثانياً : أن الرسالة الإسلامية في عهد النبوة كانت في دور البناء والإكمال .. وكانت حياتها في فترة النبوة أشبه بحياة الكائن الحي ، ينتقل من طور الطفولة ، إلى الصبا ، والشباب ، والاكتمال .. إذ كان من تدبير الحكيم العليم أن تستكمل الرسالة الإسلامية وجودها كله في حياة مبلّغها ، الذي حملها إلى الناس ، وألا يتفصل عنها حتى تبلغ غايتها من الكمال ..

(١) العقيد والشمريه في الإسلام — لجولدة تسيهر ص ٤١

(٢) سورة النجم آيتا ٣ ، ٤

وهذا هو الذى حدث فعلا..

فما أن بلغت الرسالة الإسلامية غايتها حتى جاء الوحي السماوى مؤذنا بذلك فى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(١)

اليوم .. واليوم وحده ، الذى نزلت فيه هذه الآية ، هو الذى كمل فيه الإسلام ..

واليوم .. واليوم وحده .. الذى نزلت فيه هذه الآية ، هو الذى أتم الله فيه نعمته على المسلمين ، بكمال هذا الدين ، وبلوغه غايته ..

واليوم ، واليوم وحده .. الذى نزلت فيه هذه الآية هو الذى رضى الله فيه الإسلام ديناً للمسلمين .. إذ بلغ غايته من التمام والكمال .

وهذه الآية ، هى — على أصح الأقوال — آخر ما نزل من القرآن ، ولهذا يكى بعض الصحابة عند نزولها .. إذ كان ذلك — عندهم — إيذاناً بقرب فراق النبى لم .. وقال قائلهم .. لقد نعى النبى إلينا فى هذه الآية .. وما مقامه بعدها فينا إلا قليل !! وقد كان .. فما أقام النبى الكريم بعدها إلا يسيراً ، حتى لحق بالرفيق الأعلى !

ثالثاً : وهذا النسخ الذى يقول به الكاتب ، ليس على الصورة التى تصورها ، من أنه نسخ لآيات الله القرآنية ، وإبطال لبعض الأحكام ، واستبدال غيرها بها .

ولأنما النسخ الذى جاء فى قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلاً »^(٢) ، هذا النسخ الذى فهمه كثير من الناس هذا الفهم الذى يبطل بعض آيات القرآن ببعض — ليس مراداً به نسخ آيات من القرآن ، وإنما المراد به نسخ

(٢) سورة البقرة : آية ١٠٦ .

(١) سورة المائدة : آية ٣ .

القبلة التي كان عليها المسلمون ، حين كانوا يصلّون إلى بيت المقدس ، فأقام الله وجوههم إلى المسجد الحرام^(١) !

أما ما يفهم من بعض آيات القرآن الكريم التي تواردت على حكم واحد ، مع اختلاف في صور الحكم فليس هذا من قبيل النسخ ، وإنما هو من باب التدرج في التشريع ، والرفق في أخذ الناس بالحكم المراد^(٢) .

* * *

هذه نظرة من النظرات المنحرفة ، في فهم الإسلام .. ليس صاحبها أول الناظرين هذه النظرة ، وإنما سبقه إليها كثيرون ، وتابعه أيضاً فيها كثيرون ، ولهذا ، فإننا سنكتفي بها كدليل على تلك النظرات المنحرفة الزائفة .

ولا تتكلف هنا الرد على هذه النظرة في مجالها العام الذي تنظر به إلى الدين الإسلامي كله ، ونضعه في محيطها ، وتأخذه بحكمها .. ففي هذا الكتاب مواقف متعددة ، تكشف عن بطلان هذا الحكم الذي يُحكم به على الإسلام ، وزيف الحثييات التي بنى عليها.

وإنما الذي يكون منا هنا ، هو الوقوف عند بعض الجزئيات التي تعرض في مثل هذا المقام ، وراء تلك الدعوات المنكرة التي يدعيها المبطلون على الإسلام ، كدليل على أنه دين بدائي ، محرأوى .. لا يعيش في عالم الحضارة والتدين!

وأهم ما يلقانا هنا من هذه الجزئيات :

- ١ - الحدود التي فرضها الإسلام .
- ٢ - المرأة وموقف الإسلام منها، ورأيه فيها .
- ٣ - الرق قبل الإسلام، وفي الإسلام .

(١) انظر في هذا كتابنا . إعجاز القرآن .. الجزء الثاني : النسخ في القرآن .

(٢) انظر في هذا الكتاب : باب « الرسالة الخالدة من ٥٣ »

الدُّرُودُ فِي الدِّينِ

الإسلام نظام حياة ، قبل أن يكون مجموعة من الأحكام ، والوصايا ، والأوامر والزواجر ..

فما غاية الإسلام من رسالته في الناس إلا أن يقيمهم على الحق والعدل ، وأن يجمعهم على الرحمة والمودة والإخاء ، وأن يسعى بهم إلى مواطن الخير ، والأمن .. وقد كان من تدبير الإسلام في هذا أن بدأ بالإنسان في أفرادهِ — إذ كان الأفراد هم لبَنَاتُ البناء لكل مجتمع — فربَّى الفرد هذه التربية التي تجعل منه عضواً سليماً ، صالحاً في نفسه ، قابلاً للاجتماع مع غيره ، دون أن يفقد وجوده ، أو يذهب شيء من صلاحيته .

« والضمير » هو الإنسان مصغراً .. إنه تلخيص أمين للإنسان كله .. بخيره وشره .. فإذا صالح هذا الضمير صالح الإنسان ، وإذا فسد لم يكن للإنسان صلاح أبداً !

ولهذا عَنِ الإسلام العناية كلها بتربية هذا « الضمير » ، والتمسكين له في كيان الإنسان ، وإقامته على الصحة والسلامة ، حتى يكون في يقظة دائمة ، وفي قدرة قادرة على أن يمسك بها زمام الموقف من أمر نفسه ، وأن يقودها ، ولا تقوده !

« والضمير » أشبه بحاسة من حواس الإنسان .. كالسمع ، والبصر ، والذوق والشم ، واللمس !

ووظيفته الإحساس بما يقع في محيط الإنسان ، وتمييز الخير والشر منه ، ثم الاطمئنان إلى الخير ، والرضا به ، والتهدى إليه . والتوجس من الشر ، والتأذى به ، والنفرة منه ، والتجنب له .. !

ولقد كشف الرسول الكريم عن هذا « الجهاز » العجيب الذي يساكن

الإنسان ، وينفدس في أعماقه .. فيقول النبيّ الأُمّي صلوات الله وسلامه عليه :
« الإثم ما حاك في صدرك » !! ذلك أن أى انحراف يقع في حياة الإنسان — أى
إنسان — يحدث شكّة في الصدر ، ويترك وخزة في الضمير !

والتربية الدينية هي العنصر الأول الفعال في إيقاظ الضمير ، وتنميته ، والتمكين
لسلطانه في كيان الإنسان ، وجعله الحارس القوي الأمين للإنسان من أن ينحرف
أو يضلّ .

وحين يكون في كيان الإنسان هذا الضمير اليقظ ، يكون في مأمن من أن يقع
في الشر ، أو أن يواقع الإثم .. فإذا ألم بشيء من هذا في غفلة من غفلات الضمير ،
صحا بعدها صحو مشرقة ، فأجيج نار الحسرة والألم ، وأحال حياة صاحبه جحيما
مشبوب الضرام ، لا تسكن ناره ، ولا يبرد سميره ، إلا إذا انخلع الإنسان عما وقع فيه
من إثم ، أو تلبس به من شر !

ومثل هذا الضمير الحى اليقظ ، القوي ، هو الذى يريده الإسلام ، لكل من
يدين به .

ولقد استطاع الإسلام بفعاليه وتربيته أن يخرج مثلاً عليا من الإنسانية ، ذات
الضمير المشرق ، وأن يعطى الحياة نماذج كريمة ، للإنسان العظيم ، الذى يستأهل أن
تسجد الملائكة له !

أتريد لهذا شاهداً ؟

إذن فأليك شاهدين ..

أولهما يحيى قصة رجل ، والآخر يصور موقف امرأة !

أما الرجل .. فهو « معاذ بن مالك » .. عربى .. بدوى ، عاش تحت سماء
النبوة ، وفي مطلع شمسها ..

وقد ضعف لحظة ، أمام شهوة من شهوات نفسه ، فوقع في هذا الإثم الغليظ

وهو « الزنا » .. وما أن صحا من فَعَلته ، حتى استيقظ ضميره في ثورة عارمة ، أحالت
حياته جحيماً عليه ، لا ينام ولا يُنم !
ثم . ماذا ؟

فرجع إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، يطلب عنده البرء والنجاة ..

فقال : « يا رسول الله .. طهرني ! »

فقال الرسول الرحيم : « ويحك ! .. ارجع فاستغفر . وتب إليه ! »

فرجع غير بعيد .. ثم جاء فقال :

— « يا رسول الله .. طهرني ! »

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— « ارجع .. واستغفر وتب إليه ! »

فرجع ثم عاد .. فقال :

— « يا رسول الله .. طهرني ! »

فقال الرسول الكريم :

— « ارجع ، واستغفر ، وتب إليه ! »

فرجع .. فقال :

— « يا رسول الله طهرني ! »

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— « فقيم أطهرك ؟ »

فقال : « من الزنا ! »

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أيا جنون ؟

فأخبر أن إيس بمجنون !

فقال : أشرب خمرأ ؟

فقام رجل فشمة ، فلم يجد ريح خمر !

فقال رسول الله : أزنيت ؟

قال : نعم !

فأمر به فرجم !

فكان الناس فيه يومئذ فرقتين : قائل يقول : لقد هلك ماعز .. لقد أحاطت به خطيئته ! ! وقائل يقول : ما توبة أفضل من توبه « ماعز » .. إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضع يده في يده ، ثم قال : اقتناني بالحجارة ! !

ولبثوا في هذا الخلاف من أمر « ماعز » يومين أو ثلاثة ، ثم جاء الرسول ، وهم جلوس .. فسلم ، ثم جلس ، فقال : « استغفروا لماعز بن مالك » فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسعتهم » !

هذا مالك بن ماعز ! الرجل العربي البدوي ..

أما المرأة فهي عربية بدوية أيضاً .. معاصرة لماعز بن مالك .. وقد فعلت مثل فعلته ، ووقفت مع رسول الله موقفه .

إنها المرأة من « غامد » ، وغامد هذه بطن من بطون « الأزد » ، والأزد قبيلة معروفة ..

جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم .. فقالت :

— يا رسول الله : « إنى قد زنيت .. فطهرنى !

— فردّها !

فلما كان الغد جاءت ، فقالت : « يا رسول الله : لم تردني ؟ املك أن تردني كما رددت ما عزا ؟ .. فوالله إني لحبلى !

فقال النبيّ الرؤوف الرحيم : « أمّا الآن فاذهبي حتى تلدى ! » .

فلما ولدت أخته بالصبيّ في خِرقَة . . ثم قالت : هذا قد ولدته !

فقال : « اذهبي ، فأرضعيه حتى تَفطميه !

فلما فطمته ، أتت بالصبيّ في يده كسرة خبز ، ثم قالت : « هذا يا نبيّ الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام !!

فدفع النبيّ بالصبيّ إلى رجل من المسلمين . . ثم أمر بها فرُجعت !

وأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فانتضح الدم على وجهه . . فسبّها !

فقال النبيّ صلوات الله وسلامه عليه : « مهلاً يا خالد . . لقد ثابت توبة

لوتابها صاحب مكس^(١) لغفر له ، ثم أمر بها فصُلّيَ عليها ، ودفنت » .

إنها عظمة إنسانية ، تقف دونها كل عظمة عرفها الناس !

وإنها لشهادة مشرقة للإسلام ببيّض لها وجه كل مسلم ، ويستروح من أناسها

العطرة ريح الجلال والعظمة ، في هذا الدين الجليل العظيم !

لا نستطيع الإنسانية كلها أن تقدم للتاريخ خير هذه المرأة الغامدية امرأة أخرى ؛

وقفت مثل هذا الموقف ، في حساب ضميرها ، هذا الحساب الذى لم يتأثر بفعل الزمن ،

ولا بمواطن الأمومة وحنانها ، ولا بحبّ النفس والحرص على الحياة !

وندع هذا .

ونعود إلى حديثنا عن « الضمير » الذى عمل الإسلام بتعاليمه وأحكامه على

تربيته ، والتمكين لسلطانه في المجتمع الإسلامى .

(١) صاحب المكس : هو الذى يجبي فيظلم في الجباية ، والذى يخدع الناس في البيع والشراء . . .

وهو جرم غليظ يعتبره الإسلام أشنع أنواع الظلم :

هذا الضمير ، لاشك وازع يزَّع الناس عن كثير من المنكرات والآثام ، بل إنه — في الحقيقة — الحارس الأمين الذى ينام صاحبه فى ظله آمناً من كل آفات السوء ، إذا هو أخذ مكانه الصحيح من كيان الإنسان ، وإذا هو ربّ التربية السليمة ، على هذى الدين وتعاليمه !

ولكن — مع هذا — لا يمكن أن تُحكم الحياة بوازع الضمير وحده فى أرق المجتمعات ، وأكثرها تجاوباً مع الدين ، وانتفاعاً به . .

فالناس هم الناس . . إن استقام بعضهم فإن بعضاً آخر لا يستقيم ، وإن استقام الإنسان فى حال ، فقد ينحرف فى حال . .

فكانت لابد — والأمر كذلك — من وازع خارجى عام يمسك بتلابيب من يُفَلت من رقابة الضمير ، يأخذه بالعقاب المناسب الرادع . .

ولهذا فقد قام وازع السلطان فى كل مجتمع ، وكان قيامه ضرورة لازمة ، بقدر ما كان الاجتماع البشرى ضرورياً لازماً ، فإنه لا قيام لمجتمع بشرى أبداً ، إلا إذا قام عليه هذا السلطان ، الذى يضرب على أيدى الخارجين على نظام الجماعة وشريعتها .

* * *

ولهذا كان من تدبير الإسلام — لكى يقيم المجتمع الإسلامى على الأمن والسلامة — كان من تدبيره أن جعل وراء وازع الضمير ، وازع السلطان . ! وبهما تكمل الرقابة على الإنسان ، وتُقفل الدائرة التى يمكن أن ينفذ منها إلى البنى والعدوان ! يقول عثمان بن عفان رضى الله عنه : « إن الله ايزَّع بالسلطان ، ما لا يزَّع بالقرآن ، . . ذلك أن سلطان الساطان قائم فى مواجهة الناس ، وبين أسماعهم وأبصارهم . . من وقع تحت يده لا يستطيع أن يُفَلت من عقابه . . أما سلطان الضمير فهو سلطة غيبية ، لا يراه إلا الذين يؤمنون بالغيب ، وعقابه

مؤجل لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الناس . . وأولئك وهؤلاء قليل من كثير !

* * *

والوازع المادى — بالحدود التى فرضها الإسلام — وازع حكيم ورحيم . . . يقوم سلطانه على هاتين الدعامين : الحكمة والرحمة .

فبالحكمة ضبط ميزان العقاب ، فجعل لكل جرم القدر الذى يناسبه من العقاب . . بلا مبالغة ، ولا تقصير . . وذلك ليكون للمقوبة أثرها فى ردع المجرمين عن معاودة الجرم ، وفى زجر غيرهم عن إتيانها .

وبالرحمة درء المقوبة بالشبهة . . فحيث لاحت لولى الأمر شبهة تدخل على أى ركن من أركان الجريمة دفع الحدّ ، وأخذ بالعفو أو التعمير ، حسب ما تدل عليه دلالات الحال !

والإسلام بهذا قد سبق أحدث قوانين العالم ، التى تفسّر الشك لصالح المتهم .

يقول النبىّ صلوات الله وسلامه عليه : « ادرءوا الحدود بالشبهات » ، ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث بقوله : « إن إقامة الحدود من رحمة الله بعباده . . فيكون الوالى شديداً فى إقامة الحدّ . . لا تأخذه رحمة فى دين الله . . فيعطله . . ويكون قصده رحمة الخلق ، بكفّ الناس عن المنكرات . . لا شفاء غيظه ، وإرادة العلوّ على الخلق . . فهو بمنزلة الوالد إذا أدبّ ولده . . فإنه إن كفّ عن تأديب ولده ، يفسد الولد ! وإنما يؤدبه رحمة به ، وإصلاحاً لحاله ، مع أنه يودّ ويؤثر ألا يحوجه إلى تأديب . . وبمنزلة الطبيب الذى يسقى المريض الدواء الكريه . . وبمنزلة قطع العضو المتأكل . . فوكذا تكون الحدود ، وهكذا تكون نية الوالى فى إقامتها »^(١)

ومما يجب أن يُذكر هنا هو أن الإسلام إنما نصب هذه الحدود التي نصبها لإزاء تلك الجرائم — رعايةً للشعور العام ، وحفظاً لناموس هذا الشعور أن يُنتهك ويُمتهن ، بالخروج السافر عليه ، وبارتكاب الآثام ، في معالمة وتحدي له .

ومن أجل هذا فقد جعل الإسلام لهذه الحرمات عقوبتين : عقوبة دينية ، يتولاها الله سبحانه وتعالى ، فإن شاء عقاب ، وإن شاء عفا . . . وعقوبة دنيوية ، هي حق الجماعة على من اعتدى عليها ، وهتك سترها ، واستباح حيائها !

يقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه عنه ابن عمر رضي الله عنهما : « اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله عنها ، فمن أَلَمَّ بها فليستتر بستر الله ، وأيتَّب إلى الله ، فإنه من يُبدِّ لنا صفحته نُقِمَ عليه كتاب الله » (١)

هذا ، وقد اتهم أعداء هذا الدين الإسلام بأنه دين بداوة ووحشية ، لا يصلح أن يكون نظاماً تعيش عليه المجتمعات الإنسانية المتحضرة . . . ومن حججهم على هذا ، تلك الحدود التي فرضها الإسلام للجرائم القتل ، والسرقه ، والزنا ، وشرب الخمر . . . وهم يشتمون على هذه العقوبات . . . من حيث مقدارها ، ونوعها ، وأسلوب تنفيذها !

وها نحن أولاء نقف وقفة قصيرة ، عند هذه الجرائم ، وما شرع الإسلام لها من حدود .

القتل

فقتل القاتل عندم عمل فيه قسوة شنيعة على الإنسان ، وتراحم يحملون الأمر هنا إلى عملية حسابية في مجال الإنتاج المادي ، وفي باب الربح والخسارة . ! لا يحوجهم هذا إلى أكثر من النظر إلى قطعان الحيوان التي تعيش معهم . .

(٢) موطأ مالك . . . قلا عن عمدة الأحكام ص ٢١٩

فإذا نطح حيوان حيواناً فقتله . . أفىكون من التدبير الحكيم أن تقتل هذا الحيوان ؟ إن أفسى ما يمكن أن يفرض عليه هو أن يُعزل عن بقية الحيوانات ، حماية لها من بطشه وشراسقه . . إنهم يسوسون القطيع الحيوانى بهذه السياسة ، فلم لا يساس بها الإنسان ؟ وما جدوى قتل إنسان بإنسان ؟ . وقد مات الميت فليعى الحى !

ولكن حساب الإسلام غير هذا الحساب . . فالإسلام يقول يقول الحق جلّ وعلا : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ^(١) . فالقصاص فى الإسلام ، وقتل القاتل — حياة للإنسانية ، وإبقاء عليها ، وحراسة قائمة على رموس الأشرار ، أن يستبد بهم الشر ، فيزهقوا أرواح الأبرياء ، وفى تقديرهم أنهم سيظلون محتفظين بأرواحهم وحياتهم !

إن سلطان القانون لو استعان بهذا الوازع ، وترصد لكل من يقتل ، بحيث لا يقع فى وهم الناس أن يفلت مجرم من جرمه هذا . . لو أن سلطان القانون قام فى الناس هذا المقام لما جرؤ أحد على جريمة القتل ، ولعمل ألف حساب وحساب قبل أن يقدم عليها . . وأول حساب ، وآخر حساب يحسبه ، هو أنه مقتول لا محالة إن قتل . . وإذا كان بعض دول الغرب قد حرمت الإعدام فإن كثيراً من هذه الدول قد عادت اليوم لتأخذ به !

السرقَة

وفى السرقة . . يرون قطع يد السارق عقوبة بربرية وحشية ، تصم الإسلام ، وتدينه ، أمام المدنية والحضارة !

وقدّر هؤلاء فيما قدّروا أن الحياة ستشهد المجتمع الذى تمضى فيه هذه العقوبة وقد شوّحت الإنسانية فيه ، بهذه الأيدي التى زایلها أكفها ، وبانت عنها معاصمها !

ووقع في حسابهم أنه لو قُطعت أيدي من تضمهم السجون ، من أجل السرقة ، لكانوا أعداداً كثيرة من المشوهين ، الذين نتأذى بهم العيون ، وتتضرر النفوس ، وتآلم الضمائر !

ولا شك أن هذا حساب خاطئ ، قام على نظرة غافلة ، أو جاهلة ، أو مغرضة . . فلو أنه أُقيم حدّ السرقة كما شرعه الإسلام لما كان هذا العدد الكبير ممن يحترقون السرقة ، ويقدمون عليها . . ولما كان في هذه العقوبة التي فرضها الإسلام ، وقدّر آثارها — لما كان فيها زاجراً يجر معظم الذين يقتربون هذا الذنب ، ويعاودون اقترافه ، واحترافه !

ولا نذهب بعيداً ، فنرى عن التاريخ ، وننقل ما سجلت صحف الإسلام الأولى عن أثر هذه العقوبة ، وفعاليتها في حماية المجتمع من اللصوص ، ثم حماية اللصوص من أنفسهم — لا نروى من التاريخ ، وحسبنا أن نشير بالإصبع إلى الجزيرة العربية الآن . . وكيف قضت هذه العقوبة على جرائم السرقة قضاء تاماً مبرماً ، هناك ، وأقامت أعراب البادية الذين هم أجراً من العقاب — أقامتهم على سواها السبيل ، فلا تمتد يد أحد منهم إلى ما ليس له ، ولو مات جوعاً ، ولو كان الذي في معرض ناظره قناطير مقلّطة من الذهب والفضة ، ملقاة في العراء . . لا حارس لها ، ولا رقيب عليها !

ذلك ، ووازع الضمير لا يكاد يحسّ به أولئك الأعراب ، ولا يعملون له حساباً ، وإنما الذي يمسكهم ، ويشلّ أيديهم ، هو هذا العقاب المادي ، الذي ينتظر من يمدّ يده إلى ما ليس له !

ومع هذا ، فليس في الجزيرة العربية هذا التشويه للأدمية الذي قدّره «تخمينا» ، أولئك الذين يقولون في الإسلام ما يقولون ، من خلط وخط ، ومن زور وبهتان !

وإنه ليمضى العام ولا يُقام حد السرقة فى الجزيرة العربية كلها على أكثر من آحاد من الناس، يمدُّون على أصابع اليد الواحدة !!

إن الجزيرة العربية تقوم اليوم كأعظم شاهد — فى هذه الجزئية من تعاليم الإسلام — على أن الإسلام هو دين الله، وأن أحكامه وشرائعه لاتنقضها الأيام، ولا تحوّلها الأحوال عن أن تؤتى ثمراتها الطيبة التى أودعها الله فيها . . فى كل زمان، وفى كل مكان . . متى وجدت النفوس المتقبلة لها، المتجاوبة معها .

وإنه لن ترى الحياة أبداً أمناً كهذا الأمن الذى يسود الجزيرة العربية — إزاء هذه الجريمة التى تبيت الناس فى قلق وفزع — ولن ترى الحياة سلوكاً أقوم من هذا السلوك الذى استقام عليه سكان هذه البادية، التى لم يمارس أهلها دراسة الفلسفات، ولا الأخلاقيات، ولم يسكنوا إلى ظل من رخاء ونعمة — ومع هذا فقد أقام فيهم أدب الشريعة الإسلامية — إزاء جريمة السرقة خاصة — أدباً لن تعرفه مدينة أوروبا وأمريكا، ونشر بينهم أمناً لن تراه الدنيا أكل ولا أروع مما تراه فى جزيرة العرب . . موطن أشد الناس بأساً، وأكثرهم جفاء وجفوة، وأسرعهم خطواً إلى مواطن الشر والعدوان !

* * *

هذا، وليس ذلك التغليظ فى عقوبة السرقة قسوة من الإسلام، واستخفافاً بالإنسان، واسترخاءً لوجوده . . وإنما هو الجزاء العادل الرحيم، إزاء هذا الجرم الشنيع، الذى يعدّه الإسلام من أشنع الجرائم . . إذ هو اعتداء على حرمة الإنسان، فى أعز ما يحرص عليه، وهو المال .

ولا بأس من أن نلفت أولئك الذين يهتمون بالإسلام بالوحشية الحيوانية — نلفتهم إلى ما جهلوه أو تجاهلوه فى مثل هذا الموقف ... فليفظروا :

أولاً : السرقة اعتداء خفيّ على حرمة الإنسان ، واستباحة لماله الذي هو بمنزلة النفس عند صاحبه .

وإذا كانت المدينة الغريبة قد استخفت بهذه الجريمة حتى مارست سرقة الأمم والشعوب — فإن الإسلام الذي يحترم الإنسان — من حيث هو إنسان — ويرعى حرّماته في دمه ، وماله ، وعرضه ، كما يقول نبيّ الإسلام : « كل المسلم على المسلم حرام . . دمه . . وماله ، وعرضه » — فإن الإسلام لا يستخف بهذه الجريمة ، بل يضعها موضعها بين الجرائم الفليضة ، ولا تأخذ رحمة فيمن لا يرحم الناس . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين ^(١) » . . وهذا الحدّ هو بعض ما يدفع الله به الناس ، بعضهم بعض ، وهو بعض فضله على عباده !

ثانياً : ليس القطع في السرقة ، في مطلق السرقة ، أي سرقة . . بل لابد من توافر شروط تتم بها أركان السرقة ، التي يقام فيها الحد ، ويجب معها قطع اليد . . وهذه الأركان هي :

(أ) أن يكون المسروق شيئاً ذا قيمة . . أي له اعتبار في حياة الناس الاقتصادية . . وكان ذلك بقدر في عهد الرسول الكريم وصحابته بربع دينار . . أي ثلاثة دراهم . . فقد روى عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « تُقطع اليد في ربع دينار فصاعداً » ^(٢)

وهذا البصايب الموجب للقطع ، بقدر في كل زمان ومكان بحسب قوته الشرائية بالنسبة لعصر النبوة ! وهذا ما نرى أن يفهم الحديث الشريف عليه .

(ب) أن تقع السرقة في مال محروز ، أي أن السارق يسرقه من حرز ، فالمدل

(١) سورة البقرة آية ٢٥٢

(٢) صحيح مسلم : جزء ٥ ص ١١٢

البضائع ، والتمر الذى يكون فى الشجر فى الصحراء بلا حائط ، والماشية التى لا راعى عندها ، ونحو ذلك .. لا يقام على سارقه حد ، ولكن يعزّر ويضاعف عليه الغرم .

(ج) : ما أخذ بالقم من ثمر على شجر وأكل ، ولم يحمل منه شيء — لا قطع فيه ، ولا تعزير . ومن احتمل شيئاً غير ما أكل فعليه ضعف ثمنه ، ويُضرب .. نكالا له ، وزجراً لغيره !

(د) : السرقة فى أوقات المجاعات ليس فيها قطع !

(هـ) : هناك ظروف وأحوال يراها ولي الأمر ، ويقدرها فى حال السارق وظروفه ، فيعزّره ، ولا يقطع يده .. حيث لاحت الشبهة التى يدفع بها الحد .. فقد روى عن أمية الخزومي رضى الله عنه ، قال : « أتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلص قد اعترف اعترافاً ، ولم يوجد معه متاع . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما إخالك سرقت ؟ » قال : « بلى ! » .. فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً ، فأمر به ففُطِع ، وجيء به ، فقال له النبي الكريم : استغفر الله وتب إليه . فقال : استغفر الله وأتوب إليه ، فقال نبي الرحمة : اللهم تب عليه .. ثلاثاً »^(١)

ففى قول النبي صلى الله عليه وسلم : ما إخالك سرقت ، ما يدل على رغبة كريمة من الرسول الكريم فى صرف السارق عن إقراره بالسرقة ، حيث استبان له فى حاله ما يدعو إلى أخذه بغير الحد ، فلما أصرّ الرجل على الاعتراف لم يكن بدّ من إقامة الحد عليه !

كذلك درأ الرسول الرحيم الحدّ عن عبد من رقيق الخمس — أى خمس الغنائم — وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مال الله .. سرّق بعضه بعضاً »^(٢) !!

(١) بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر ص ٢٢٢

(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية جزء ٣ ص ٤٤٨

(و) يجوز لصاحب المال إذا ضَبَطَ السارق أن يعفو عنه قبل أن يصل الأمر إلى القضاء .

فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لصفوان ابن أمية ، وقد جاء ليشفع فيمن سرق رداءه — أى رداء صفوان هذا — : « هَلْأ كان ذلك قبل أن تأتيني به ؟ » (١)

فهل يسمح عاقل لعقله أن يهذى ويهتر وهو في ضوء هذا الصبح المشرق لوضئ ؟ « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين » . (٢)

(الزنا)

وهذه الجريمة يشكرها الناس جميعاً ، وتنفكرها كذلك المدنية الغربية جهراً ، وترضى بها وعنها سراً ، وذلك لما فيها من عدوان على حقوق الأزواج ، ومن اختلاط الأنساب ، وحلّ روابط الأسرة ، وما بين الآباء والأبناء من حنان وعطف ورعاية ، وبذل يبلغ حد التضحية بالنفس . . الأمر الذى لا يكون إلا إذا ملأت عاطفة الأبوة قلوب الآباء ! وهذا لا يكون إلا إذا وقع في نفوس الآباء وقوعاً محققاً أن هؤلاء الأبناء هم من أصلابهم !

وقد فرق الإسلام في العقوبة بين المحصنين ، وغير المحصنين . . لما بين الفريقين من اختلاف في الحاجة ، وقوة الدافع !

فالحد الذى جعله الإسلام لغير المحصن من الرجال والنساء . . الجلد . . مئة جلدة !

أما المحصن من الرجال والنساء فحده « الرجم » !

(١) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ٢٢٢

(٢) سورة البقرة آية ١٦٦

فإذا توافرت أركان هذه الجريمة بما يوجب الحد .. وجب ولزم !
ثم إنه إذا أقيم الحد — جلداً أو رجماً — وجب أن يكون علناً ، وأن يشهده
طائفة من المؤمنين !

يقول الله تعالى : « الزانية والزاني ، فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة
ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد
عذابهما طائفة من المؤمنين »^(١)

وهذا الجلد في شأن غير المحصنين .. أما المحصنون فهو الرجم ، كما عرفنا !
وقد نص القرآن على الجلد ، ولم ينص على الرجم ..
ولسائل أن يسأل :

إذا كان حكم القرآن قد جاء هكذا مطلقاً في الزانية والزاني ، وهو الجلد ..
فلم هذا التخصيص بغير المحصنين ؟ ومن أين جاء النص على المحصنين ؟
ونقول : إن هذا التقييد للنص القرآني ، وصرفه إلى غير المحصنين .. إنما هو
من عمل الرسول صلوات الله وسلامه عليه .. وكذلك حكم الرجم للمحصن هو من
عمل الرسول ، فقد رجم محصناً ، هو « ماعز بن مالك » ورجم امرأة محصنة هي
« الغامدية » وقد عرضنا قصتهما منذ قليل !

ولسائل أن يسأل أيضاً :

كيف يحمى حكم القرآن عن جريمة « الزنا » نصاً في الجلد ، ثم لا يحمل نصاً
لعقوبة « الرجم » ؟

ألا يكون عكس هذا هو الأولى .. فينص القرآن على العقوبة الكبرى ، وهي
« الرجم » ، كما نص على عقوبة « الجلد » ؟

ونقول :

أولاً : عَمَلُ الرسول الكريم متمم للشرعة ، وشارح لها .. بحكم القرآن الكريم ، في قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ،^(١) .. ذلك أن الرسول لا يَدْخُلُ بشيء على الشرعة إلا بإذن من ربه ، ووحى من وحيه : « وما ينطق عن الهوى .. إن هو إلاَّ وحيٌّ يوحي » ،^(٢)

ثانياً : حَمْلُ إطلاق قوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة » — حَمْلُ هذا الإطلاق على غير المحصنين فيه رعاية لمقتضى الحال ، الذى يكاد يصرح بأن حد الزنا إنما هو واقع في مجال غير المحصنين ، وأنهم هم الذين قد يقومون تحت طائلته .. أما المحصنون فن القليل النادر أن يؤخذ أحدهم به !

ذلك أن وجوب الحد على الزاني لا يكون إلا إذا وقعت هذه الجريمة مستوفية أركاناً خاصة .. دون أن يَعلَقَ بأي ركن منها شبهة من الشبه القريبة أو البعيدة .. وأهم هذه الأركان هو شهادة أربعة من الشهود العدول ، بأنهم قد رأوا وقوع هذا المنكر على الوجه الذى يقع بين الزوجين ، من المباشرة ، التى لا يطلع عليها أحد .. وأن تكون هذه الرؤية كاشفة كل شيء بين الرجل والمرأة ، وخاصة فيما يتصل بالتقاء سواتهما التقاء مباشراً كاملاً !

وطبيعى أن تحقيق هذه للشروط نادر أن يقع .. ذلك أن الذى يمكن أن يحدث منه هذا الأمر على ملأ من الناس بحيث تنكشف لهم سواته ، هو إنسان إما ممتوه ، أو مجنون ! أو مخمور ، لأن العاقل — فى أى درجة من درجات العقل — يأبى عليه حياؤه أن يتجرد هذا التجرد لأعين الناس .. فكيف لا يمسك به حياؤه

(١) سورة الحشر آية ٧

(٢) سورة النجم آيتا ٣ ، ٤

وهو في مواجهة هذه القملة السكراء .. ولو فرض وكان في الرجال من جدد ماء الحياء على وجهه .. فكيف السبيل إلى المرأة التي جدد حياؤها هذا الجود، فتعرت للرجل هذا التعري على أعين الناس؟ إن هذه الصورة لا تقع إلا في أحوال نادرة، وتحت ظروف وأحوال غير طبيعية، كأن يقدر الزانيان أنهما في مأمن، فيكشف عنهما هذا السر، الذي يستتران فيه على غير انتظار، أو أن يطالع عليهما مطلع، من حيث لا يحسبون ولا يقدران !

وغير المحصنين هم أقرب إلى التعرض لهذا الفعل المنكر للفضوح، إذ كانوا — تحت ثورة الشهوة، وقسوة الحرمان — معرضين للاندفاع إلى هذه الجريمة، وقلة المبالاة بعواقبها، والعمى أو التعامى عن الظروف المحيطة بها !

أما المحصن، فإنه — إذ يقدم على هذا الجرم — لا يكون محكوما بثورة الشهوة أو قسوة الحرمان إلى هذا الحد الذي يكون عليه غير المحصن .. كما أنه لا يندفع إلى تلك الجريمة هذا الاندفاع الجنون في غير مبالاة، خوفاً من الفضيحة والخزي عند زوجه، وبنيه، وأهله !

فالمحصن الذي يقترف هذا الإثم في تلك الجراة المجهولة، والمحصنة التي تستجيب له في هذا التحدى الوقاح للمجتمع، إلى حد أن يرى الناس منهما ما يرون من بعض الحيوانات في عملية الاقتاح — وأقول بعض الحيوانات لأن كثيراً من أجسام الحيوانات يتخفى ويستتر عند هذه العملية فلا يسمح لعين أن تراه .. من جنسه أو غير جنسه — نقول : إن الحصن والمحصنة اللذين يبلغ بهما الاستهقار والقحة والتبجح إلى هذا الحد الذي تفأى عنه بعض الحيوانات — هما إنسانان فقدتا إنسانيتهما، وأسقطتا بأيديهما الحجاب الذي كان يفصل بينهما وبين أخس الحيوانات !

وهنا تتضح لنا، حكمة نص القرآن على حد الجلد، وهو العقوبة للفروضة على غير المحصنين .. إذ كان غير المحصنين هم — كما قلنا — الكثرة الواقعة تحت حكم

الزنا على تلك الصورة المكشوفة المفضوحة ، وهم أدنى إلى مقاومة على الإنثم ، على صورته تلك ، من المحصنين ، الذين يكاد الإسلام لا يفترض لهم وجوداً . . لأنهم إن وجدوا على تلك الحال كانوا من الفدرة النادرة التي لا يتوجه إليها عموم الحكم .
كذلك يتضح التقدير الذي قدره الإسلام لعقوبة هذا الجرم في مجاله معاً : الإحصان ، وغير الإحصان — وهو تقدير عادل حكيم ، رحيم . . لا تخف موازينه أبداً ، في أى مجتمع إنسانى ، يحترم وجوده ، ويرعى حرمانه ، ويحتفظ بالقدر الإنسانى من حياته ومروءته . .

والجلد ، مضافاً إليه الفضح ، هو عقوبة غير المحصن ..

وهذا الجلد . . غير منسكور ما فيه من استخفاف بإنسانية الإنسان ، وإذلال لمروءته ، وإسقاط لكرامته . . فإذا ضُمَّ إليه الفضح كان استخفافاً إلى استخفاف ، وإذلالاً ، وإسقاطاً .. فوق إذلال وإسقاط !

نعم . . إن الإسلام يأخذ هذا « الإنسان » بكل هذا ، في مقابل جفايته تلك التي جناها . . !

وكيف يرعى الإسلام حرمة فرد — رجلاً أو امرأة — لم يرع إنسانيته ، ولم يحفل بمروءته ؟

وكيف يقبل منه هذا العدوان الصارخ على المجتمع . وهذا التجدى المجنون لحرمة الجماعة وحياتها ، دون أن يذيقه الكأس التي سقى منها مجتمعا كاملاً ؟ وكيف لألبسه هذا الثوب من المذلة والموان والاستخفاف ، وقد ألبس هو المجتمع هذه الأثواب جميعاً ؟

إن أقل ما ينبغى أن ينال مقتضى هذا الإنثم في علانية وفي غير مبالاة ، أن يكون العقاب المسلط عليهما قائماً على العلانية ، وعدم المبالاة ، معاً . بالجلد . . والفضح !

أما المحصنون .. فقد نزلوا دركات بعيدة عن هذا المستوى الذى نزل إليه غير المحصنين ، إذ لا يجدون عند الناس شيئاً من هذا العُذر الذى قد يجده غير المحصنين .. عند بعض الناس ! ..

ولهذا كان عقابهم أن يُدفنوا فى هذه الحفر التى حفروها لأنفسهم ، وأن يقذفهم المجتمع بالأحجار ، حتى تزهق أرواحهم ، كما قذفوا هم المجتمع بهذه السهام المسمومة ، التى أصابت منهم الحياء بجراح درامية !

* * *

إن جريمة « الزنا » لا يلقاها الإسلام بهذا العقاب الذى يراصد إلا حين تتحول عند مرتكبها إلى عمل غير منكر ، يأتيه من يأتيه وكأنه إنما يؤدى رسالة كريمة فى الحياة ، يرى من الخير أن يشهده الناس وهو متلبس بها !! وهنا يكون الحساب على هذا الفجور العريان ، وعلى تلك الحيوانية الطاغية التى تابس الإنسان ، وتتمشى به فى الناس .. فى غير خجل أو حياء !

أما حساب الإسلام لمرتكبى هذا الإثم حساباً دينياً فهو مؤجل إلى يوم الحساب .. يوم يقوم الناس لرب العالمين . ويقف المذنبون بذنوبهم بين يدى الله .. فيفقر لمن يشاء ويمدب من يشاء !

من أجل هذا لم تكن عقوبة الجلد أو الرجم تقع إلا فى القليل القادر جداً .. إلى أولئك الذين يفادون على أنفسهم بالقضية .. بلا مبالاة ولا تحرج !!
وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى امرأة كانت تعلن الفجور :
« لو كنتُ راجماً أحد بغير يئنة لرجمتُ هذه »^(١)

وهذه المعالفة التى يشير إليها الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لم تبلغ الدرجة

التي يرى الناس فيها تلك المرأة متلبسة بالجريمة، هذا التلبس الذي اشترطه الشارع لإقامة الحد !

شرب الخمر

ولا نناقش هذا الموضوع من حيث الحكمة المقصودة من وراء تحريم الخمر ، فقد عرف الغربيون من آثام الخمر وأضرارها أكثر مما عرف الناس جميعاً ، إذ شهدوا في أنفسهم ما تركت الخمر فيهم من أضرار بالغة ، وأدواء لا دواء لها . في عقولهم ، وأجسامهم ، وأموالهم ، كما عرفوا سلطان هذا المنكر فيهم ، ورأوا عجزهم عن مقاومته ، والوقوف في وجهه ، ولو ساقهم سوقاً إلى التهلكة والضياع ! . وفي تحريم أمريكا للخمر ثم قهرها ، وتخاذلها ، واستسلامها ، لهذا الأمر المحرم ، حجة قائمة على الذين يرون في الخمر غير ما يرى الإسلام !

لنناقش في هذا . . فقال الحال أوضح من كل ما يقال !

ولكن الذي نناقشه هو العقوبة التي فرضها الإسلام وأوجب أخذ شارب الخمر بها . !

فالعقوبة هي « الجلد » ! وعلى ملأ من الناس !

والذي يعيبه العائبون على الإسلام هنا هو نوع العقوبة . . وهو الجلد ! لأن الجلد عديم عمل وحشى حيوانى ، لا يليق أن يقع على إنسان . . وأن الإسلام في إقراره هذه العقوبة إنما يعامل إنسانية لا عقل لها ولا إحساس ، ولا مشاعر . . إنسانية لا تؤدب إلا بما يؤدب به الحيوان . . وهو الضرب ، والجلد ! ! وإن الإسلام لينسكب بهذا العمل أن في الإنسان جوانب أخرى يمكن أن يقع عليها العقاب ، وأن يترك فيها آثاراً أقوى وأفضل ، وأنجح من هذه الآثار التي يتركها العقاب الجسدى . . هناك العقاب النفسى ، والروحى . . بكلمة تأنيب ، أو نظرة احتقار أو حرمان من مكانة اجتماعية في المجتمع . . ونحو هذا ! . . هكذا يقول القائلون !

والذى ينظر فى تدبير الإسلام ، وتقديره لهذه العقوبة التى أخذ بها شارب الخمر ، يجد أن الشارب الذى يسوقه الإسلام إلى ساحة العقاب حيث يقام الحد عليه ، هو هذا الإنسان الذى خلع عذار الحياء ، بعد أن اجتراً على حدود الله فشرب الخمر ، ثم أبى إلا أن يلقى الناس بهذا الجرم ، وإلا أن يعرض عليهم نفسه ، وقد تخلّى عن عقله ، وألقى به فى كأس الخمر . !

أفمثل هذا الإنسان الخليع غير الجلد عقاباً ينفذ من جلده الصفيق إلى مواقع الحس الهميمى من الحيوان ؟

أفيجدى مع مثل هذا الصفيق نصيح ، أو تأنيب ؟
وأي العقل الذى بقى ؟ وأي الشعور الذى يحس ويتألم ؟

ثم نسأل :

أترى هذه العقوبات البدنية ، من «الجلد» ، «والرجم» وما يصحبهما من تشنيع وفضح . أترى المدنية الحديثة تستفكف من هذا اللون من العقاب .. وأن مشاعرها الرقيقة ، وإنسانيتها الكريمة تغفر من أن ترى إنساناً — مهما كان جرمه — يقاد كما يقاد الحيوان ويؤدب بما يؤدب به الحيوان ؟

وننظر فنرى المعجب !

حقاً إن المدنية الحديثة ، لا ترى فى هذه الجرائم التى رصد الاسلام لمقترفها هذه العقوبات — لا ترى فيها شيئاً ذا بال تقف عنده كثيراً ، وتضبط موارده ومصادره ، وتحاسب فتدقق فى الحساب !

إن تلك الجرائم ، ليس لها وزن فى مجال المدنية الحديثة ، وإن يكن لها شيء من الوزن فهو وزن ضئيل ، لا تخف به كثيراً موازين من يمارسون هذه الجرائم ممارسة الطعام والشراب . !

إن هذه « جرائم » ليست لها هذه الصفة في تلك المدنية المادية، وأغلظ صفة لها وأشنعها أنها « فعل فاضح » ، يعاقب عليه مرتكبه بدريهات معدودة ، تخرج من جيوبهم إلى خزنة الدولة !

وننظر مرة أخرى . . فنرى ما هو أعجب وأغرب !

هذا الإنسان العزيز الكريم في مجتمع المدنية المادية . . هو كذلك إنسان عزيز كريم ما دام لم ينحرف عن شريعة الاقتصاد ، ولم يكن جنافية تتصل بالمال . . أما إذا خدش ناموس هذا الإله المعبود . فهو ليس إنساناً ، بل ولا حيواناً . . وإنما هو حيفة ميتة تلقى للسكلاب ، والحداء والغربان ،

ويكفي أن نذكر هنا حكم « الإفلاس » الذي يفقد به الإنسان « ذمته » المالية . . ويصبح مجرد حيوان . . لا يملك ولا يملك ! ترقبه العيون — عيون دائنه — كما ترقب القطط فأراً وقع في مصيدة !

وماذا يكون الجلد، بل والرجم، إلى جانب هذا الحكم ، الذي يلتقي بالإنسان في تلك العزلة الباردة القاتلة، ويقطع منه شرايين الحياة التي كانت تدفع به في جنون وسط هذا المعتكز ، الذي يعود منه آخر اليوم بحصول وفير من الأسلاب والغنائم، يزيد بها « رصيده » في عالم المال الذي لا يعيش إلا به ، وله ؟

المـرأة

ربما حسب بعض الناس لهذا العنوان حساباً خاصاً . . وربما وقع في نفوسهم منه أننا سنعرض قضية من قضايا الإسلام عفوانها « المرأة » ،

ولو أنصفنا الحقيقة في جانب الإسلام لما جعلنا للمرأة مكاناً في هذا البحث ، الذي ينظم بعض قضايا الشريعة الإسلامية . . إذ لم يجعل الإسلام المرأة وضعاً

خاصة تفهزل به عن الكيان الإنسانى ، فيكون لها بذلك فيه وضع خاص ، وأحكام خاصة ، تصاح أن تكون قضية من قضاياها .

والحق أن الإسلام لم ينظر إلى المرأة نظرة تفرق بينها وبين الرجل ، إلا فى أضيق الحدود ، وإلا فىما يتصل بها كأنتى ، وبالرجل كرجل !

فهى فى الإسلام إنسان ، تحمل كل خصائص الإنسانية التى عند الرجل .. وكما يخالفها الرجل فى بعض الصفات التى تجعله رجلاً ، تخالفه هى أيضاً فى بعض الصفات التى تجعل منها أنثى !

إن الرجل والمرأة هما أصل شجرة الإنسانية ، وما تفرع منها من شعوب وأمم . هذا ما يقرره الإسلام فى قوله تعالى : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »^(١) فكيف يمايز الإسلام بين هذين الأصلين ، على حين سوى بين ما يتفرع منهما من أُم وشعوب ؟

إن حكمة الخالق جمعت بين الرجل والمرأة جميعاً لازماً ، يكاد يكون اضطرارياً ، ليكون منهما النسل الذى به حفظ النوع وبقاؤه !

وإنه لكان يجتمع الشمل بينهما ، ويسكن كل منهما إلى صاحبه كان لا بد أن يكون أحدهما أنزل من الآخر درجة ، لئلا يكون بينهما تجاوب وتوافق ، ولو كانا على حد سواء لتباذبا وتخاصما ، ولأدار كل منهما ظهره لصاحبه ، ولما أسلم أحدهما زمامه للآخر .. فإن الخصام والشفاق لا يكون إلا بين النظراء ، ولا يقع إلا بين الأكفاء .. أما حين تتراجع كفتا الميزان ولا تتعادلان ، فإنه يمكن التجاوب والتآلف !

ومن جهة أخرى فإنه لو اتسعت مسافة التفاضل بين الرجل والمرأة لكان ذلك داعية إلى الفطيمة بينهما ، أو إخضاع أحدهما للآخر قهراً .. وقسراً ، وحينئذ لا يقوم بينهما السكن والإلف ، الذى لا تتم نعمة الحياة إلا فى ظلاله ، وفى هذا يقول الله سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودةً ورحمةً »^(١)

ولهذا ، كان الذى بين الرجل والمرأة من فضل هو — درجة ! درجة واحدة .. لا يخفّ بها ميزان المرأة ، إزاء الرجل ، ولا تضمر شخصيتها إزاء شخصيته : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبمولتهن أحقّ بردهنّ فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ، ومن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهنّ درجة »^(٢).

فهذه الدرجة لازمة — كما قلنا — لقيام الشركة بين الرجل والمرأة ، على مودة ورضى ، ولو لم تكن هذه الدرجة فى جانب الرجل لوجب أن تكون فى جانب المرأة ، ليتم بينهما اللقاء ويدوم ! . وسياق الآية الكريمة الذى تقدم هذا الحكم : « وللرجال عليهنّ درجة » — هذا السياق يكاد يصرّح بأنه تبرير أشبه باعتذار لهذا الحكم الذى جعل للرجل على النساء درجة .. فقد جاء فى هذا السياق حكم لازم للمرأة من حيث طبيعتها ، وهى أن تعدّ ثلاثة قروء عند طلاقها ، الأمر الذى لا متوجّه له إلى الرجل ، إذ أن هذه العدة لاستبراء الرّحم محافظة على صحة الأنساب ..

ونعود إلى موقف الإسلام من المرأة ! أو ، بمعنى أصدق إلى ما صور به موقف الإسلام من المرأة !

ونعم ، فليس الإسلام مع المرأة موقف خاص ، تنعزل به عن الرجل .. إلا فى حدود ضيقة جداً — كما قلنا — وإنما الذى جعل للمرأة موقفاً خاصاً فى الإسلام ، هم

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٨

المسلمون لا الإسلام .. ؛ أعنى بالمسلمين عانتهم وخاصتهم جميعاً !

لقد ظلم المسلمون المرأة ، كما ظلموا الإسلام في تشويه نظراته إليها ، تلك الفطرة التي لو استقام عليها المسلمون ، لكان حسابهم مع المرأة على غير هذا الحساب المبخوس ، الذي ضمّر فيه وجودها ، وبهتت به شخصيتها ، وكادت تفقد فيه حياتها كإنسان كريم ، تنسأى به إنسانيته إلى غايات الكمال .. من الحق ، والخير .

والكي تتضح الصورة المعتمدة التي وضع فيها المجتمع الإسلامي المرأة ينبغى أن نكشف عن تلك الصورة السكرية المشرقة التي وضعها الإسلام فيها .

فأولاً : سوى الإسلام بين المرأة والرجل فيما أناط بهما من تكاليف ، وما وجه إليهما من أوامر وزواجر ..

ومن هذا أن الخطاب للرجل ، كان يصحبه الخطاب للمرأة في كل مقام يتحدد فيه موقف الإنسان ، ويتقرر فيه مصيره !

فمن ذلك قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخالصين والخالصات ، والمتصدّقين والمتصدقات ، والصّائمين والصّائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً » (١) .

ففي مثل هذا المقام الذي يدعى فيه اليأس إلى ذلك المقام الكريم الذي أعدّه الله للعاملين من عباده على الانصاف بهذه الصفات الطيبة ، التي تدنى من رحمة الله ، ورضوانه — في هذا المقام تنتج الدعوة إلى الرجال والنساء معاً ، وكذلك الشأن حين تنصب موازين الجزاء .. المرأة والرجل على حد سواء ..

يقول الله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة »

ولنجزيتهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون^(١) .

ويقول جلّ شأنه : « ومن عمل صالحاً من ذكراً أو أنثى ، وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يَرْزُقُونَ فِيهَا بغير حساب^(٢) » .

وليس هذا في الجزاء الأخرى وحده . . بل إن العقوبات التي يرصدها الإسلام للذين يتعدّون حدود الله ، وينتهكون حرمانه — هذه العقوبات للرجل والمرأة حقاً ، فدماهما ودم الرجل سواء . . تقتل به إن قتلتها ، ويقتل بها إن قتلها . . وتقطع يدها إن سرت ، كما تقطع يد الرجل إذا سرق . . وتجلد ويجلد إذا زنيا غير محصنين ، ويرجمان إذا زنيا مُحَصَّنَيْنِ . . وهكذا يشملهما حكم عام موحد فيما يتصل بالسكيان الإنساني المشترك بينهما . . أما حين يكون الحكم مما تتضرر منه طبيعة المرأة ولا تحتمله . . كالقتال في سبيل الله ، وكالصلاة في فترة الحيض والنفاس . . فإن الإسلام — رافة بها ، وتمشياً مع المبدأ الذي قام عليه وهو : اليسر ، ورفع الحرج ، كما يقول الله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرجٍ ، ولكن يُريدُ ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون^(٣) » . نقول إن الإسلام بهذا الحساب أعفى المرأة من واجب القتال في سبيل الله حين تدعو دواعيه ، كما أسقط عنها فريضة الصلاة في مدة حيضها ونفاسها ! كما أوجب عليها الفطر في رمضان إذا كانت في الحيض أو النفاس . . ثم تقضى ما أفطرته من أيام .

وهذا الوجه الذي تبدو فيه المرأة المسلمة في تعاليم الشريعة وأحكامها — وجه مشرق ونهى ، يفيض إنسانية وقوة ، وحيوية ، وطمأنينة ، وأملًا !

وثانياً : أن الشريعة جعلت المرأة والرجل ذمة واحدة . . . حيث تفاظر المرأة الرجل في مقام الولاء أو العداوة . .

فقال تعالى : « وللمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ^(١) » وقال : « والذين يؤثون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ^(٢) » : وقال سبحانه مخاطباً النبي الكريم : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ^(٣) » .

هذا في مقام الإيمان ، مع المؤمنين والمؤمنات . .

وفي غير مقام الإيمان ، يجرى الأمر على هذا التقدير ، مع المرأة والرجل . . . « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ^(٤) » . « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ^(٥) » . . . « ليمذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ^(٦) » .

وهكذا تفاظر المرأة الرجل وتزاحمه بمنسكها ، في كل موقف يقفه ، في مجال الخير والشر على السواء ، والفهم السليم الصحيح لنظرة التشريع الإسلامى إلى المرأة ، والتطبيق العادل لهذا التشريع — يقيم المرأة في المجتمع الإسلامى مقاماً تجد فيه وجودها الإنسانى كله ، غير معوق أو معطل . .

وشهادة التاريخ في تلك الفترة المشرقة من حياة الإسلام في عصر النبوة ، وفترة الخلفاء الراشدين — هذه الشهادة تنطق بأجلى بيان عن الدور العظيم الذى قامت به المرأة في الخطوات الأولى التى كان يخطوها الإسلام لأول لقائه بالإنسان . . فلقد كانت المرأة من أهل السبق إلى الإسلام ، بل كانت من أوائل أهل السبق فيه .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٨

(٤) سورة التوبة : ٦٧

(٦) سورة الأحزاب : ٧٣

(١) سورة التوبة : ٧١

(٣) سورة محمد : ١٩

(٥) سورة التوبة : ٦٨

هو الوقوف إلى جانب الرسول الكريم منذ اليوم الأول الذى تلقى فيه أول إشارة من السماء تدعوه لأن يهيب نفسه لما اختاره الله له : ليكون رحمة للعالمين !

ولعله لا يخلو من سرٍّ ، هذا الذى حدث يوم سمع النبي — صلوات الله وسلامه عليه — صوت السماء ، فكان مفزعه إلى المرأة . . . وهى زوجه السيدة خديجة ، وكانت هذه المرأة هى أول إنسان صدّق محمدًا ، واستجاب له ، ودخل معه في دين الله !

وهكذا يقوم المجتمع الإسلامى الأول من نبيّ وامرأة نبيّ !

ومن يدري . . . فلعل هذا الذى يبدو من قيام الدعوة الإسلامية منذ يومها الأول على النبي وزوجه . . . على الرجل والمرأة — لعل هذا الذى يبدو أنه حدث عَرَضى أو اتفاقى فى حياة الدعوة الإسلامية ، لعله أمر من أمر الإسلام ، وخاصيّة من خصائصه ، إذ كان — وهو الدين القائم على الفطرة — حريًّا بأن يولد مجتمعه هذا الميلاد الطبيعى ، كما يُولد أفراده من رجل وامرأة . . . زوج وزوجه . . . أب وأم ! !

أقول هذا القول ، وأنا أعلم بما يثير عند العقليين من مشاعر الإشفاق ، أو الاستخفاف ، أو السخرية لهذا الخيال الشعرى الذى تواجه به الحقائق !

ولكن ليسكن هذا . . .

فالعقليين دينهم الذى يتأقونّه من معطيات الأرقام الحسابية ، والمعادلات الجبرية . . . ثم إن للتدينين دينهم الذى يلقونه بكيانهم كله ، لقاء الفنان لآيات الوجود . . . يلقونه بعقل العالم ، وقلب الشاعر جميعًا ! !

* * *

وتنمضى المرأة فى سيرها مع موكب الدعوة الإسلامية خطوة خطوة . . . فإذا كان الابتلاء الذى امْتَحَن به النفس الأولون السابقون إلى الإسلام بما أخذتهم به قريش من التنكيل والتعذيب — كانت المرأة إلى جانب الرجل ،

تتلقى في إيمان ، وشجاعة ، وصبر كل ما يصبّ عليها من عذاب ، وما تتعرض له من استحياء ، طوال هذه المحنة القاسية !

ويخصى تاريخ الإسلام من النساء المعذبات ، والمعرضات للتعذيب أعداداً تماثل أو تتقارب مع أعداد الرجال ..

وأكثر من هذا ، فإن تاريخ الإسلام قبل الهجرة قد سجل للمرأة مواقف تكاد تنفرد بها في مجال الفداء والتضحية .. ونذكر هنا أم حمار بن ياسر التي ظلت هي وابنها وزوجها تحت وطأة التعذيب والتنكيل حتى لفظت أنفاسها ، وهي على إيمانها بالله وبرسوله ! ..

ثم إذا كانت الهجرة التي أذن الرسول فيها للمؤمنين أن يفروا بدينهم من وجه هذا الإصرار الذي لقّهم في مكة — كان دور المرأة في هذه الهجرة دوراً بطولياً فذاً في التاريخ ، إذ استطاعت أن تقهر عواطفها ، وأن تفعل عن مشاعر الأم ، أو الزوجة ، أو الأخت ، أو الابنة ، وأن تجعل وجودها كله لحساب عقيدتها ، وأن تكون حيث تجد دينها .. ففارقت الأهل والولد ، وألقت بنفسها في طريق وعر طويل ، لا تدرى إلى أين ينتهى بها ، ولا ما لا تلقى عند نهايته ! ..

ولقد وجد الرجال الذين أزمعوا الهجرة من استجابة زوجاتهم لصحبهم فيها ما خفف عنهم فراق الأهل والوطن ، وما هيا لهم في الهجرة من أسباب العناء والآنس !

ويُخصى تاريخ الإسلام في هذا الموقف أيضاً أعداداً من النساء يماثل أو يتعادل مع أعداد الرجال !

ويُخصى التاريخ أسماء كثير من اللواتي المرافقات لأزواجهن إلى الحبشة ، وعلى رأسهم « رقية » بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، مع زوجها أبي سلمة بن عبد

الأسد ، وليلى بنت أبي صمّة بن غانم مع زوجها عاصم بن ربيعة، وأسماء بنت عميس ، مع زوجها جعفر بن أبي طالب ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ، مع زوجها عمرو بن سميد بن العاص ، وأمينة بنت خلف مع زوجها خالد بن سميد بن العاص ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان مع زوجها عبد الله بن جحش وكثيرين غيرهن . . كانت لهنّ هجرة إلى الله ، وفي سبيل الله !

ولهذا كان الإسلام بفطرته إلى المرأة على هذا المستوى الإنساني الذي تسامت فيه المرأة مع الرجل — كان على الحق الذي جاء به ، والعدل الذي يعتدل به ميزان الوجود . فكانت المرأة من أخذ الإسلام بحقها كاملاً ، لم ينقص منه شيء . ولأن الإسلام يعلم ما في طبائع الناس من بغي وعدوان ، حين يجتمع قوى ضعيف ، كما يقول الله سبحانه : « وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وقليلٌ ما هم »^(١) — نقول : إن الإسلام إذ يعلم هذا من طبيعة الناس فقد وصّى بالمرأة وصّة خاصة ، إلى جانب وصايا العامة من الدعوة إلى العدل والإحسان ، والرفق ، والمودة . . ولهذا كانت آخر وصاة للنبي الكريم هي قوله : « اتقوا الله في الضعيفين : المرأة والمملوك » .

* * *

ثم إذا خرج الإسلام من هذا الامتحان ظافراً منتصراً ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً — كانت المرأة في المجتمع الإسلامي وجهاً بارزاً مشرقاً فيه . . تعمر بيت الله ، وتستمع إلى رسول الله ، وتتفقه في دين الله . . وتستفتي وتفتي . . وتلقى الرجال غادية ورائحة ، تعرفهم ويعرفونها ، وتستخبرهم ويستخبرونها . . هكذا كان شأنها في عصر النبوة ، والخلافة الراشدة . . ثم امتد ذلك إلى العصر الأموي كله !

فلم يضرب الإسلام حجاباً على المرأة ، ولم يجعلها حبيسة بيتها ، وقعيدة الدار . .

بل فتح لها أبواب الحياة كلها ، تدخلها باباً ، باباً — شأن الرجل .. سواء بسواء ..
لا نستصحب معها إلا دعوة الإسلام لها وللرجل بالتعفف ، والتوصون ، والتوقى
لحرمت الله !

مبحث النذر

والحجاب الذى ضربه الإسلام على المرأة كان خاصاً بنساء النبي وحدهن ،
ومن نساء المسلمين جميعاً ، إذ أدّب الله سبحانه نساء النبي بأدب خصهن به ، وجعل
لهن فى مقابل هذا أجراً مضاعفاً .. ليس لغيرهن من النساء ، وكأنه فى مقابل هذا
التكاليف الخاص بهن !

وفى هذا يقول الله سبحانه مخاطباً نساء النبي الكريم : « ومن يقنت منكن
لله ورسوله ، وتعمل صالحاً نؤتها أجراً مرتين ، وأعتدنا لها رزقاً كريماً .. يا نساء
النبي لستن كأحد من النساء .. إن اتقيتن ، فلا تخرجن بالقول ، فيطمع الذى
فى قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً .. وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرزن تبرج
الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما
يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيراً » (١)

فهذا أمر موجه إلى نساء النبي خاصة ، لتحقيق ما يريد الله لهن من حماية
ووقاية تباعد بينهن وبين قالاتِ السوء ، ومظناتِ التهم ، التى لا يسلم منها من يحتك
بالناس .. والله سبحانه وتعالى يريد للنبي وآل بيته هذا الحى الذى لا يدنو
منه أحد !

وليس فى هذا الحكم الجزئى الحدود بهذه الحدود الضيقة — زماناً ومكاناً —
ما يؤثر فى حياة المرأة ، ويعطل قوة من قواها !
ولهذا كانت نساء المسلمين — مع هذا الخطر الجزئى المحصور فى بيت النبوة —

غير مقيدات بهذا القيد ، ولا بأى قيد آخر ، إلا قيد العفة ، والحياء ، وما يوجبه الإيمان من رعاية حدود الله .

والحق أن المرأة المسلمة لم تعرف هذا الحجاب الكثيف ، فى أول لقاءها بالإسلام ، وفى صحبتها له طوال شباب الدولة الإسلامية ، ولم تقم بينها وبين الحياة هذه العزلة القائلة ، التى رمتها بها يد البغى والجهل . . بل كانت تملأ وجوه الأرض علما وعملا . .

يقول الجاحظ فى بعض رسائله : « لم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرصون مع سقوط الحجاب بنظرة القلعة ، ولا لحظة الخلسة ، دون أن يحتمموا على الحديث والمسامرة ، ويزدوجوا فى المناسمة والمشافهة » (١)

ولا يمكن أن يكون موقف الإسلام من المرأة إلا هذا الموقف الكريم ، الذى يتيح لها أن تأخذ حظها كاملا من الخير والرحمة ، اللذين حملهما الإسلام إلى الإنسانية كلها !

وكيف يعقل أن يحىء دين يخاطب فيه النبى من الحق جلّ وعلا بقوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » — ثم يكون من أحكامه وتعاليمه ما يتحول بالمرأة من إنسان له وجوده ، وله عقله ، ومشاعره ، ومفازعه — إلى كائن مسلوب الإرادة ، مشلول الحركة ، مضروبا بينه وبين وجوه الحياة بأبواب من حديد ؟

لِمَ كان خلق المرأة إذن على هذه الهيئة الإنسانية . . إذا كان غاية ما يطلب منها أن تكون المتعة أو الزينة ، أو التسلية ؟ لم كان هذا وفى الحياة وجوه كثيرة بين يدي الإنسان ربما كانت أكثر غناء ونفعا فى هذا المجال من المرأة ؟

ولم كان إذن ميلاد الرجل من المرأة . ؟ ذلك الميلاد الذى يكاد يكون خلقا ؟

(١) رسالة « القيان » للجاحظ : ص ٥٧ (ضمن ثلاث رسائل)

أفيكون من الحكمة والعدل أن يتسلط الخلق على خالقه ؟ وأن يستبد
الربيب بمن رباه ونشأه ؟

أيكون هذا من منطق شريعة سماوية تحمل إلى الناس — كل الناس —
الخير والرحمة ؟ ثم أيستقيم لهذه الشريعة — منطقاً ، وعدلاً — أن تخاطب المرأة
مخاطبة الإنسان العاقل الرشيد ، وأن تعدّها أهلاً لحمل تكاليف الشريعة والوفاء
بها ؟ ألا يكون ذلك غاية الإعفات والخرج في شريعة رفع الله عن أتباعها الإعانات
والخرج ؟ لا ، ثم لا ..

إن الرحمة في الشريعة الإسلامية تشمل الوجود كله .. فكيف يعقل أن تُحرّم
المرأة وحدها حظّها من هذه الرحمة الواسعة ؟

إن ظروفًا سياسية ، واجتماعية ، ومذهبية قد أحاطت بالمجتمع الإسلامي فقلبت
أوضاعه ، وغيّرت معالمه ، وشوّت حقيقته ، فرأى الحياة من خلال الضباب
المتكاثف من حوله .. وكان نصيب المرأة من انقلاب هذه الأوضاع أوفر نصيب ..
وانظر !

لقد وقع المجتمع الإسلامي منذ السنوات الأولى للدولة العباسية تحت وطأة غزو
اجتماعي وسياسي ، وأخلاق من تلك الأمم غير العربية التي دخلت في الإسلام ..
وكان فيما يتصل بالمرأة أن كثرت مجالس القيان وملأت الجوارى مجالس الشراب ،
وقصور الخلفاء والأمراء والأعيان .. وكان من هذا أن بدت المرأة في هذه الآفاق
رخيصة ، مسترخصة .. تفالها كل عين ، وتعبث بها كل يد .. وكان من هذا
أيضاً أن سرت في الناس موجات التحلل والفساد ، بل والإباحية .. فكان ذلك
داعية إلى قيام ردّ فعل مضاد لهذه الحركة .. فظهر الزهد ، والتعفف العنيف ،
وقام الفقهاء ورجال الدين بدورهم في هذا الموقف ، فحملوا على المرأة حملة شعواء ،
إذ كانت في نظرهم صاحبة الدور الأول في هذا الشرّ الذي ملأ وجه الأرض ..

وعما ينبغي أن ينبه إليه هنا أن هذه الظاهرة قد بلغت غايتها في الفترة التي تم فيها تدوين المذاهب الدينية الكبرى ، تأليفاً وشرحاً . . فكانت نظرة الفقهاء والشراح إلى المرأة متلبسة بهذا الوضع الذي كانت تعيش فيه الإماء والجواري ، والقيان ..

وإذا لم يكن في الإمكان الوقوف في وجه الحياة التي تحميها الجواري والقيان — فقد اتجهت القوى كلها إلى حماية الحرائر داخل دورهن وقصورهن . . وفُرض على المرأة أن تلتزم ببتها ، وأن تقيم في « الحريم » بعيداً عن كل عين ، وراء الستُر ، والحُرَّاس ، والحجاب !

ثم إنه ضاعف من هذا البلاء الواقع على المرأة ، تلك الحروب المتصلة ، والفتن التي شملت العالم الإسلامي خلال الغزو التتري والمغولي ، ثم الغزو الصليبي ، ثم تسلط المماليك والأتراك ، وعدوان بعضهم على بعض في الاستيلاء على الأقاليم والأمصار .. إذ كانت المرأة مطمح أنظار الغزاة والفاحين ، كما كانت رغبة الولاة والحكام المتسلطين .. الأمر الذي جعل الرجال الأزواج ، والآباء ، والأخوة ، وذوي القربى — يحرصون على المرأة حرصهم على أعز ما يملكون من نفائس الأموال وكرائمها ، حيث لا يرون سبيلاً للإبقاء عليها في أيديهم إلا بإخفائها في مراديب وأغلاق لا يهتدى إليها أحد .. وبغير هذا لا تسلم من عدوان معقد ، أو قهر قاهر .. فكانت المرأة في نظر أهلها بهذا الوضع الذي للعالم ، وأكثر منه . ! إن رأت النور تخطفتها العيون ثم استولت عليها الأيدي ، وتحولت إلى رقيق يباع ويُشترى ، أو إلى خلية يفتى أمرها إلى سوق الرقيق !

* * *

إن هذا الوضع الذي فرض على المرأة نتيجة لمثل هذه الظروف وتلك الأحوال لم تكن لحساب الإسلام ، وإنه لمن الظلم أن تظل المرأة مقيدة بتلك القيود ، كما أنه من

الخطأ في الرأي أن يُحسب انطلاقها من تلك القيود التي كانت تمسك بها خروجاً على الدين ، بل إنه عودة إلى الدين ، ودخول فيه !

* * *

وأمر آخر يتصل بالمرأة ، ويُحسب على الإسلام ، جهلاً ، أو ظلاماً بأنه عدوان عليها ، وامتهان لها . . وذلك ما كان من الإسلام من إباحة تعدد الزوجات ، وإباحة الطلاق كذلك .

وتعم ، أباح الإسلام التعدد ، وأباح الطلاق . !

فأى شيء في هذا ؟

إن الذين يشغبون على الإسلام ، ويشوشون عليه . . يقولون : لماذا يباح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة ، وأن يجمع بين أكثر من واحدة إلى أربع ، ولا يباح للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، وأن تجمع بين أكثر من رجل إلى أربعة ؟ أليس هذا هو العدل ، والمساواة ؟

وكيف يكون عدل ومساواة مع هذه التفرقة البعيدة الواضحة ؟

ونقول : إنه لكي ينظر إلى هذه المسألة نظراً صحيحاً مستقيماً ، ينبغي أن ينظر إلى جانبيها معاً ، جانب المرأة وجانب الرجل ، كل على حدة ، وفي مقابل الآخر . .

ففي جانب المرأة نجد :

أولاً : أن الطبيعة قد جعلت مولوداتها من الإناث أكثر من الذكور . . سواء ذلك في عالم ، الإنسان أو الحيوان والطير . . وحتى في النبات !

وقد يكون هذا التدبير المتصل بأصل الحياة لكي تتكاثر المواليد ، وتعمر هذه الأرض !

ثانياً : هذه الحروب ، وهى سنة من سنن الحياة .. تذهب بكثير من الرجال ، الأمر الذى أضيف إلى سابقه قلت نسبة الرجال إلى النساء إلى درجة بالغة الخطر ، إن لم يكن هناك عامل ملطف ، أو مخفف لها !

ونسأل : إذا لم يكن هناك عامل معدّل ، لهذا التفاوت البعيد فى النسبة بين أعداد النساء وأعداد الرجال — فأين يذهب هذا العدد العديد من النساء اللاتى لا مقابل لهن من الرجال ؟

جواب واحد لا غير . . هو أن يمتنّ عانسات ، إذا تعفنن — وقليل ماهنّ — أو يحينّ حياة بهيمية ، مباحات لكل رجل إذا استعجن لفريزتهن ، وما أكثرهن !

أف هذا ؟ أم أن تسكن المرأة إلى رجل مع أخرى غيرها ؛ أو أخريات ؟

ثم لنسأل : أجعل الإسلام هذه الإباحة أمراً واجباً ملزماً ؟

وهل مع هذه الإباحة المطلقة وجد الرجال فرص الحياة ، وظروفها مواتية لهم فيسكن الواحد منهم لأكثر من امرأة ؟

إن الواقع يشهد بأن أفراداً قلائل يعدّون فى حكم الشاذ ، هم الذين استعملوا حق الإباحة هذا . . أما الذين لم يتزوجوا أكثر من واحدة فهم الغالبية الغالبة التى يعتد بها التشريع الوضعى ، بله السماوى !

إن التعدد هنا باب من أبواب الرحمة للمرأة نفسها ، تفتحها الحياة فى ظروف وأحوال خاصة ، فيكون فيه للمرأة منفذ إلى حياة — على ما بها — هى أفضل من الحياة بلا رجل !

ثم نسأل أيضاً ؟

أهناك فى هذه الإباحة ما يرغم للمرأة على أن تشارك غيرها فى الزوج ، أو يشاركها غيرها فيه ؟

إن للمرأة الأولى أن تطلب الطلاق إذا تضررت من المرأة الثانية ، كما أن للمرأة الثانية أن ترفض الزواج من هذا الزوج !

وننظر في جانب الرجل . . فنجد

أولاً : أن الرجل يحتفظ بقوته وحيويته مدة أطول من المرأة التي تسبقه إلى الوهن والضعف . بما تعاني من الحمل ، والوضع ، والولادة ، والرضاع ، والتربية .
وفي مثل هذه الظروف قد يرى بعض الرجال أن يمسكوا بزوجاتهم ، وأن يُحصِنوا أنفسهم ، ويحفظوا دينهم ومروءتهم بزوجة أخرى .

وثانياً : قد تصاب المرأة بمرض يعجزها عن الوفاء بحاجة الزوج والقيام على شئون البيت ، وهذا تبدو الحاجة إلى امرأة أخرى ، تؤدي الوظيفة التي عجزت صاحبها عن أدائها . . وعندئذ يكون من الإعانات والخرج ولإضرار أن يُحجر على الرجل ، فلا يجد سبيلاً للخروج من هذا الوضع الأليم ! وفي إباحة الزواج بامرأة أخرى ما يتيح للرجال في تلك الحال أن يفكروا تفكيراً هادئاً عاقلاً ، وأن يتخيروا لأنفسهم أى الأمرين أصلح . . الزواج بامرأة أخرى ، أو الصبر على ما هو فيه ؟ وكثيراً ما يكون الأمر الأخير هو الرأى الراجح الذى يعيل إليه الرجال في أغلب الأحيان . . رعاية للعشرة الزوجية ، ووفاء لحق ما بين الزوجين !

بقى أن يُنظر إلى هذا الموقف من وجهه الآخر ، وهو أن يغلق على الرجل باب الخلاص من هذا الضيق الذى يعيش فيه تحت سلطان الإلزام والقهر ، دون أن يكون للاختيار ، والشعور بمعانى التضحية مكان هنا إزاء هذا الإلزام القاهر ونسأل : كيف تكون حياة الرجل في هذا السجن الرهيب الخيف ؟ بل كيف تكون حياة المرأة مع مثل هذا الرجل الذى يراها في تلك الحال حكماً مؤبداً عليه ، بالشقاء والبلاء ؟ إن المرأة في هذه الحال تكون أشقى من الرجل ، إذ تجد أنها لعنة مفروضة على الرجل ، وأنه لو كان لها خيار في إفساس الطريق له لما ترددت

فى حلّ الرباط الذى يربطها به ، وإطالبت هى بذلك قبل أن يطالب به هو !
ثم انظر بعد هذا ما يكون من العواطف الإنسانية التى يوقظها الشعور الذى
يسيطر على الزوجين فى ظل هذا التشريع الإسلامى الذى أباح لهما الانفصال
فى مثل هذه الحال . . إن كلاً منهما يجد أنه فى سعة من أمره ، وأنه يملك وجوده
وإرادته ، كما أنه يحتفظ بمرءته ، وشخصيته . . فالرجل إذا احتفظ بامرأته فى
حالتها تلك أضى جوانب كثيرة من عواطفه، تعوضه كثيراً مما يلقى من ضيق
وضرر معها . . والمرأة تشعر بأنها غير مفروضة عليه ، وأنه أمسك بها بمحض
اختياره ، وأن الجانب الإنسانى فىهما هو الذى يمسك برباط الحياة
الزوجية بينهما . . !

إن الإسلام بصنيعه هذا فى إباحة الطلاق ، وجعله حلالاً بغيضاً ، لا يقربه
الإنسان إلا كما يقرب المنكرات والحرمات عند الضرورات -- إن الإسلام بهذا
قد احتفظ للإنسان بوجوده الشخصى وبحريته المطلقة التى لا تخضع إلا لوازع الضمير ،
وحكم المروءة ، ومقتضى ما توجهه للمروءة والرجولة ، وما تدعو إليه عواطف
التضحية والإيثار !

وإذن ، فهذا التعدد الذى يشنع به على الإسلام ، وينادى به فى الملأ على
أنه من الموروثات البهيمية التى ورثها الإنسان عن الحيوان من هذا التعدد — هو
دواء لأدواء كثيرة فى محيط المرأة خاصة ، كما أنه شفاء لمرض العلل التى تصاب
بها الحياة الزوجية فى بعض الأحيان !

وهذا الدواء الذى يقدمه الإسلام هنا ليس مفروضاً فرضاً على كل إنسان
وفى كل حال ، بل إنه — شأنه شأن كل دواء — محكوم بحكم الحاجة وبحسب الحالة . .
فمن خرج به عن هذا الحكم فقد ظلم نفسه ، وجاوز حدود الله !

أما الطلاق ، فإنه عملية يترقوم الإسلام بها حين تمتل الحياة الزوجية ، وحين لانكون السلامة للأسرة مرجوة إلا بهذه العملية ، التي تفصل بين الزوجين ، وتقطع أسباب الشقاق الذى يهدد مجتمع الأسرة كله بالانهيار !

إن الزواج شركة بين الزوجين ، غايتها تحقيق منافع متبادلة بينهما ، فإذا وقع بين الله يكتن خلاف — وهذا أمر ليس محظوراً أن يقع — ثم استحكم هذا الخلاف — وهذا أيضاً أمر ليس مستحيلاً وقوعه — كان من الحكمة ، ومن الخير معاً أن يفصل الشريكان ، وأن يخرجوا من هذا الصراع الذى يعيشان فيه ، إلى حيث يجد كل منهما طريقه إلى السلم والاستقرار ؟

ولا ندرى كيف يفرض على إنسانين من الناس فرضاً لازماً أن يعيشا عيشة واحدة مدى الحياة ، ثم لا يكون بينهما خلاف ، أو أن لا يتحول ما كان بينهما من حب ومودة إلى كراهية وعداوة ؟ أذلك مما قامت عليه الحياة البشرية وطُبعت عليه نفوس الناس ؟

نعم ما أكثر ما تقوم روابط الحب والمودة بين إنسان وإنسان ، وما أكثر ما يزداد هذا الحب وتلك المودة على الأيام قوة واستحكاماً . . . ولكن ليس بالقليل ولا النادر أن يتحول ما بين الحبيبين المتوآدين ، وأن تنقلب القلوب ، وتبدل الأحوال !

فكيف يفرض فى الرجل والمرأة - أعنى الزوج والزوجة - وما إنسانان أن يخرجوا عن هذه الطبيعة البشرية ، فلا يقع بينهما ما يوجب الخلاف والفرقة . . . إن ذلك أمر لن يكون أبداً فى حياة البشر !

والإسلام لا يخرج بالناس عن طبيعتهم ، ولا يحملهم على ما لا تعطيه هذه الطبايع ، فهم — وإن كانوا أزواجاً — بشر ، قد تطيب حياتهم على العشرة ودوامها ، وقد يطرأ على هذه العشرة ما يجعل استمرارها شقاء وبلاء لا شفاء منه إلا بالانفصال والفرقة . .

فالطلاق رُخصةٌ ، جعلها الله في شريعة الإسلام رحمةً تنزل حيث تطلبها الحاجة ، وتستدعيها ، الأحوال . . وليست سيفاً مصلتاً على رقاب الزوجات ، كما يقع ذلك في كثير من الأذهان ..

وسوء استعمال هذه الرخصة لا يحسب على الإسلام ، وإنما هي أمانة دينية ، يحملها الإنسان فيما حمل من أمانات دينه . . ومطلوب منه — ديناً — الوفاء بهذه الأمانات وأدائها على الوجه الأكمل . . فإن فرط في الأمانة عدّ خائفاً . . وحسابه على الله !

وماذا يفعل الإسلام غير هذا ، لمعالجة ما قد يقع بين الزوجين المتألفين من عداوة وبغضة ومناظرة ؟

أيفرض على مثل هذين الزوجين أن يعيشا في هذا البلاء ، وأن يقطعا العمر في همٍّ ، وحزن ، وشقاء ؟

وهل لو فرض الإسلام ذلك ، أتحمّله النفوس وتقبله ، وتسكن إليه ؟

والجواب على هذه نجده في المجتمعات التي لا تبيح الطلاق في تلك الأحوال . . فكم جرائم قتل اقترفت ؟ وكم من مخازٍ وفضائح أعلنت ؟ وكم من حيلٍ دُبّرت ؟ . وكم من نيران انتقدت وأنت على مجتمع الأسرة كله ، من شرارة كان من الممكن إطفائها ؟ أفهذا ؟ أم مواجهة الأمور في مراعاة ، وأخذها برفق ؟ ومعالجتها بحكمة وعقل ودين ؟

لقد أعطى الإسلام هذه الرخصة ، ورَفَدها بكثير من الوصايا التي تنبه دائماً إلى أنها « خطر » لا يُستعمل إلا بحساب دقيق ، تنبه له ملوكات الإنسان كلها ، ويستيقظ له وجوده جميعاً عند استعماله . . تماماً كما يفعل بالأدوية التي تحوى قدراً من السم فيكتب على زجاجاتها في ورقة حمراء كلمة « سم » !

يقول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ١

وروى أن عمر رضى الله عنه رأى رجلاً هم بطلاق امرأته « فقال له : لِمَ تطلقها ؟ فقال لا أحبها . فقال عمر : أوكل البيوت بنيت على الحب ؟ فأين الرعاية والتدّم ؟ » (١)

وماذا لو قامت الحياة الزوجية على غير الرعاية والتدّم ؟ أين العواطف الإنسانية هنا ؟ وأن ما يستشعره كل من الزوجين من أن كلاً منهما إنما يجتمع إلى صاحبه ويسكن إليه ، تحت دواعي المودة والحب ، فإن لم تكن مودة وحب .. فرعاية وتدّم . إذ ليس هناك قوة دينية ملزمة لهما ، إذ بمحض اختيارهما يجتمعان ، وبمحض اختيارهما يفترقان .. أما حين يكون سلطان الدين هو الذى يمسكهما هذا الإمساك الملزم الأبدى ، فإنه لا يكون لهما شأن فى الإبقاء على الحياة الزوجية بينهما ! وإذن فلا وجود لمثل هذه العواطف الإنسانية .

هذا ، وليس الرجل وحده هو الذى يملك حل عُرا الزوجية . حين يكون الحل أهون الشرين .. بل إن للمرأة كذلك هذا الحق ، فلها أن تفارق زوجها ، وتقطع علائق الزوجية بينهما ، إذا وقع عليها من عشرتها زوجها ضرر محقق لا يمكن دفعه ، أو علاجه .. !

جاءت « جميلة » امرأة الصحابى الجليل « قيس بن ثابت » — إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله : لا أجد فى قيس بن ثابت عيباً من خلقي أو إيمان ، ولكنى لا أجد فى طوق مجاراته .. فسألها النبي صلى الله عليه وسلم : هل تميدن إليه حائطه ؟ (٢) .. فقالت نعم ! فأمر النبي برد الحائط إلى قيس بن ثابت ، وتطليقها ! !

(١) البيان والتبيين — للجاحظ جزء ٢ ص ٧١

(٢) أى البستان الذى قدمه قيس صداقاً لها .

وهذا حكم يلتزمه كل من يجلس مجلس القضاء بين الزوج وزوجه ، لأنه تشريع عام من الرسول ، وليس هناك دليل على تخصيصه بهذه الواقعة .

ولانريد أن نُذهيَ هذا البحث دون أن نلفت النظر إلى كلمة « الطلاق » التي استعمالها الإسلام لحلِّ عُرَا الزوجية ، وفكِّ رابطها بين الزوجين . ! فهي كلمة تحمل في مدلولها الحكمة المطلوبة منها ، وهي أنها إطلافي من حياة تحولت إلى سجن أو ما يشبه السجن ، حين فسدت الحياة بين الزوجين ، وحين استحکم الشر بينهما ، وبهذا الإطلاق يجد كل من الزوجين منطلقاً في الحياة !

ومعنى هذا أن الطلاق ليس عملية تشفيّ وانتقام من الزوج ، وإنما هو — حين يوضع في موضعه — راحة بالزوج وبالزوجة معاً . . .

وانظر في تدبير الإسلام لعملية الطلاق . . إنه لم يجعل الطلاق مرة واحدة ينتهي بها الأمر بين الزوجين ، حتى إذا سكنت وقدة الشر ، وراجع كل منهما نفسه ، واستشعر الندم والأسف ، وجد الباب قد أُوصد بينهما إلى الأبد ؟ لم يفعل الإسلام هذا ، لأنه يعلم خبايا النفوس ، وتقلبات القلوب . . فجعل الطلاق مرات ثلاث ، ينحسم بعدها الأمر ، حيث اتسع الوقت في هذه المرات الثلاث لغريبة النفوس وفحصها ، فلم تَطمَ غير هذا الدواء المر ، الذي هو على مرارته خير من الصبر على مكروهه لا يحتمل ! وفي هذا يقول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساكٌ بمعرفٍ ، أو تسريحٌ بإحسان » ، ففي قوله تعالى « أو تسريحٌ بإحسان » أدب إسلامي رفيع يتجه به الإسلام إلى الإنسان ، ليقبضه على منازل الفضل والإحسان ، في هذه الحال التي تنزع فيها النفوس إلى الشر والعدوان ! وهل تعرف آداب المدنية الحديثة من أدب المعاشرة ما يشبه هذا الأدب الإسلامي أو يقاربه ؟ هيئات ، هيئات !

ولهذا كان من تدبير الإسلام ألا ينفصم ما بين الزوجين إلا ومشاعر الرحمة ملء كيانهما . .

ومن هذا ما شرعه الإسلام من فرض نفقة المطلقة مدة عدتها .. فهذه النفقة هي لون من ألوان البرِّ الرحيم ، والصلة الكريمة ، يصل بها الزوج زوجته ، وبطيِّبها نفسها ، وكأنها اعتراف بسابق مودتها ، وحبها !

ولا تنظر في هذا الذي يقوم بين الزوجين في ساحات القضاء من مشاحنات ، ومكايد ، وتلفيقات في مجال النفقة ، فذلك كله ليس من واردات الإسلام ، وإنما هو من آفات الإنسانية وشرورها الكامنة فيها ..

إن « النفقة » التي شرعها الإسلام للمطلقات ومَن في حكمهن تكشف عن إنسانية هذا الدين ، وعن شفافية روحه .. فهي — في مضمونها — تعبير عن أرق مشاعر الإنسان في هذا الموقف الذي تغيم فيه النفوس ، وتضطرب الخواطر ، وتحقد الصدور .. وإنها لو جاءت على الوجه الذي أراده الإسلام لما كانت بلسماً شافياً ، ونسمة ندية عليّة في سموم هذا الجو اللافتح المحرق !

* * *

الرق قبل الإسلام ، وفي الإسلام

الجهة المعادية للإسلام من مبشرين ، ومستعمرين ، وملحدين — هذه الجهة تتخذ من الرق سلاحاً تشهره في وجه الإسلام دائماً ، وبخاصة كلما رأت شعاعاته تنفذ إلى مواطن جديدة ، وتدخل على قلوب الوثنيين ، واللادينيين بالهدى ودين الحق .. عندئذ يجنّ جنون تلك الطوائف المجتمعة على حرب الإسلام، المتحالفة على الوقوف في سبيله ، وصدّ الناس عنه ، فترى في وجهه بكل سلاح يقع أيدها ، تريد أن تطمس معالمه ، وتعمى على الناس سبيله ، وتخيل لهم من موارده الطيبة الصافية أنها خبيثة آسنة ، لا تسكن إليها إلا الحشرات والهوام ، حاملة الجراثيم والأوبئة !

والرقيق ، هو واحد من أسلحة هذه المعركة ، وهو أكثرها فعالية وأثراً ، في إفريقية السوداء بالذات ، حيث كانت هذه المواطن مسرحاً كبيراً ، وسوقاً رائجة لصيد الرقيق ، والاتجار فيه ! وحيث اتجه أهل هذه المواطن في هذه الأيام إلى الإسلام ، يريدونه لهم عقيدة وشريعة !

ويكثر في هذه الأيام الحديث عن الرقيق ، وتجارته ، وعن الأيدي التي كانت تعمل فيه ، وتتعامل به .. وكان يمكن أن يدع هذه الأحاديث تمرّ دون أن نقف عندها ، أو نلتفت إليها إلا بحساب أنها تاريخ قد مضى ، وصورة من صور الحياة الإنسانية في بعض أدوار حياتها — كان يمكن أن يكون هذا موقفنا من تلك الأحاديث التي تنشر ، وتذاع هنا وهناك عن الرقيق وتجارته ، لولا أن هذه الأحاديث قد جاءت لتأكيد للإسلام كيداً عظيماً ، ولتقف في وجه سيوله الجارفة في القارة الإفريقية الآن !

فقد تحررت أوطان الإفريقيين في هذه السنوات الأخيرة أخذت الحواجز التي

كانت تحجز الناس عن الإسلام هناك ، والتي كانت تقييمها الجبهة المعادية للإسلام ، من مبشرين ومستعمرين وملعدين — أخذت هذه الحواجز تتداعى وتهار ، ولم تجد اليد التي كانت تقييمها وتسندها .. من جيوش الاستعمار ، وسياسة المستعمرين .. وكان لابد أن تتلص تلك الجبهة المعادية للإسلام حواجز أخرى تعزل الأفريقيين عن الإسلام ، عوضاً عن تلك الحواجز التي تداعت وانهارت .. ولم يكن من المستطاع إعادة فتح القارة واستعمارها من جديد .. ! وإذن فهناك كثير من الحواجز النفسية والروحية ، يمكن أن تندس إلى نفوس الإفريقيين ، وتقيم بينهم وبين الإسلام عداوات تثيرها أحداث مختلفة مزيفة من التاريخ ، ويفذّبها كذب لثيم ، وافتراء خسيس على الشريعة الإسلامية ، وموقفها من الرقيق ، ودورها في ابتلاء الإنسانية به !

نعم ، فلقد بلغت الجرأة بالقوم ، ودفعهم الحقد الأعمى على الإسلام أن أنكروا أبجديات التاريخ ، وتجاهلوا بدهيات العلم ، فأضافوا إلى العرب — قبل الإسلام — وإلى العرب مع الإسلام ظهور الرق في هذه الحياة .. حتى كأن الناس لم يعرفوا الرق إلا عن طريق العرب ، وحتى كأن الحياة لم تشهد الرق إلا في تلك المواطن التي عاش فيها العرب ، أو اتصلوا بها ! !

ونختصر الحديث ، فلا نذهب به بعيداً ، ولا نتنعم أحاديث القوم منذ بدأ الإسلام بدخل أفريقيا السوداء .. بل نكتفي بكلمات قليلة من آخر كتاب ظهر في هذه القضية المملّقة !

والكتاب مطبوع في مصر ، وينسب إلى مصري ، يحمل دكتوراه ، واسمه (أى اسم الكتاب) « الإسلام في أثيوبيا » .. أما مؤلفه فلا داعي لذكره .. رحمة به ، وستراً لحاله !

يقول هذا الكتاب في إحدى فقراته :

« وتجارة الرقيق ، وما تدره من أرباح تفوق حدّ التصور ، تغرى كثيرين على احترافها ، ولهذا اشتغل بها عدد كبير من (العرب)^(١) . . . فيمكننا إذن أن نتصور العدد الكبير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ، واستقر في هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق أفريقية ، صغيرها وكبيرها ! » .

هكذا يحصر المؤلف تجارة الرقيق في العرب ، ثم يحصر مواطنها في شرق إفريقيا . ! ومفهوم هذا أن العرب هم أصل البلاء ، ومصدر هذه الحجة التى ابتلى بها هؤلاء الإفريقيون ، وشقى بها آباؤهم وأوطانهم أجيالاً بعد أجيال ! !

ولو وقف الأمر عند هذا الحدّ لكان ، ولكن يأبى المؤلف إلا أن يحىء بالإسلام مسانداً للعرب ، في اصطباد الرقيق ، ومزكياً هذا العمل ، ومباركاً تلك التجارة ! !

وأين كان ذلك ؟

في إفريقية !

إفريقية التى تفتح أبوابها الآن للإسلام ، وتهتف به ، ليكون في قلبها وفي عقلها ، وهى تبنى حياتها الجديدة ، وتُرْمِي قواعدها على أصول راسخة من الدين والعلم !

يقول الكتاب : « ولكن الإسلام وحدّ بين العرب ، وحدّ من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التى كانوا يشفونها على بعضهم ، كما حرّم أن يسترق مسلم مسلماً !

(١) كأن العرب وحدهم كانوا هم تجار الرقيق في العالم ! (يالكذب الفاجر !)

« وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذين كان يعتمد عليهم العرب في حراسة قوافلهم ، وزراعة أرضهم ، وخدمتهم !

« فلا بد إذن من تمويض هذا المورد الذى قطعه عنهم إسلامهم ! » .

ومن أين يلتبس هذا المورد ؟ وكيف تسعف الأيام به ؟

يجيب الكتاب على هذا ، إجابة قاطعة حاسمة . .

« وليس هناك من مكان يستطيع أن يسدّ هذا النقص سوى الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وما يسكنه من مورد لا ينقطع من شعوب سوداء !! »

إفريقية إذن هى السماء التى تمطر ذهباً وفضة وعبيداً ، وإماء . . للعرب . . فى الجاهلية ، وفى الإسلام ! . .

والإسلام ، بما كان منه من توحيد العرب ، ورفع أيدى بعضهم عن بعض ، وبتحرير استرقاق المسلم للمسلم ، قد سدّ منافذا الرزق كلها على العرب ، إلا منفذاً واحداً هو ساحل البحر الأحمر ، وما يسكنه من مورد لا ينقطع من شعوب السودان ! وإذن . . فماذا ؟

لا نستنتج شيئاً . . فقد أغنانا الكتاب عن ذلك ، وجاء هو بالنتيجة اللازمة ، والمطلوبة من هذه المقدمات . .

يقول الكتاب :

« فلا بد إذن من أن تَنشَط تجارة الرقيق بعد الإسلام ، عما كانت قبلة ، وأن يشتغل بها عدد كبير ، وأن يحتاج إلى عدد ضخم من الأعوان والمعاونين !! »
أرأيت ؟

لقد نَمَى الإسلام تجارة الرقيق ، وعمل على رواجها وانتشارها . . هكذا على الإطلاق .. بدون قيد لزمان أو مكان !!

بل وأكثر من هذا . . لقد ربّى الإسلام أعواناً ومعاونين — من غير المسلمين — لاحتراف هذه التجارة . . فإذا رأيت أو قرأت ، أو سمعت بأن تاجراً غير مسلم ، أو بلداً غير إسلامي مارس هذه التجارة ، فهي من واردات الإسلام ، ومن صنعه ، وتربيته !

هذه نفثة من النفثات المسمومة التي تتساقط من أفواه الحاقدين وأقلامهم ، يُلْقُون بها في مَناهل الإسلام السائفة الطيبة ، حتى يتحاشاها الناس ، ويَزَوون وجوههم عنها !

وندع هذا السَّقَطَ من الكلام ، وهذا الزور من القول ، وتلك السفاهة الوقاح ، المتطاولة على الشمس ، تنكر ضوءها الذي يملأ هذا الوجود ! وننظر في القضية من أصلها . . ونستدعى لها التاريخ شاهداً . . ونسأل :

هل كان العرب هم المجتمع الوحيد في هذا العالم الذي استرقّ الإنسان ، وأوجد نظام الرقيق ؟

ثم هل كان الإسلام شريعةً تزكى الرقّ ، وتعمل على انتشاره وذيوعه ؟ وفي الإجابة على هذين السؤالين من صحف التاريخ ، ينبجلى الموقف في هذه القضية ، ويظهر مدى المسخ الذي يصيب الحقائق ، حين تقع كيد الأهواء ، وتلوّكها أفواه الغلّ والحسد .

الرقّ في حياة المجتمع الإنساني :

وإذا كان الرقّ صورة من صور البنى والتسلط من الإنسان على الإنسان ، فمن القوى على الضعيف ، فلا نعدو الحقّ إذا قلنا إنه صلب الإنسانية منذ كان

لآدم ولد في هذه الأرض . ! وفيما حدث بين أول أخوين في الدنيا — قابيل وهابيل — من عدوان أحدهما على الآخر ، ومحاولة انتزاع ما في يده ، ظلماً وحسداً — في هذا الحدث الذي انتهى بأول جريمة قتل ، وسفك دم على هذه الأرض ؛ شيء أكثر من الرق ، الذي قد يؤثره بعض المستضعفين على الموت ، على حين تجدد بعض النفوس الأبية الموت خيراً من الاسترقاق والعبودية ، كما فعل الشاعر العربي الصعلوك — تأبط شراً — حين حاصره أعداؤه ، وكاد يقع أسيراً في أيديهم ، أو يسفك دمه . . فاختار خير الشرين ، وفي الشر خيار ، لاذ يقول :

هـا خُطتَا إِمّا إِسَار ومِنّة وإِمّا دَم ، والقتل بالحرّ أَجْدَرُ

ونمضي الحياة بأبناء آدم ، وفي كفتي ميزانها أقوياء وضعفاء ، وأشرار وأخيار ، وذئاب وحُمَلاَن . . وإذا أفراد ، وجماعات ، وقبائل ، وشعوب ، وأمم تُستعبد ، وتُخضع لأفراد وجماعات ، وقبائل ، وشعوب ، وأمم ! ويكفي شاهداً ماثلاً لهذا ، هذه الرقعة الواسعة من العالم التي وقعت فريسة في فم الاستعمار ، والتي استبيحت خرماتها من دماء وأموال وأعراض . . بلا حساب ! ولا تزال إلى اليوم شعوب وأمم لم تخلص بعد من هذا البلاء !

فإذا نحن تركبنا الحاضر المائل ، وقلبنا صحف التاريخ ونظام الطبقات ، الذي أقام كل جماعة من الناس في موضع لا تتجاوزه ، فكان الناس في هذا النظام أشبه بأعضاء الجسد في الجسد . . بعضهم رهوس ، وبعضهم أقدام . . بعضهم عقول تفكر ، وبعضهم دُمى تتحرك ، وأدوات تعمل ! — نجد عَجَباً .

ونستدعي الشاهد هنا من أوروبا ، ومن أقدم وأعرق حضارة فيها . . من أثينا ، وروما . قبل الميلاد ، وقبل الإسلام !

ولا شك أن « أرسطو » هو الذي كان صاحب الدور الأول في بناء العقل .

الأوربي الحديث ، وعليه تقلد الفلاسفة والمفكرين الذين أقاموا دعامة الحضارة الأدبية الحديثة .

وعلى هذا، فإننا سنكتفى بعرض رأيه في المجتمع الإنساني، وتمايز أفرادها تمايزاً يجعل من بعضهم سادة بالطبيعة ، وبعضهم عبيداً بالطبيعة أيضاً ..

يقول « أرسطو »

« ينبغي الآن أن ينظر .. أوجد أناستى جملهم الطبع كذلك — أى عبيداً — أم لا يوجد .. البتة .. وفي حق من — أياً كان — يصير عدلاً ونافعاً أن يكون عبداً .. أم أن كل استرقاق هو مضاد للطبع ؟

ويجب أرسطو على هذا بقوله :

« العقل والواقعيّات يمكن أن تحمل مع اليسر هذه المسائل .. !

« فالأمر والطاعة ليسا شيئين ضروريين فحسب ، بل هما أيضاً شيئان نافعان كل النفع ! !

« بعض الكائنات منذ الولادة ، مخصص بعضها للطاعة والآخر للإمرة .. ولو على درجات وفروق شديدة التخالف بالقياس إلى هؤلاء وهؤلاء ... »

ولا يفتن الفيلسوف العظيم بأن يلقى أحكامه هكذا من غير حجة وبرهان .. وها هو ذا يقيم لها الحجة والبرهان .. فيقول :

« هذان المنصران : — الطاعة والإمرة — توجدان في كل مجموع مكون من عدة أشياء بالنسبة نتيجة عامة ^(١) ، منفصلة كانت تلك الأشياء أو متصلة ..

« هذا هو وضع فرضه الطبع على كل الكائنات الحية .. بل ربّما أمكن

(١) يريد أعياء ذات تفاعل بعضها مع بعض بحيث يشر هذا التفاعل ثمرة مشتركة بينها .

أن يكشف بعض آثار لهذا المبدأ حتى في الأشياء التي بلا حياة . . . مثال ذلك :

الانسجام في الأصوات ! ! غير أن هذا ربما يجرنا إلى أبعد من موضوعنا ! »

إلى هذا الحد من الاعتداد باختلاف الطبائع وتمييزها، علواً وإسفاً، في الجنس الواحد ، مضى الفيلسوف بنظرته أو نظريته فيشمل بها عالم الجداد . . ويضرب لهذا مثلاً بالنغم الموسيقي ، الذي ينشأ من انسجام الأصوات ، هذا الانسجام الذي لا معنى له إلا متابعة الأصوات الضعيفة للأصوات القوية ، وذوبانها فيها !

ويعضى « أرسطو » في شرح القضية ، وتقديم الأدلة بين يديها . . فيقول :
« بدياً . . الموجود الحى هو مركب من روح ومن جسد . . كان (١) أحدهما بالطبع ليأمر ، والآخر ليطيع .

تلك هى — على الأقل — إرادة الطبع التي يهيم أن تدرس في الكائنات العليا ، على حسب قوانينه المرتبة ، لا في الكائنات الدنيا .

« وإن سلطان النفس هذا بئس ، في الإنسان الكامل ، سليم العقل والبدن ، وهو وحده الذى ينبغى أن تختبر ذلك فيه .

أما في الفاسدين من الناس ، أو المستعدين للفساد ، فإن الجسم أحياناً يقسّط على النفس . . ذلك أن نموهم غير المرتب هو ضد الطبع تماماً .

ثم يقول . .

« أكرر أنه ينبغى إذن أن يُعرف — بادئ الأمر — في الكائن الحى وجود سلطة تشبه سلطة سيد وسلطة حاكم معاً . . النفس تتسلط على البدن . . كسيد على عبده ! والعقل مع الغريزة . . كحاكم ، كذلك ! !

« وإذن فبديهى أنه لا يستطيع إنكار أن يكون من الطبيعى ، ومن الخير للجسم ، أن يطيع النفس ، وللجزء الحساس من ذاتنا أن بطيع العقل والجزء العاقل ، وأن للسواة أو انقلاب السلطة بين هذه العناصر المختلفة يكون شراً للجميع !

(١) كان هنا تامة بمعنى وجد

« والحال كذلك بين الإنسان وسائر الحيوانات .. المستأنسة أحسن من الحيوانات المتوحشة .. وأن تكون خاضعة للإنسان فتلك مزية كبرى لها ، من حيث أمنها نفسه .. ومن جهة أخرى فإن الربطة بين الجنسين هي على هذا النحو .. فإن أحدهما أرقى من الآخر .. ذلك كان ، ليحكم ، والآخر كان ، لطبع .. »
وإذ يبلغ الفيلسوف من منطلقه إلى هذا الحد ، يجرى إلى صميم القضية التي يعالجها .. فيقول :

« ذلك هو أيضاً القانون العام الذي يجب ضرورة أن يسود بين الناس ، متى كان المرء أخط من أمثاله ، كما يكون الجسم بالقياس إلى النفس ، والبهيمة إلى — كان هو الرقيق بالطبع !
ويقول :

« على أن منفعة الحيوانات المستأنسة ومنفعة العبيد كلها شيء واحد ، فإن هؤلاء وهؤلاء يساعدوننا بقواهم المادية في قضاء حاجات المعيشة !
نم يخلص من هذا إلى حكم قاطع فيقول :

« ومهما يكن من شيء فبيّن أن البعض هم بالطبع أحرار ، والآخرين بالطبع عبيد ، وأن الرق في حق هؤلاء نافع بمقدار ما هو عادل ! ! ! ..
« يكون المرء سيداً ليس ألبتة لأنه يعرف أن يحكم ، بل لأن له طبعاً ..
ويكون الإنسان عبداً أو رجلاً بميزات مشابهة كذلك . !

« يمكن بالبديهة إذن أن نسمو بهذه المناقشة ونقرر أنه يوجد بفعل الطبع عبيد ، وأناس أحرار ... وإن العبد هو جزء السيد ، وأنه كجزء من جسمه ، وإن يكن منفصلاً عنه .. كذلك بين السيد والعبد ، مادامت الطبيعة هي التي صنعتها كليهما ... (١) » .

(١) انظر في هذا الكتاب السياسية لأرسطر ، ترجمة أحمد لطفي السيد (الباب الثاني)

ولا نريد أن نناقش رأى «أرسطو» ، هذا ، وما فيه من عدوان على الفطرة الإنسانية ، وصّبّ الناس في قوالب محددة ، لا تسمح لأحد بالتحرّك ، إلا في هذا القالب !

لا نناقش هذا الرأى، وإنما يكفيننا أن نأخذ منه الشاهد على أن الحياة الإنسانية وتقلب أحوال الناس فيها ، وقيام صور صريحة واضحة من الفوارق بين الناس ، بحيث أمكن أن تتشكل من هذه الظاهرة قضية يعالجها العقل ، بل وتُبنى عليها الحياة العقلية عند أكبر فلاسفة شهادتهم الحياة — هذه الحياة الإنسانية قبلت الرق على أنه أمر واقع لا مفر منه .

وعلى هذا ، فإننا نستطيع أن نقرر أنه إذا كان في وسع الضمير الإنسانى أن ينكر الرق . . وأن يراه جريمة شنعاء ترتكب في حق الإنسانية — فإنه ليس في وسع العقل أن ينكر واقعاً يعيش فيه الناس وتتعامل به الحياة ، وإن اختلفت صورته ، وتباينت أشكاله ، وتعددت مظاهره !

إن حالة الحرب تعطى المتحاربين في هذا العصر حقّ الأمر . . هذا الحق الذى يجعل الأسرى في يد أسريهم في حال أسوأ من الرقيق . . فقد يجد الرقيق في ملك مسترقه رعاية وعناية أكثر مما يجده أحسن الأسرى حالاً ، وأطيبهم مقاماً . . إذ كان الرقيق — فى أسوأ أحواله — مالاً ، يحرص صاحبه على تنميته وسلامته . . أما الأسير ، فهو عبء ، ربما كان من المصلحة التخلص منه !

الديانات السماوية والرّق :

وإذا كان سلطان القوة قائماً في الحياة ، وإذا كان الأقوياء موجودين دائماً في كل زمان ومكان ، حيث يجدون من يذلّ لسلطانهم ، ويخضع لقوتهم ، فإن الأديان السماوية لم تجد من التدبير الحكيم لرسالاتها أن تحمل إلى الناس دعوة تفكر عليهم هذه الطبيعة المتمكنة فيهم ، وأن تجعل من الأقوياء والضعفاء

كياناً واحداً ، فذلك أكثر من أن يحتمله الناس ، وأن يستجيبيوا له !
فهكذا ولد الناس ، وهكذا يموتون !

تقول التوراة :

« وابتدأ نوح يكون فلاحاً ، وغرس كرماً ، وشرب الخمر ، فسكر وتعزى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبره أخويه خارجاً .. فأخذ سام وياث الرءاء ووضعاه على أكتافهما ، ومشيا إلى وراء ، وسترا عورة أبيهما ، ووجهاهما إلى وراء ، فلم يبصرا عورة أبيهما .. فلما اعتيقظ نوح من خمره علم ما فعل ابنه الصغير ، فقال ملعون كنعان (ابن حام) .. عبداً يكون لأخوته !! وقال : يبارك الرب إلآ سام ، وليكن كنعان عبداً لهم .. ليفتح الله لياث فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم » (تكوين ٩ : ٢٠-٢٧)

وإذا كان سام هو الذى فعل هذه الفعلة التى آذت أباه نوحاً ، فإن اللعنة لم تقع عليه ، بل رمى بها نوح « كنعان » ابن حام ، فإنها على أية حال لعنة قد أصابت ثلث هذا العالم على الأقل ، فجعلت هذا الثالث عبيداً للثلثين الآخرين !

وفي أسفار التوراة أحاديث كثيرة لا تسكاد تحصر ، عن العبيد ، والخدم ، والرقيق فى خدمة الرسل ، والأنبياء ، وفى ملك يمينهم !

وفي الأناجيل التى تروى أحاديث السيد المسيح يضرب المسيح كثيراً من الأمثال للعبيد الذين يعملون فى ملكة أسيادهم !

يقول السيد المسيح : « فمن هو العبد الأمين الحكيم الذى أقام سيده على خدمته ليعطيهم الطعام فى حينه ؟ طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا » (١).

ويقول : « من منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له إذا دخل من الحقل :
تقدّم سريعاً واتّكئ ؟ بل ألا يقول له : أعدّد ما أتعشّى به وتمنطق واخذ منى
حقى آكل وأشرب ، وبعد ذلك تأكل وتشرب ، فهل لذلك العبد فضل ، لأنه
فعل ما أمر به ؟ لا أظن ؟ » (٢)

وما كان المسيح عليه السلام لينسج أمثاله من باطل ، أو يقيمها من ضلال ،
ولكنه يأخذ مادتها من واقع الحياة التي يتقلب الناس فيها .

لا نقول هذا لفتهم الديانتين — الموسوية والمسيحية — بالإغراء باسترقاق
الناس ، واستعباد طائفة منهم لطائفة . . ومعاذ الله أن نقول بهذا ، فما جاءت
الأديان إلا لتحرير الإنسان بكيانه كله . . الجسدى والروحى والعقلى ! ولكننا
نقول هذا لنقرر أمراً واقعاً ، وهو أن الرق قد اتصل بالحياة الإنسانية اتصالاً لم يكن
من الحكمة في أكثر الأحيان التخلص منه بأمر سماوى ملازم .

ونقول هذا أيضاً في مواجهة الدعاوى الباطلة التي يدعيها أعداء الإسلام بأنه
لم يحارب الرق ، ولم يأت بحكم قاطع بتحريمه . . وقد قلنا من قبل إن الإسلام
كشريعة عاملة في الحياة لا يستطيع أن يفتزع من الحياة داء كامناً في الطبائع ، متمكباً
من النفوس ، فإنه إن فعل أوقع الناس في حرج ، وجاء إلى النفوس بما لا يطاق . .
وقد بُنى الإسلام على السماحة واليسر . . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

ولكن الإسلام مع هذا لم يدع هذا الداء يستشري ، بل طَبَّ له ، وقدم من
الدواء ما برجى معه الشفاء . . وإن كان ذلك على زمن متطاوّل ، فإنه خير من
عملية بتر ، قد تذهب بالجسد الاجتماعى كله ، أو تحلّ عقد نظامه ، وإن كان واهياً !

الإسلام وعلاج الرق :

والحقيقة التي تقع موقع البدهيات ، والتي يكون طلب الدليل لها ، أو إقامة

البرهان عليها — استخفافاً بالعقل ، وعبثاً به — هذه الحقيقة هي أن الإسلام — كما قلنا — التقى بالحياة والرقيق فيها يملأ وجه الأرض ، والأرقاء يأخذون وضعا يكاد يكون مستقراً إلى جانب الحيوانات وأدوات الإنتاج ، لا يكادون يتحولون عنه ، أو يطمعون في التحول عنه !

وأكثر من هذا . . فقد أصبح وضع الرقيق في الحياة على هذا المستوى البهيمى أمراً ينظر إليه الناس — حتى الرقيق أنفسهم — على أنه طبيعة وجبيلة ، فكما خلق الكلب كلباً ، والحمار حماراً ، والذباب ذباباً . . كذلك خلق العبيد عبيداً . . هكذا استقر هذا المفهوم للرقيق في عقول الناس جميعاً . . الفلاسفة والعامّة على السواء !!

وأكثر هذا أيضاً . . لقد بلغ حساب الرقيق في دنيا الناس إلى درجة أن سَوَى بحساب البهائم والدواب ، سواء بسواء ، فأقيمت لهم الحظائر بعيداً عن منازل السادة . . تماماً كما يفعل بقطعان البقر والأغنام — ثم حين كثرت هذه الحظائر واندحت دوائرها تحولت إلى أحياء معزولة في المدن ، أو قرى قائمة في ضواحيها ! ولا يزال زنوج أمريكا إلى اليوم يعيشون في تلك المعازل أو الحظائر المخصصة لهم إلى اليوم ! وتشهد ثورة العبيد في روما — بقيادة باراكوس العبد — التي هزمت جيوش الامبراطورية الرومانية وكادت تذهب بها — تشهد هذه الثورة بأن العبيد كانوا يعيشون في مقاطعات مخصصة لهم ، وأنهم كانوا أمةً — من العبيد — في كيان أمة . من الأحرار !

هكذا كان الرقيق على هذه الأرض يوم التقى الإسلام بالناس !
تلك حقيقة لا يجادل فيها من له مَسْكَةٌ من عقل ، أو كان في وجهه ، قطرة من حياء !

فماذا كان من الإسلام في أمر الرقيق ؟ وماذا حمل من دواء لهذا الداء ؟
(٢٠ — التعريف بالإسلام)

يعلم الإسلام أن الداء خبيث ، متمكن من الناس ، آخذ وضماً يكاد يكون قائماً على حكم الفطرة والطبيعة .. فكان لابد والأمر كذلك من أن يحىء إليه من كل جهة ، وأن يلقاه بكل سبيل ، وأن يأخذه بالحكمة والتلطف ..

إن الأفاعى لا يطاق لقاءها وتذال من خلف بأطراف اليد وانظر صنيع الإسلام في هذا :

أولاً : دعوة عامة إلى الإخاء :

لقد ولد الإسلام الناس ولادة واحدة .. من رحمٍ واحدة هي الأرض .. !
وفي هذا يقول الله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً ^(١) » .. ويقول سبحانه . « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ^(٢) » ويقول جل شأنه « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. » ^(٣)

ويقول النبي الكريم : « أيها الناس .. إن إلهكم واحد .. وإن أباكم واحد .. كلُّكم لآدم ، وآدم من ترابٍ ... »
فإلى هذا النسب يرجع الناس جميعاً ..

وإذن ، فلا دعوى لإنسان على إنسان أنه خير منه .. بمولد ، أو موطن ، أو جنس ، أو لون .. وإنما يتمايز الناس ، ويفضّل بعضهم بعضاً بالعمل الطيب النافع ، الذى يُقدّره عليه جهده وسعيه !

ولاشك أن هذه الدعوة قد كان لها أثرها ، حيث صاغت الأذان وسلكت مسالكها إلى العقول والقلوب .. فاستبصر بها كثير من الناس بعد عمر ، وتنبه

(٣) سورة الحجرات آية ١٧

(١) سورة نوح آية ٢٧

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢

كثير منهم عن غفلة ، وأخذ كثير منهم ممن كان يعيش في إهاب مدبوغ بأصباغ الحسب والنسب ، مضْمَخٌ بمفاخر الآباء والأجداد — أخذ ينزع عنه هذا الإهاب الزائف ويفضو عنه هذا الجلد المرقع ليلبس جلد الإنسان ، أياً كان لونه .. أسود أو أبيض ، أو أحمر ! ..

وباستصحاب هذا الشعور الإنساني أمكن أن يعيش السيد والعبد إخوة ، ليس بينهم حِجَازٌ ما بين السادة والعبيد ! ثم لا تلبث هذه الأخوة أن تثمر ثمرتها ، فيخلى السيد العبد من يده ، حتى يعادل ميزان الأخوة القائمة بينهما !

ولا شك أن هذا الشعور الذى دخل على المسلمين من دعوة الإسلام هذه قد حرّر كثيراً من العبيد ، وفك رقابهم !

ولكن مع هذا ، قد ظل كثير من الناس على ولائهم لأنفسهم أكثر من ولائهم لداعى الأخوة ، فأمسكوا بالرقيق ، وصحبوه حبة العبيد ، وإن أحسنوا معاملتهم ، وترفقوا بهم !

فكان لابد والأمر كذلك — من دعوة أو دعوات أخرى ! .. وقد كان !

ثانياً : الدعوة إلى تحرير الأرقاء :

والرقيق مال له وزنه ، وله حسابه عند من هم في حاجة إلى المال ، أو في حال من الحرص عليه ، والرغبة في الاستزادة منه .

ومثل هؤلاء وهؤلاء لا يرضون بترك ما في أيديهم من هذا المال إلا بعوض يرونه مجزياً ، غير مفوّت عليهم شيئاً ! سواء كان هذا العوض مادياً أو أدبياً ، معجلاً أو مؤجلاً .. المطلوب هو أن يكون هناك عوض ما .

وقد عرض الإسلام في هذه السوق من أعيان المعاوضات وصورها ما يسع كل من في يدهم رقيق ، وما يحقق لهم عوضاً مجزياً ، إذا هم نزلوا به في هذه السوق !
ومن ذلك :

١ - العوض المالى :

دعا الإسلام مَنْ في مِلْكِهِم رقيق أن يستجيبوا لرغبة من ملكت أيديهم إذا هم دعوهم إلى شراء أنفسهم منهم !

وصورة هذا ، هو أن يتقدم الرقيق إلى مَنْ مَلَكَ رقبته ، ويطلب إليه أن يبيعه نفسه في مقابل مال يتفقان عليه . . فإن اتفقا على الثمن ، أعطى السيد عبده كتاباً بهذا ، يحدد فيه قدر المال الذى كاتبه عليه ، ويسمى الرقيق في هذه الحال مُكَاتَبًا إلى أن يؤدى المال المكاتب عليه . .

يقول سبحانه وتعالى : « والذين يبتغون الكتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، فكَاتِبُوهُمْ ، إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ، وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ » ^(١)

وهذا القيد الذى ورد فى الآية : « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا » إنما هو لمصلحة الرقيق نفسه ، بمعنى أن مالك رقبته لا يكاتبه إلا إذا رآه صالحاً لأن يستقل بنفسه ، ويكسب ما يسد حاجته ، وإلا فإن إطلاقه هذا تضيق له ، واستنبات لخائر فاسدة فى المجتمع تتكون منها جماعات من الضائمين ، الذين يعيشون فى تيه الحياة . . بلا هدف ولا عمل .

يقول ابن عباس رضى الله عنه فى معنى قوله تعالى : « إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا »
أى علمتم لكم حيلة ، ولا تُلْقُوا مَوْنَتَهُمْ عَلَى الْمَسْلُومِينَ .

وإذا كان الرقيق لا يملك شيئاً ، فإن هذه المكاتبه إذا لم تُرَفَد بتدبير يبلغ بها غايتها كانت ضرباً من العبث ! . . ولهذا فقد دعا الإسلام إلى أن يخفف المسلمون لمساعدتهم ، وتقديم العون المستطاع لهم . . فقال تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » وذلك تعقيباً على الدعوة بمكاتبهم ، وهذا الأمر يشمل السيد المكاتب ، كما يشمل المسلمين جميعاً . .

وذلك بأن ينزل السيد عن شيء من الثمن الذى كاتب الرقيق عليه . . وقد اختلف العلماء هل هذا النزول على سبيل الوجوب أو الندب ، كما اختلفوا فى قدره بالنسبة إلى المال المكاتب عليه . . ويروى عن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه كان يرى أن يحطّ مولى العبد المكاتب ربع ما كاتبه عليه .

وقد دعا الإسلام فى أكثر من آية من آيات الكتاب الكريم إلى مساعدة المكاتبين ، والمشاركة فى تخليصهم من العبودية . . فقال تعالى : « ليس البر أن تؤلّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب » ^(١) . . وقال تعالى : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذامقربة ، أو مسكيناً ذامتربة » ^(٢) .

ولم يكتف الإسلام بهذا فى هذا الموقف ، ويجعله إلى الندب والاستحباب ، بل أقام إلى جانب ذلك يداً تمتد بالدون على طريق الفرض والإلزام ، وذلك فى مال الزكاة التى فرض الإسلام فيها حقاً لهؤلاء المكاتبين ، وجعل فك رقابهم مصرفاً من مصارفها ، فقال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين

(١) سورة البقرة : ١٧٧

(٢) سورة البلد آية ١١ - ١٦

عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل»^(١) . . .
ففي الرقاب هنا هم المكاتبون الذين يسمون للخلاص من الرق .

(ب) المعوض بما يقابل المال أو الجهد :

هناك أعمال يرتكبها المسلم مخالفاً بها شريعة دينه ، فإذا أراد أن يكفر عما ارتكب . . . كان كفارة ذلك مالاً ينفقه ، أو عبداً يعتقه ، أو أياماً معدودات يصومها . . . وقد لا يكفر بعض الذنوب إلا بأكثر من واحد منها . . . وقد يكون بعضها ألزم من بعض ، فلا يجزى أحدها عن الآخر في حال الإمكان منه . . . كما سنرى :

١ — في الحنفث باليمين . . . كفارته على ما يقول به القرآن الكريم :
« لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام . . . ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتُمْ واحفظوا أيمانكم »^(٢)

فهنا يجيء تحرير الرقبة مقابلاً لإطعام عشرة مساكين ، أو كسوة عشرة منهم . . . فالريق هنا مال مقوم بهذا القدر، والحائث بخير في أن يكفر عن يمينه بأي منها . فإن لم يجد مالاً يطعم به أو يكسو ، أو لم يكن يملك رقيقاً يعتقه . . . كان صوم ثلاثة أيام مجزياً عنه .

٢ — وفي القتل الخطأ لنفس مؤمنة . . . يكون عتق الرقبة أمراً واجباً في الكفارة عن هذا القتل إذا كان في يد القاتل رقيقاً مملوكاً . . . فإن لم يكن فصيام شهرين متتابعين . . . وفي هذا يقول الله تعالى :

(١) سورة التوبة آية ٦٠

(٢) سورة المائدة آية ٨٩

«ومن قتل مؤمناً خطأً فتحريرُ رَقَبَةٍ مؤمنةٌ ، وَدِيَّةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أهلهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا... فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ . وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أهلهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ » (١)

وقيد تحرير الرقبة بمؤمنةٍ هنا ، لأن القَتِيل مؤمن ونفس مؤمنة بنفس مؤمنة !
٣ - وفي الظَّاهِر - وهو أن يقول الرجل لزوجته أنت على كظهِرِ أُمِّي - يريد تطليقها وتحريمها بهذا البدع من القول - أوجب الإسلام كفارة للتطهر من هذا الإثم ، بحيث لا يحل للرجل أن يعيد زوجه إليه إلا إذا تطهر بهذه الكفارة . . وفي هذا يقول الله تعالى :

« الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ... إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ... وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا » (٢) .

ويلاحظ هنا أن فك الرقبة هو المطلوب أولاً ، بحيث لا يقبل غيره من صيام أو إطعام إذا وجد الرقيق في ملكة المظاهر .

هذه وجوه فتحها الإسلام لإخراج الرقيق من أسر العبودية إلى آفاق الحرية الواسعة ، حيث يجد كثير من هؤلاء الضائعين وجودهم ، ويستردون إنسانيتهم ! وقد كان لهذه الوجوه الملزمة في أكثر الأحوال أثرها في تحرير أعداد لا حصر لها من الرقيق ، في المجتمع الإسلامي ، بحيث كان مطلع كل يوم يأتي وقد حمل

(١) سورة النساء : ٩٢

(٢) المجادلة : ٢ ، ٤

إلى كثير من هؤلاء الأرقاء بُشريات مسعدة بالخروج من السجن المؤبد المطبق عليهم ، وعلى ما يكون لهم من ذرية . . كما كان لهذه الوجوه أيضاً أثرها في فتح منافذ الأمل والرجاء لهؤلاء الذين باتوا في أسر الرق ، وقيد العبودية . . فما أكثر الأحلام الطيبة التي كانت تطرق هؤلاء الأرقاء في صحوهم ونومهم بما سيطلع عليهم به الغد من أحداث ، تتغير بها مجرى حياتهم ، وتتحوّل معها أحوالهم .

ومع هذا كله ، فقد ظل كثير من الأرقاء في أمر الرق ، لم تتسع لهم هذه المنافذ التي فتحتها الإسلام من كل جهة . . فهل انتهى ما عند الإسلام من دواء لما بقي من هذا الداء ؟

إليك الجواب :

(ج) العوض .. ثواب الله ورضاه :

وهذا باب واسع فتحه الإسلام لتحرير الرقيق ، ورصد لمن يبيعهم لله ، ثواباً مذكوراً ليوم القيامة « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضراً » .

ومن هذا الباب الفسيح دخل كثير من الرقيق إلى عالم الإنسانية ، حيث تسابق للتبيع فيه كل من آمن بالله ، وابتغى مرضاته ، والاستزادة من فضله ورحمته ، وما أكثرهم ! يقول النبي الكريم « أيما امرؤ مسلم أعتق امرأ مسلماً استغفرت الله بكل عضو منه عضواً منه من النار » (١)

وعن سهل بن حنيف ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غارماً في عُسْرته ، أو مكاتباً في رِقْبته أظله الله يوم لا ظل إلا ظله » (٢)

(١) البخاري ومسلم .

(٢) مسند أحمد .

وقد استجاب المسلمون لهذه الدعوة الكريمة ، حتى لقد كان كثير منهم يفتلح بكلمة واحدة عن جميع ما في يده من رقيق . فيقول لمن في يده : أنت حر لوجه الله ، أو أنتم أحرار لوجه الله ! وكان النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة ، فما ملك رقيقاً من فئء أو غنيمة إلا فك رقبتة ، وتركه حراً لوجه الله . . . !

« روى البخارى عن عمرو بن الحارث قال : « ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم عند موته درهما ولا ديناراً ، ولا عبداً ولا أمة ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة » .

ومع هذا أيضاً فما زال في المجتمع الإسلامى رقيق ، وما زال كثير من الناس يملكون رقاب أعداد كثيرة منهم !

ونعود فنسأل مرة أخرى ؟ هل يترك الإسلام هؤلاء الأرقاء بَلَقُونَ مصيرهم المحتوم ، دون أن يقدم إليهم شيئاً يخفف ما بهم من وطأة هذا الداء العيأ ؟

لقد قدم الإسلام هنا ألواناً من البر والرحمة لهؤلاء الأرقاء ، الذين لم يخلصوا بعد من يد الاسترقاق .. فإنه إلى جانب الدعوة العامة التى حملها الإسلام للتراحم بين الناس ؛ اختص الأرقاء بلفتات كريمة منه ، لفت إليها كل من كان في يده رقيق !

يقول النبي الكريم وهو يحدث أصحابه ، ويكشف لهم عن أشرار الناس ودرجاتهم في المرتع الوبيل : « ألا أخبركم بشرٍّ من ذلكم ؟ قالوا : بلى ! قال : « من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رِفْده » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « إخوانكم خَوَانُكُمْ ، استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » .

ولا يقف الإسلام عند هذه الألوان من البر والإحسان التى يجدها الرقيق في

حياته المادية ، بل إنه يحمل إلى مشاعر الأرقاء ووجداناتهم ألواناً أخرى ، يستروحون منها ريح الإنسانية ، وينسَوْنَ معها أنهم عبيد أرقاء .

يقول النبيّ صلوات الله وسلامه عليه : « لا يقولنَّ أحدكم عبيدى وأمتى .. كلّكم عبيد الله ، وكل نساءكم إماء الله .. ولكن ليقل غلامى وجارىتى ، وفتاى وفتاتى » (١)

انظر كيف يؤدب الإسلام المجتمع الإنسانى وكيف يمسك بأدق الخيوط التى تتسرب فى النفوس من غير أن يلتفت إليها أحد ، أو يعمل لها حساباً ، على حين أنها تلد مواليد ضخمة خطيرة فى الحياة ، وتترك آثاراً واضحة عميقة فى كثير من جوانبها !

فالكلمة فى حساب كثير من الناس لا قيمة لها عندهم ، ولا حساب لها فى تقديرهم .. إنها لا أكثر من صوت ينطلق هنا أو هناك ، أشبه بخطوة الرجل ، أو حركة اليد .. ولكنها فى تقدير الإسلام — كما هى فى واقع الأمر — ذات شأن عظيم ، إذ أنها البعوضة التى تتخلق منها المشاعر ، وتشكل الصور ، وتبرز الأعمال !

ولهذا ، فإن القرآن الكريم — رعايةً لأثر الكلمة ، وتقديراً لقدرها — لم يُجَرِّ لِكَلِمَةٍ « عبد » ، « ورقيق » ذكرّاً فيه ، على كثرة ما عرض لأحكام الأرقاء والعبيد ، فى الملك والعق ، والفكاح وغيرها .. بل استعاض عنها بكلمات : الموالى والإماء ، وما ملكت الأيمان ، والفتى ، والفتيات ..

قال تعالى : « وإذ قال موسى لفتهاهُ لا أبرحُ حتى أبلغ مجمع البحرينِ » أو أمْضِ حُتُباً ، (٢)

(١) مسلم : جزء ٧ ص ٤٦ .

(٢) سورة الكهف آية ٦٠

وقال سبحانه: «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه» (١)

وقال جل شأنه: «ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمأً ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات أخدان» (٢)

وقال سبحانه: «والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً» (٣) .. وقال: «ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آبائهم فأخوانكم في الدين ومواليكم» (٤) !

مرة واحدة ذكر فيها القرآن الكريم كلمة العبد مقترنة بصفته الدالة على رِقَّة .. وذلك في مقام العرض للإنسان في أسوأ أحواله ، وأهونها ، حيث يقم من هذا العرض مقايسة بين السيد الذي يملك ويقدر ، والعبد الذي لا يملك ولا يقدر على شيء ، وبين الخالق العظيم ، والخلق الضعيف العاجز .. «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه ميئاً رزقاً حسناً ، فهو يُنفق منه سراً وجهرأ .. هل يستون ؟» (٥)

وواضح أن هذا العرض لا يدخل منه إلى مشاعر الإنسان شيء ينزل به قدر العبد عنده ، بقدر ما يستشعر من استصغار لقدره هو إلى جانب قدر الله وعظمته ! شيء عظيم وكثير إذن ، هذا الذي صنعه الإسلام لتحرير الرقيق ، تحريراً

(١) سورة يوسف آية ٣٠

(٢) سورة النساء آية ٢٥

(٣) سورة النور آية ٣٣

(٤) سورة الأحزاب آية ٥

(٥) سورة النحل آية ٧٥

منبعثًا من أعماق الإنسانية ، ونابعًا من وجدانها ، وصادرًا عن إيمان يعمر القلب ،
ويسكن الضمير ..

وإنه ليزيد من عظمة هذا الصنيع الذى صنعه الإسلام — إن كان فوق ذلك
عظمة — أنه جاء فى وقت كانت فيه الإنسانية كلها ملففة فى ظلمات الجاهلية ،
متخبطة فى أمواج متلاطمة من البغى والظلم ، بحيث لا عاصم للإنسان من إنسان
إلا قوة مغالبه ، وحدة أنيابه ، وإلا فهو لقمة سائغة لمن هو أحدٌ منه نابًا ،
وأقوى مغلبًا !

صفحة مشرقة من صفحات الإسلام .. يعمل أعداء الحق ، والإنسانية على
طمسها ، وتضييع معالمها : « ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون » .

* * *

خاتمة

نحو حياة أفضل

— ١ —

يخطئ كثير أولئك الذين ينظرون إلى الدين نظرة فلسفية ، وينتظرون منه أن يحقق أحلام الفلاسفة ، في إقامة مدن قاضلة على هذه الأرض !

إن الفلسفة ، والشعر ، والقصص ، وما إليها يمكن أن يشهد الناس فيها — أى في كلماتها وصورها — تلك المدن الفاضلة ، التى يحيا فيها أهلها حياة سلامة ، وأمن ، ورخاء ! إنها عوالم يمكن أن تقوم على الورق ، فى صور من الكلمات والعبارات ، يعيش معها الإنسان ، كما يعيش فى حلم من أحلامه .

ولكن الذى لم يقع ولن يقع هو أن تظهر هذه الأحلام فى واقع الحياة ، وأن يقوم مجتمع إنسانى — مهما صغر — على تلك الصفة التى يتمناها محبو الإنسانية للإنسان !

فمجتمع الأسرة — على صغره ، وعلى ما بين أفراد من صلات عاطفية طبيعية — هذا المجتمع لا يمكن أن يقيم أمره دائماً على السلامة والعافية ، والاستقرار .. مهما سعى إلى هذا ، واجتهد فيه .

فإنه إن أمكن أن ينتظم شمل الأسرة لفترة من الزمن ، فإنه يكون من غير الممكن أن تظل هذه الحال ، دون أن يدخل عليها ما يغير من صورتها .. إن لم يكن ذلك من فعل أحد أفرادها ، كان من عمل الزمن وأحداثه .. وما أكثر هذا وأوفره !

وندع المتاعب المالية التي قد يتعرض لها هذا المجتمع — مجتمع الأسرة الصغير —
فربما لا يعترف به أولئك الذين يرون أن شقاء المجتمع الإنساني ناجم عن سوء
توزيع الثروات ، وسوء استغلالها ، واستهلاكها ، وأن ما في الأرض من ثروات
يكفى لأن يعيش فيه الناس في رخاء وأمن ، وسعادة ، إذا ضبطت ضبطاً محكماً ،
ووزعت توزيعاً عادلاً ، وهذا ممكن أن يكون تحت سلطان النظام والقانون !

ندع هذا ، ونضع في يد الأسرة من المال ما فيه كفايتها ، وكفالتها من
الحاجة ، والعوز ! ثم ندع هذه الأسرة تستقبل نصيبها من الأمراض الطارئة ،
أو المستعصية ، ومن أمراض الشيخوخة ، ثم أخيراً الموت .. الذي يبدد شملها ،
 ويفرق جمعها ، ويملاً قلوب الأحياء منها حسرة وألماً !

فإذا تملك الأسرة الصغيرة إزاء هذه الضربات ؟ وبأية قوة تدفعها ؟ وبأى قدر
من المال الذي بين يديها تستطيع أن تدفع ضربات الزمان ؟

ثم نسأل :

أهذا المجتمع الصغير المحدود الذي يكاد يكون جسداً واحداً .. أهو سعيد ؟
أهوا راض كل الرضا عن حياته في نفسه ، وفيمن يرتبط به ؟
إنها تجربة اشترك ويشترك كل إنسان بدوره فيها .. تجربة في بضعة أفراد ،
ولبضع عشرات من السنين ..

فكيف يكون الحال في مجتمع أمة ، أو مجموعة أمم ، أو الإنسانية كلها ،
على امتداد المكان والزمان ؟

إن آفات كثيرة لا تحصر ولا تضبط ، تعيش في صميم هذه المجتمعات بجميع
مستوياتها ، وإنه إن يمكن لأية قوة على هذه الأرض أن تقضى على هذه الآفات ،
وأن تنقّي المجتمع منها .. إنها قوى مسلطة على الإنسان ، وموجهة إلى الهدم والتدمير ..
هدم كل ما يبني الإنسان ، وتدمير كل ما يعمر .. وبهذا الهدم والتدمير تتحرك

فى الناس — جماعات وأفراداً — نوازع العمل والبناء ، فيعيدون بناء ما هدم ،
وتعمير ما دمر .. وهكذا دواليك .. بناء وهدم ، وإصلاح وإفساد ، وزرع
وحصاد ، وحياة وموت ..

إنها سنة الحياة فى الأحياء .. وإن تجد لسنة الله تبديلاً .

فكيف يمكن أن يتحقق للمجتمعات الإنسانية أن تقوم على السلامة
والأمن ، والسعادة ؟

إن خير المجتمعات ، وأقربها إلى الكمال ، تلك المجتمعات التى تقل فيها هذه
الآفات ، أو تخف ضرورتها .. وبهذا يحصل الناس على قدر من الرضا ، وشئ من
الأمن والسلامة ! أما الرضا على إطلاقه ، والسلامة على تمامها ؛ فلن تقع فى هذه
بالأرض لإنسان فرد ، ولو كان يملك الأرض وما عليها . !

— ٢ —

والإسلام .. نظام مجتمع ، وشريعة حياة ، ودستور عمل . . . وقد جاء ليقم
المجتمع الإنسانى ، على ما ركب فيه من خير وشر .. دون أن يحمل معه معجزة
تحويل بها الطبائع الإنسانية عن طبيعتها ، وتخرج بها عن فطرتها التى فطرها الله
عليها .. وإنما جاء ليلتقى بالإنسان كما هو .. بخيره وشره ، بنوره وظلامه ، فى
سمائه وأرضه . . . !

وغاية ما يبتغيه الإسلام برسائله إلى الناس هو أن يقوى جوانب الخير فى
الناس ، وأن يكشف بعض ما يفسد حياتهم من ظلام ، وأن يوجه أبصارهم وقلوبهم
إلى السماء ، على حين تظل أقدامهم ثابتة راسخة على الأرض !

ما جاء الإسلام أبداً ليقم على هذه الأرض جنة يعيش فيها الناس ، بلا خطايا
ولا خطائين ، ولا ليحمل منهم ملائكة يمشون فى الأرض ، فلا يسمعون فيها لنواً

ولا تأثيا .. وإنما هو دواء تحمله الشريعة في أحكامها وتعاليمها، لتحفظ على الإنسان إنسانيته ، ولتصحح من أخطائه ، ولتعيد إليه السلامة والعافية ، إذا هو اعتلّ ومريض .. وليس من طبيعة هذا الدواء أن يغير ويبدل من خلق الإنسان ، وما ركب فيه من غرائز وطبائع ..

وإذن فالذين ينتظرون من الإسلام ، أن يحل مشكلات الحياة كلها ، وأن يقيم الناس في رحابه في جنة أرضية أشبه بالجنة الموعودة في اليوم الآخر — إنما يكافون الذين شططا ، ويحملونه فوق ما يحتمل .. إذ ليس من وظيفة الدين — شأنه في هذا شأن كل مذهب ، أو دعوة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية — ليس من وظيفته أن يبدل الأرض غير الأرض ، وأن يجعل ليلها نهاراً ، أو نهارها ليلاً ، أو أن يجعل شتاءها ربيعاً ، أو ربيعها شتاء .. بل هي ليل ونهار ، وربيع وشتاء ، وصيف وخريف ، وماء ، وياسة ، وبحار وأنهار !

وإن الإسلام نظام إصلاحى ! غايته أن يحفظ على الإنسان وجوده الذى فطره الله عليه ، وأن يبقى على هذا الوجود فى أحسن وضع ممكن له ، فيصلح ما فسد من كيان الإنسان ، ويقيم ما اعوج منه ، ويشد ما انحلت من قواه .. كل ذلك فى الحدود التى تحتملها طبائع الناس ، وتعطيها نزعاتهم ..

ولعله من الخير أن نذكر هنا المثل الذى ضرب به الرسول الكريم لرسالة الإسلام التى جاء بها .. يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« مثل ما بعثنى به الله عزّ وجل من الهدى والعلم ، كمثل الغيث أصاب أرضاً .. فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا ورعوا .. وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ..

« فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه بما بعثنى الله به .. فعلم وعلم ..

« ومثلُ من لم يرفعْ بذلك رأساً ، ولم يقبلْ هُدًى الله الذى أرسلتُ به » .
إن الإسلام — وكل دعوة صالحة — أشبه بالماء الذى يلتقى بوجوه مختلفة
من وجوه الأرض ، فينقاه كل وجه بما عنده من قوى التفاعل معه ، أو الهدئ
عنه . . ثم لا يملك الماء أن يغير من هذه الوجوه إلا بمقدار ما عندها من استعداد
واستجابة . . !

هذا ، ولعلّ هذا الإحساس السلبى ، أو الفاتر الذى دخل على الناس فى أمر
الدين هو نتيجة لازمة لهذا الفهم الخاطيء الذى فهمه الناس للدين ، ولهذا التقدير
غير السليم لوظيفته . . إذ وقع فى فهم كثير من الناس ، وفى تقديرهم أن الدين هو
الأمل المنتظر ، الذى يعلقون به آمالهم ، لحلّ مشكلاتهم ، وشفاء علالهم
وأمرضهم ، والقضاء على كل ما ترميهم الحياة به من شرور وآلام . . ثم إذا هم
جاءوا إلى الدين ، أو جاء إليهم الدين ، وصحبوا الحياة معه ثم وجدوا أن الحياة
هى الحياة ، وأن وجهها لم يتغير هذا التغير الذى توقعوه ، وأن الإنسانية مازالت
تتقلب فى آلامها وأوجاعها ، وأن الشرّ مازال باسطاً سلطانه على كثير من
النفوس والمجتمعات . . عندئذ يسوء ظنهم بالدين ، وتخيب آمالهم من جهته . .
وعندئذ يكون التجديف فى الدين ، والاستخفاف به !

ولو نظر هؤلاء المتهمون للدين ، والواقعون فيه — لو أنهم نظروا إلى الدين
كعامل مساعد على تلطيف سُمّار الحياة ، وتخفيف ويلاتها ، وتقليل شرورها ،
لوجدوا الدين يودى فى هذا المجال ما لا يمكن أن تبلغه دعوة من دعوات الإصلاح ،
أو ينشده دعاة الخير والسلام للناس . . وذلك مع أمن العاقبة ، ونجح المقصد ،
دون أن تعرض الجماعات الإنسانية للهزات والاضطرابات التى تصحب
— غالباً — كل دعوة أو حركة إصلاحية تنبع من اجتهاد المصلحين ، وتوزن
بمیزانهم !

وإنه لضلال في الرأي ، وفساد في التدبير أن يعلم الناس أن السماء قد دبرت لهم تدبيراً ، وأقامت لهم مسالك وطرقاً ، ثم هم يعدلون عن ذلك إلى تدبير من تدبيرهم ، وإلى مسالك وطرق من مسالكهم وطرقهم !! وإنه لو كان لهذا السلوك منطوق يقوم عليه لكان حتماً لازماً عليهم أن يستبدلوا بما أودع الخالق فيهم من جوارح وملكات، جوارح صناعية، وملكات صناعية، فيصنعون من صنع أيديهم عيوناً بدل عيونهم، وآذاناً بدل آذانهم، وأنوفاً بدل أنوفهم، وألسنة بدل ألسنتهم... وهكذا.. فإن هذا من ذاك ، فكيف يكون لهذا حساب وتقدير ، ولذا حساب غير هذا الحساب ، وتقدير غير هذا التقدير ؟

إن عنصر الزمن وحده هو الذي جعل من هذه الأمور المتجانسة في تمامها وكلها تبدو لأعين الناس مختلفة متباينة . .

فمسائل الدين ، وأحكامه وتوجيهاته لا تقع آثارها في اللحظة التي يتصل الناس فيها بتلك الأحكام وهذه التوجيهات ، ومن هنا كانت الحجة التي تقوم على المجادلين والمعاندين حجة كلامية أكثر منها مادية . . على حين أن وضع عين صناعية مكان عين طبيعية ، أو لسان صناعي بدل لسان طبيعي ، تظهر آثاره في الحال ، بل وتضع من يفعل هذا الفعل — لغير ضرورة ملجئة من الناحية الطبية — تضعه في جماعة المجانين إن كان في العقل ، وتنقله فوراً إلى عالم العُبي والبُكم .

ولو أن للدين مثل هذا السلطان القاهر الحاضر لما كان للإنسان مع الدين اختيار . . ولكان الدين أشبه بمجهاز قائم في كيان كل إنسان ، ليس للإنسان معه رأى أو إرادة .

والدين دعوة سماوية موجهة إلى العقل الإنساني ، وإلى عناصر الخير والحق في

الإنسان . وما كان لمثل هذه الدعوة الكريمة أن يساق إليها الناس سوق الأنعام ، وأن يحملوا عليها حل اضطرار وإلزام . .

إن الدين دعوة يمتحن فيها العقل الإنساني ، ويمحص به خيره وشره . . « فن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضلّ فإِنما يضلّ عليها . . » ^(١) « فذكر إنما أنت مذكر ، است عليهم بمصيطر ^(٢) » .

إن الدين خير كله . . والخير لا يُحمل عليه الإنسان حملاً إلا إذا كان صغيراً ، أو معتوهاً أو مجنوناً . . أما الإنسان العاقل الرشيد فهو وما يختار له عقله . . وإلا فما فائدة هذا العقل ، وما مجال انتفاع الإنسان به ، إذا هو لم يتعرف إلى الخير ، ويمسك به ؟

ذلكم هو الدين — دين الإسلام — في مواجهة العقل ، يدعو إلى الحق والخير . . الحق الممكن ، والخير المستطاع ، في غير ضغط ، ولا إكراه ، ولا تمويه . . « فن أبصر فلنفسه ، ومن عى فعايها وما أنت عليهم بوكيل » ^(٣)
« وقل الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى . . آله خير أم ما يشركون » !

* * *

(١) سورة الإسراء : آية ١٥

(٢) سورة الفاشية : آية ٢٣

(٣) سورة الأنعام : ١٠٤



موضوعات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	الاهتمام
٧	تقديم
٢٥	من مغارس الإسلام
٢٦	من القرآن الكريم
٢٩	من السنة المطهرة
٣٨	مدخل إلى البحث

الباب الأول

الرسالة الخالدة

٥٥	الرسالة الخالدة
٥٥	الخلود وحدوده
٥٦	الإسلام وأهليته للخلود

الباب الثاني

الإنسان ونظرة الإسلام إليه

٩٢	الإنسان كائن أسمي من حيوان
٩٧	الإنسان في هذا التقدير
٩٨	الدين والعداوات المضرة له
١٠٧	حجة داعضة
١٠٧	الحقائق الدينية وكيف يعرضها الإسلام
١١٣	الإنسان في مواجهة الدعوة الإسلامية

الباب الثالث

الإسلام وقضاياها

١١٩	نظام ... لا كلام
١٢٣	قضايا الإسلام ما هي ؟

الفصل الأول

الألوهية

١٢٥	الإله .. ولماذا ؟
١٣٠	الإله في الفكر المادى
١٣٩	الإله في التفكير المادى .. مرة أخرى
١٦١	الاطمئنان العقلى والاطمئنان القلبى
١٧٢	الآخرة والبعث والثواب والعقاب
١٧٣	الحياة الآخرة في الإسلام

الفصل الثانى

العبادات

١٧٥	بين الخالق والمخلوق
١٧٧	السماء تتدخل
١٧٨	العبادات في الإسلام

الفصل الثالث

المعاملات

١٨٥	العمل وفطرة الإسلام إليه
-----	--------------------------

الصفحة	الموضوع
١٨٥	العمل في شريعة الإسلام ، والعبادة عمل
١٨٦	وجوه العمل في الإسلام

الفصل الرابع

الآخلاقيات

١٩١	الغراس والنثر
---------------	---------------

الباب الرابع

سمات بارزة في الإسلام

الفصل الأول

١٩٧	إنسانية الشريعة
---------------	-----------------

الفصل الثاني

٢٠٣	عموم الشريعة.
---------------	---------------

الفصل الثالث

٢١٠	يسر الشريعة
---------------	-------------

الباب الخامس

مفاهيم خاطئة

٢٤٩	الحدود في الإسلام
٢٥٧	القتل وحده

الصفحة	الموضوع
٢٥٨	السرقه وحدها
٢٦٣	الزنا وحده
٢٦٠	شرب الخمر وحده
٢٨١	المرأة ومكانتها
٢٩٣	الرقيق . . قبل الإسلام ، وفي الإسلام

خاتمة

. نحو حياة أفضل

مراجع البحث

نذكر هنا أهم المراجع التي كانت موضع النظر أثناء إعداد هذا البحث :

١ - كتب دينية

- ١ - تفسير القرطبي
- ٢ - تفسير الطبري
- ٣ - تفسير الرغزباني
- ٤ - صحيح البخاري
- ٥ - صحيح مسلم
- ٦ - سنن أبي داود
- ٧ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام
- ٨ - إعجاز القرآن للمؤلف
- ٩ - التوراة
- ١٠ - الاناجيل الأربعة

٢ - كتب علمية

- ١١ - حضارة الإسلام ... لجوستاف جرونباوم
- ١٢ - الحرية في مصر ... لسلامة موسى
- ١٣ - العقيدة والشريعة في الإسلام ... لجولد تسيهر
- ١٤ - تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال.. ترجمة عباس محمود
- ١٥ - وجهة الإسلام ... للمستشرق جب ترجمة أبو ريده
- ١٦ - دراسات في الأدب العربي لجوستاف جرونباوم .

للمؤلف

- ١ - السياسة المالية في الإسلام
- ٢ - القضاء والقدر : بين الفلسفة والدين
- ٣ - عمر بن الخطاب .. الوثيقة الخالدة للدين الخالد
- ٤ - الدعاء المستجاب
- ٥ - قضية الألوهية بين الفلسفة والدين : جزءان
- ٦ - إيجاز القرآن ... جزءان
- ٧ - النبي محمد صلى الله عليه وسلم
- ٨ - الخلافة والامامة : ديانة وسياسة
- ٩ - محمد بن عبد الوهاب (الدعوة الوهابية)
- ١٠ - القصص القرآني
- ١١ - في طريق الإسلام
- ١٢ - من الحقل الإسلامي
- ١٣ - نشأة التصوف في الإسلام
- ١٤ - الأدب الصوفي في مفهوم جديد

: المسيح في القرآن ، والتوراة والإنجيل